الدكتور شوقي أبو خليل





دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



دار الفكر
دمشق - سورية

الدكتور شوقي أبو خليل

التّولد: ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.

المؤهل العلمي: دكتوراه في التاريخ الإسلامي بمرتبة الشرف الأولى.

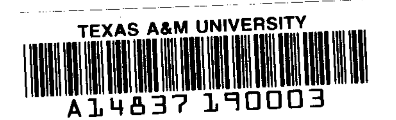
الوظائف: مدرس مادة التاريخ في ثانويات دمشق، ثم رئيس قسم الامتحانات، ثم الموجه الاختصاصي لمادة التاريخ في مديرية تربية مدينة دمشق، ثم عضو المناهج والكتب في وزارة التربية العربية السورية. محاضر في كلية الشريعة (جامعة دمشق).

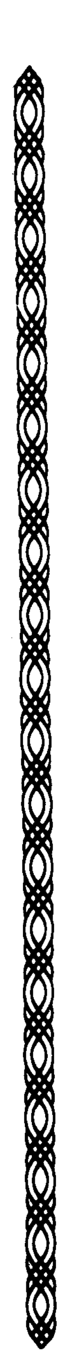
- مدير التحرير في دار الفكر بدمشق.

من كتبه التي تجاوزت الخمسين كتاباً: الحضارة العربية الإسلامية، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، أطلس دول العالم الإسلامي، الإسلام في قفص الاتهام، الإنسان بين العلم والدين، الإسلام وحركات التحرر العربية، هارون الرشيد، جرجي زيدان في الميزان، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشّرين، التسامح في الإسلام، الإسلام نهر يبحث عن مجرى..

- غزوات الرسول الأعظم ﷺ (١-١٠).
- المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام (١-١٥).
- سلسلة أحب أن أكون (١-٢٠).
- سلسلة أحب أن أعرف تاريخ أمتي (١-١٢).

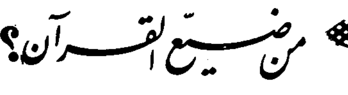
وجميعها من إصدارات دار الفكر بدمشق.






بسم الله الرحمن الرحيم




من ضيع القرآن؟

من ضيع القرآن؟/ شوقي أبو خليل. - دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨ . - ٣٢٠ص؛ ٢٤سم.
صدرت الطبعة الثالثة عام ١٩٨٦ .
١- ٢١٨,٨ خ ل ي م ٢- العنوان ٣- أبو خليل
مكتبة الأسد
ع- ١٩٩٨/٣/٣٧٥

إسلاميّات



الدكتور شوقي أبو خليل

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي: ٠١١ , ٠٣٧٧

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-240-6

الرقم الموضوعي: ٢١٠

الموضوع: دراسات إسلامية

العنوان: من ضيّع القرآن؟

التأليف: د. شوقي أبو خليل

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ٣٢٠ ص

قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة



دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

E-mail: info @fikr.com

٢٠٠٠ التجديد شرعة الحياة

إعادة

١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م

ط٣ : ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » .

« الفرقان : ٣٠ »

قال صلى الله عليه وسلم :

« يأتي على الناس زمان ، القرآن في وادٍ ، وهم في وادٍ غيره » .

« رواه الحكيم عن حيان بن حجر »

تصـــدير

□ ﴿ إن أريـــدُ إلاَّ الإصـلاحَ مــا استطعتُ ، وما تـوفيقي إلاَّ بـاللهِ ، عَلَيْـهِ تـوكَّلتُ وإليـه أنيبُ ﴾ .

(هود / ٨٨)

بسم الله ، والصلاة والسَّلام على رسول الله ، وبعد ...

□ سؤالان يطرحـان نفسيها أمـام المؤرخين الـذين يبحثـون في تـاريـخ « صدر الإسلام » ، وفي حضارة القرآن الكريم :

أ ـ لماذا دانت جزيرة العرب لمحمد بن عبد الله ﷺ ، ولم تكن قد خضعت أبداً لرجل واحد من قبل ؟! .

ب ـ لماذا قامت بعد زوال الوثنيَّة في الشرق ، على يَدِ الإسلام ، الذي أصبح هو نفسه الدولة ، تلك الحضارة الإسلامية ، التي تزعَّمت العالم عدة قرون ؟!

تزعَّمتْهُ قوةً ونظـامـاً ، وبسطـاً للمُلـك ، وجميلِ الطبـاع والأخلاق ، وفي ارتفـاع مستوى الحيـاة ، وفي التشريـع الإنسـاني الرحيم ، والتسـامـح الـديني ، والآداب ، والبحث العلمي ، والعلوم ، والطب والفلسفة[1] .....

---

(١) عن قصة الحضارة « عصر الايمان » ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، صفحة : ٣٨٢ .

حقيقة ، كالشمس في رابعة النهار ، ليس دونها سحاب ، ثورة وحياة دبّت في جزيرة العرب ، نتج عنها فتوحات رائعة ، حملت لواء الحضارة في القرون الوسطى ، فدحرت بربريات ، رضخ المنصف للحضارة المتميِّزة التي حلَّت أينما حَلَّ لواء القرآن الكريم : « وإنه لمنظر رائع أن نرى انتصارات سلطان حضارة العرب على همجيَّة فاتحي الشمال ، أولئك الذين انقضُّوا على آسية الغربية والجنوبية[1] » .

هذه الفتوحات ، وهذه الحضارة متميِّزة .. لقد استطاعت أمم كثيرة ، غير العرب ، أن تهدم دولاً عظيمة ، ولكنها لم تقدر أن تبدع حضارة . وكل ما قَدَرَتْ عليه ، هو أنها استفادت بعد زمن طويل من حضارة الأُمم التي قهرتها . ومثال ذلك : البرابرة الذين قوَّضوا دعائم الإمبراطورية الرومانية ، قاموا بجهود عظيمة دامت قروناً عديدة ، قبل أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضارة اللاتينيَّة ، ويخرجوا من ظلمات القرون الوسطى .

وأمثال هؤلاء ... المغول ، الذين غيَّروا جغرافية آسية ، لكن حضارة الإسلام تمثَّلتهم ، فآبوا مسلمين .

« ولا شيء يورث العجب أكثر من انتصار حضارة العرب على همجيَّة جميع الغزاة ، ومن تَخَرُّجِ هؤلاء الغزاة من فورهم على مدرسة العرب المغلوبين ، فقد دام عمل العرب في حقل الحضارة إلى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمن طويل[2] » .

---

(١) تاريخ العرب العام للمستشرق : ل . أ . سيديو ، عرَّبة : عادل زعيتر ، الطبعة الثانية : ١٩٦٩ ، ويعني بفاتحي الشمال : قبائل الهون والجرمان ، التي جاءت أوروبة من أواسط آسية .

(٢) « حضارة العرب » لغوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، طبع البابي الحلبي ، صفحة ٤٥٨ .

المنصفون من علماء الغرب ، لم ينكروا هذه النهضة ، ولم يستطيعوا نكران أثرِ حضارة القرآن المجيد على علماء وحضارة العصر الحالي .

هذه النهضة ، وهذه الحضارة الخالدة ، كيف بدأت ؟

وأين هي اليوم ؟!

□ وقبل أن نجيب ... نقول :

أنكر غير المنصف من الأوروبيين المستشرقين وغيرهم ، حضـــارة القرآن ، تعصَّبوا للحضـارة اليونـانيـة لا حُبّاً لهـا ، فهي وريثـة الحضـارات الشرقيـة ، أحبوها كرهاً وبغضاً وتعصُّباً ضد الإسلام ، علماً أن حضارة القرآن مبتكرة ، لم تـأخـذ عن الحضـارتين اليـونـانيـة والهـنـديـة ، إلا بقـدر مـا أخـذ طــاليس أو فيثاغورس من الحضارتين البابلية والمصرية .

هذا ... ومن قال إن علمـاء الحضـارة اليونـانيـة كلهم من أصل يونـاني ؟! لقد كان أغلبهم من أصل شرقي .

والآن ...

□ لمــاذا دانت جـــزيرة العرب لمحمـــد بن عبـــد الله ﷺ ، ولم تكن قـــد خضعت أبداً لرجل واحد من قبل ؟!

الجواب يبدأ من تقييم « ول ديورانت » : (وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في النـــاس ، قلنـــا إن محمـــداً « ﷺ » ، كان أعظم عظماء التـاريخ ، فقـد أخـذ على نفسـه أن **يرفـع المسـتوى الروحي والأخـلاقي** لشعب القت به في دياجير الهمجيَّة حرارة الجو ، وجـدبُ الصحراء ، وقـد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أيُّ مصلح آخر في التاريخ كله[1]) .

---

(١) « قصة الحضارة » ـ عصر الإيمان ـ لول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، صفحة : ٤٧ .

إن هذا المستوى الروحي والأخلاقي الايماني الرفيع ، المطلوب لتحقيق قاعدةٍ سليمةٍ ، لحضارة مثالية جديدة ، تحقَّق بعاملين :

١ ـ تربية ، وتزكية ، وتعليم ، وشخصيَّة محمد بن عبد الله ، الذي كان خُلُقَه القرآن .

٢ ـ تكامل نظرةِ « القرآن الكريم » الشاملة والمحدِّدة : للكون والحياة والإنسان .

بالقرآن : الذي حَلَّ في القلوب ، وانعكس في الأعمال والأخلاق ، أصبح أُولئك الذين كانوا بالأمس مشتتين ، لا تجمعهم رابطة سياسية ولا دينيَّة ، أمةً مُوَحَّدةً قويَّة ، تنشر الحضارة في أرجاء العالم المضطرب . لقد انقلب حالُ العرب بعد نزول كتاب الله[1] .

القرآن : الذي حوى علوماً الهيَّة ، وأُصولَ العقائد الدينيَّة ، ومنهجاً خلقيا ، وأتى بقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي ... ، وبرهن عملياً أنه نسيج وَحْدهُ ، فسبق كل الأوضاع البشرية التي حاول المصلحون أن يرقُّوا بها البشرية ، فكان من نتاجه : حضارة قامت في العصور الوسطى ، انتقلت إلى أوروبة عن طريق الأندلس وجامعاتها ، وصقلية وجنوب إيطاليا عندما كان المسلمون هناك ، وعن طريق جنوبي فرنسا ، وأثناء الحروب الصليبيَّة ... فكانت المدنيَّة الحديثة . لا نقول ذلك ادعاء ، فقد أُلِّفَت في ذلك كتبٌ عديدةٌ[2] ، اعترفت كلها بفضل القرآن الكريم على العالم .

---

(١) ولسنا هنا في صدد اثبات أن القرآن كتاب الله المنزل ، وليس من تأليف محمد عليه الصلاة والسلام ، فهذا أثبتناه عقلا وفكرا في الجلسة الأولى من كتاب « الاسلام في قفص الاتهام » .

(٢) من هذه الكتب:

☆ أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، للمرحوم عباس محمود العقاد . =

قرآن ... في القلب ، مُنعَكسٌ في الأعمال ، مع تزكيةٍ وحكمةٍ في الروح .... بهذه الصفات التي حملها الرعيل الأول ، تأسست أول دولة عربيَّة إسلامية .

القرآن الكريم ... الكتاب المعجز ، الذي جاء إلى العرب في ميدان سبقهم ، فخلَّفهم وراءه ، لقد بزهم في مجال تفاخرهم في أسواقهم الأدبيَّة ، تحدَّاهم جميعاً ، تحدَّى كُلَّ من نطق بالضاد ، سابقاً ولاحقاً ، فحارت به عقولهم :

- ﴿ وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرون[1] ﴾ .

ومع الحَيْرَةِ ... جاء التحدي ، الذي أذعنَ له العربُ ، وسلَّموا تسليماً :

- ﴿ وإن كنتم في ريبٍ مما نزَّلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعِدَّت للكافرين[2] ﴾ .

□ أمَّا التزكية ... التي كانت وظيفة المربي الأول ﷺ ، فقد كانت أنواراً الهية تنصب من قلبه الشريف ، إلى قلوب الصحابة الكرام ، فكانت وقوداً وطاقة للعمل والدعوة بحكمة : ﴿ هو الذي بعث في الأُميين رسولاً منهم ، يتلو

☆ شمس العرب تسطع على الغرب ، لزغريد هونكه .

☆ الحضارة العربية ، لجاك . س . ريسلر .

☆ حضارة العرب ، للدكتور غوستاف لوبون ... وغيرها كثير .

(١) سورة الحاقة ، الآية الكريمة : ٤١ / ٤٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ٢٤ .

عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمةَ ، وإن كانوا من قَبْلُ لفي ضلال مبين[1] ﴾ .

لقد استطاع محمد بن عبد الله بهذه التزكية ، أن يوجد الرجال الذين هم الدعائم الأولى للدولة العربية الإسلامية في يثرب ، التي ستحمل حضارة هي حضارة القرآن .

وبعد هجرته ﷺ ، وطَّدَ السلمَ بين أهل المدينة ومن حولها ، بالحلف الذي أقامه فيها ، ويمكن أن نستخلص منه أنه[2] :

استطاع أن يوحِّد بين جميع المسلمين على اختلافهم من حيث القبائل والبطون ، وأن يجعل منهم أمة واحدة ، ألَّفَ الإسلام بين قلوب أفرادها المتباينة ، كما أوجد التعاون والتضامن بين أفراد تلك الجماعة ، على أساس أن الأخوَّة في الدين ، مقدَّمَةٌ على غيرها من الصِّلات ، حتى صلة القرابة ، فَسَمَتْ بذلك فوق القبليَّة والعشائريَّة ورابطة الدم ... إلى رابطة العقيدة ، كما أوضح أن للجماعة ـ من حيث كَوْنُها جماعةً ـ شخصيَّة دينيَّة وسياسيَّةً ، وحقوقاً على الأفراد ، أظهرها السهر على الأمن ، والضرب على يد المفسد .

وطَّد ﷺ دعائم السلطة المركزيَّة ، فاستتب الأمن ، فجاء يوم سارت فيه الظعينة ، من العراق إلى الحجاز ، لا تخشى في طريقها إلا اللهَ والذئب على غنمها .

ونظَّم عليه السَّلام ، الجماعة الناشئة ، التي أحاطته بقلوبها وأرواحها ، وهو في ذلك لا يألو جهداً ، ولا يدَّخر وسعاً في بثِّ الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، ولَمِّ شمل العرب .

---

(١) سورة الجمعة ، الآية الكريمة : ٢ .

(٢) ابن هشام ، الجزء : ٢ ، صفحة : ١١٩ / ١٢٣ .

« قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقريته أساس نظام ديني وسياسي ، ما زال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة ، وصفات متباينة[1] » .

لقد كان القرآن في ذلك كله ساعِده ، ومدد الله إليه الذي لا يتأخر عنه عند الحاجة ، ناقش فيه المشركين في مكة في أُمهات مسائل الدين وقضاياه الكليَّة ، وسفَّه آلهتهم ، وعاب نظامهم الاجتماعي .

وكان القرآن رائده ﷺ في المدينة المنورة ، حين كان يناقش اليهود ، الذين استعانت بهم قريش في الغض من دعوته ، والذين استكثروا على العرب الأميين ، أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، وهم شعب الله المختار وأبناؤه وأحباؤه ! وكان القرآن مرجعه حين كان يحاسب هؤلاء اليهود ، وغيرهم من أهل الكتاب ، على ما غيَّروا وبدلوا في دينهم وكتبهم .

العرب الذين كانوا يرجعون إلى رؤسائهم فيما ينشأ بينهم من خلاف ، صار لهم قانون سماوي ، نظَّم المعاملات ، كما شرَّع العبادات :

- نظَّم المعاملات بين الأفراد والأفراد ، والفرد والمجتمع ، والمجتمع والدولة ...

- ونظَّم العبادات ، لتكون صلة بين الإنسان وربه[2] ...



(١) القول لـ « فنلي » :

Finaly : Greece under the Romans , Chapter V . P . 2.

(٢) تاريخ الاسلام « بتصرف » ، ج ١ ، ص : ١٠٢ ، ط ٦ ، (١٩٦١) . مكتبة النهضة المصرية .

□ والسؤال الثاني ، الذي طرحناه في البداية :

- لماذا قامت بعد زوال الوثنية في الشرق على يد الإسلام ، الذي أصبح هو نفسه الدولة ، تلك الحضارة الإسلامية التي تزعَّمت العالم عدة قرون ؟

- لماذا ... « بلاد العرب لم تدخل قبل الإسلام في حسبان أحد من رجال السياسة والحكم في أوروبة ، إذ بقيت بلاداً يكتنفها الغموض ، لا يُعرَف عنها سوى أن أهلها يتعاطون قليلاً من التجارة مع الشام ومصر ، وأن أبناءها يمارسون الجندية مرتزقين في الجيوش الفارسية والبيزنطية[1] » .

يمكننا أن نبدأ في إجابتنا منطلقين من وحدة الأمة العربية ، التي ارتفعت إلى المستوى الروحي والأخلاقي الإيماني الرفيع .

لقد ثبَّت ابن عبد الله ، القرآن في نفوس الصحابة ، وما انتقل إلى جوار ربه ، إلا وكانت راية القرآن ، ترفرف فوق سماء جزيرة العرب قاطبة ، موَحَّدة لأول مرة في تاريخها ، وكيف يبقى الصحابة في جزيرتهم ، وهم الذين آمنوا بآيات الكتاب الكريم :

- ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولَتَعلَمُنَّ نبأه بعد حين[2] ﴾ .

- ﴿ وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكِنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون[3] ﴾ .

- ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[4] ﴾ .

---

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، فِشَر ، ص : ٥٩ ، طبعة دار المعارف .

(٢) سورة ص ، الآية الكريمة : ٨٧ / ٨٨ .

(٣) سورة سبأ ، الآية الكريمة : ٢٨ .

(٤) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٣٣ .

اقتنع المسلم أن هذه الدعوة العالمية : التوحيد ، والأخلاق ، والمساواة ، والعلم ... لا بد وأن تنتشر وتتحقق فيها إرادة الله ... وصار هذا المسلم يعتقد في نفسه أنه مدار الكون ومحوره ، فهب لتبليغ الرسالة ، ونشر الحضارة .

خرج العرب بعد إسلامهم يحملون « رسالة حضارية » ، خرجوا بقرآن هداية ، ومنهج قرآني محدد واضح المعالم . عرفوا المُنْطَلق ، وفهموا الهدف ، وما السيف الذي كان في اليمين ، إلا لإزالة العوائق التي حالت دون التبليغ وتأمين طريق الدعوة ، والسبيل للوصول إلى الشعوب المظلومة المضطهدة .

لم يخرجوا بسيف باتر ، وفكر فاتر ، فإن أكثر البلاد عدد مسلمين ، هي أقل البلاد غزوات إسلامية ، وإن الملايين المسلمة في أفريقية ، وجنوب شرقي آسية ، لم يصل إليهم من المسلمين أحد يحمل سيفاً راعفاً ، بل وصلتهم حضارة القرآن بالدعاة ، ودعاة فحسب[1] .

هذه الأمة التي وصفها المستشرقون أنها لم تكن في حسبان أحد ، وأبناؤها مرتزقة في جيش فارس ، وجيش بيزنطة :

جاء قَدْرُها .. من صاحب القَدْرِ .

جاء شأنها .. من صاحب الشأن .

وجاء فضلُها .. من صاحب الفضل الذي ربى النفوس وزكاها ، فاستحالت خَلْقاً آخر .

إن الأرض التي أنبتت الأشواك وطالت فيها ، هي الأرض الخصبة ، التي نمت الفضائل والأخلاق فيها ، فهبّت للفتح لهدف سام نبيل ، حتى صار

(١) « انتشار الاسلام » : بالسيف أم بالدعوة ؟ شرحناه في الجلسة التاسعة من : « الاسلام في قفص الاتهام » .

ابن البـلاد التي فُتحت ، يحمـد الله لكـونـه صـار مسلمـاً ، على دين وحضـارة الفاتحين .

وهبَّ أبناء البلاد التي فتحت لخدمة القرآن وعلومـه ، وحضـارة الإسلام ، فـأضـاءت العصور الوسطى بنور سطع في الشرق ، لـذلـك فرح المنصفون بـأن تُرى راية القرآن ترتفع فوق همجية العصور الأوروبية !

خرج الفـارس المسلم من جزيرتـه يحمل عقيـدة ، ولا فراغ لـديـه لتقبـل عقيدة جـديـدة تحمل في ثنـايـاهـا النقص ، تلتهمـه وتحيـده عن خـط سيره ، لا فراغ : لا في القلب ، ولا في الفكر . فـالفكر نضـج وازدحمت فيـه : الحكمـة والهمة والحجة :

حكمة في الدعوة ، وهمةٌ في تبليغها ، وحجةٌ عند عرضها .



وأضيف ...

إن حضارة القرآن منهج للحيـاة متكامل ، لم يهمل حيـاة النـاس وواقعهم في أدق تفصيـلات حيـاتهم ، فلقـد قـاد خطى حيـاتهم في كل اتجـاه ، واجـه تصورات وأفكار ومشاعر ونشاطات وارتباطات الناس ديناً ودنيا .

فليس من طبيعة الإسلام أن ينفصل عن الدنيا ، وليس من طبيعة المنهج الإلهي أن ينحصر في المشاعر الوجدانية ، والأخلاقيـات التهـذيبيـة ، والشعـائر التعبُّدِيَّة ، أو في ركن ضيق من أركان الحياة البشرية .

ليس من طبيعـة الإسـلام ، أن يرسم طريقـاً لـلآخرة ، لا يمر بـالحيـاة

الدنيا ، طريقاً ينتظر الناس في نهايته فردوس الآخرة ، عن غير طريق العمل في الأرض وعمارتها ، والخلافة فيها عن الله ، وفق منهجه الذي ارتضاه[1] :

ـ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أخرَجَ لعبادِهِ والطيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ ، قُل هي للذينَ آمنوا في الحياةِ الدُّنيا خَالِصَةً يومَ القيامة ، كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقومٍ يعلمون[2] ﴾ .

☆ ☆ ☆

القرآن كتاب سعادة للفرد والمجتمع معاً . أثبت التطبيق العملي ، نجاحه حين فهمه المسلمون الأولون من فم النبي ﷺ الفهم الصحيح ، فاستطاعوا بتمثلهم لمبادئه ومعانيه وأهدافه ، أن يهزوا العالم ، ويقهروا أعظم امبراطوريتين في آن واحد ، وفي زمن قصير جداً ، ثم أسسوا حضارة متميزة ، اعترف لها كل منصف ، أنها كانت سبب الحضارة الحديثة .

ـ ما الذي حدث حتى ضاعت هذه المبادئ ، وضاع عنها المسلمون ؟ وضاع تأثيرها في النفوس ؟

ـ هل تغيَّر القرآن وما احتوى من مبادئ وأهداف ؟ اللهم لا ، وألف لا .

ـ هل ساء الفهم ، وتغيَّر المفسرون والفاهمون لهذا القرآن ومعانيه ؟ اللهم نعم ، وألف نعم .

---

(١) « المستقبل لهذا الدين » .

(٢) سورة الأعراف ، الآية الكريمة : ٣١ .

إن القرآن دعوة لإحيـاء النفوس الإنسـانيـة وتزكيتهـا وحيـاتهـا على أمثل طريقة تناسبها وتسعدها ، قال عز وجل :

- ﴿ يـا أيُّهـا الـذين آمنـوا استجِيبـوا للهِ ولِلرَّسُـولِ إذا دَعَـاكُمْ لمـا يُحيِيكُم[1] ﴾ .

إنه دعوة لعبادة الله الواحـد الأحـد ، وسموٌّ في الفكر من أن يعبـد صنماً أو وثناً أو يشرك بالله أحداً .

إنه الدعوة إلى التربية الأخلاقية المثلى ، ليسود حسن المعاملة بين النـاس ، فيتعاملون بثقة وأمانة ووفاء ..

- إنه دعوة إلى العلم وتقديس للعلماء ، لأن العلم منـار الحقيقـة في ظلمـات الجهل .

- إنه دعوة إلى الوحدة ، ونبذ الشقاق والتنافر كيلا تضعف الأمـة ويقوى عليها عدوها .

- إنــه دعـوة إلى التسليـح بكل قـوة ممكنــة لإرهــاب العــدو فـلا يفكر بتطاول .

- إنـه دعوة إلى محـاربـة الفقر ، ودعوة إلى السعي في طلب الرزق والعمل من أجل اللقمة الشريفة الطاهرة ... وغير ذلك من المبـادئ الرفيعـة القويـة ، صيغت كلها بألفـاظ وأسلوب أدبي رفيع ، عجز بلغـاء العرب مجتمعين أن يـأتوا بمثله .

فهل تغير القرآن ؟ لا .. اللهم لا .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية الكريمة : ٢٤ .

لم يتغيَّر في ألفاظه ، ولا ضاعت آياته المسطورة ، وهو في بيت كل مسلم ، ونسمعه من إذاعات العالم . ولكن الذي حدث ، أن هذا القرآن في حكم الضائع رغم وجوده لأسباب منها :

١ ـ الاختلاف في تفسير وتأويل القرآن .

٢ ـ إهمال العلماء لدعوته في توحيد الأمة فأضحت مذاهب وشيعا .

٣ ـ الاختلاف بين العلماء في فهم أهدافه ومراميه ، التي هي دنيوية قبل أن تكون أخروية ! فهو كتاب ما نُزّل ليقرأ على القبور ، أو في محافل الموتى ـ الذين ضيَّعوا معانيه وتطبيقه في حياتهم ـ بل هو منهج عمل لإسعاد الأحياء !

٤ ـ إن المسلمين قد هجروا تدبره ودراسته ، وفهم معانيه ، ليكون سلوكاً في يومهم :

﴿ كتاب أنزلناه إليك مُبارك لِيدَّبَّروا آياتِهِ ، وليتذكرَ أُولوا الألباب[1] ﴾ .

□ إذن ... لم يفهم المسلمون القرآن الفهم الصحيح ، وهم اليوم في فراغ عقلي وروحي ، دفعهم إلى أن يدرسوا العقائد والمذاهب المطروحة في العالم ، والمبرمجة من بشر ، وأين « لبرنامَجٍ » يضعه بشر أن يصل إلى حكمة وصواب البرنامج الإلهي الذي أنزله الله رحمة للعالمين ، وهو أعلم بمن خلق !

وفي هذا الكتاب ، سنفصل ما أوجزناه هنا .

سنرى من أضاع القرآن عن هدفه ، وهجره تطبيقاً ، وفهماً صحيحاً ، وديناً حياتياً ، ومعاملات وركيزة حياة ...

---

(١) سورة ص ، الآية الكريمة : ٢٩ .

وليست دعوتي إلى القرآن اليوم ، دعوة إلى الرجوع وراء أربعة عشر قرناً ! لا ...

إنها دعوة تجديد ، دعوة إلى كتاب الله الذي فيه من سعة الأفق ، ومرونة التطبيق ، وسمو الأسس ، ودقة الأهداف ، ما يكفل التقدم قُدُماً ، إذا نحن تفهمناه ، وسرنا على نهجه الصحيح .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ...

ضاعَ القرآنُ ...

القرآن ضائعٌ بين عالمٍ ما عَرَفَ حق المسلمين عليه ،

وبين مسلم ما عرف حق العالم عليه .

ضاعَ القرآن ...

بين مُتَبَنٍّ لَهُ بفهمٍ خاطئ مُحرف ،

وبين آخر زهد به لما عُرض عليه بهذا الفهم الخاطئ .

ضاعَ القرآنُ ...

بين غافلٍ عنه ، وبين ذاكر له لا يملك حكمة عند عرضه .

ضاعَ القرآنُ ...

بين من لا يعرفه ، وبين عارف له لا يملك حيوية الدعوة إليه .

ضاعَ القرآنُ ...

بإمامٍ يعرف كيف يصلي بالمسلمين أربع ركعات ، في محراب مسجد ، ويغفل توجيههم في أمور دنياهم ، وصحة طريق آخرتهم .

ضاعَ القرآنُ ...

بمسلم يصلي صلاة غفلة ، وبهذا المسلم نفسه الـذي ظن أنـه جمع علم الثقلين إذا أدَّى صلاته هذه فقـط ، فـإن نُصح لا ينتصح ، بل هو نـاصح للعـالم ، هو ناقده ، هو المقيِّم له ، المتتبع لعوراته - إن وجدت - وهو ناشرها ومروجها ...

ضاعَ القرآنُ ...

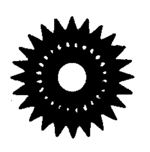
بتنازع العلماء وخلافاتهم ، وتمزق كلمة المسلمين .

وسنبدأ بتوضيح ذلك بهدوء ...

فإن الذي يعرف من أين ، يمكنه أن يعرف إلى أين ؟!

والله من وراء القصد ...

شوقي أبو خليل



مَدْخــل

المــيزان

﴿ لَقَدْ أرسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ ، وأنزَلنا معهم الكِتابَ والميزانَ ، ليقوم النَّاسُ بالقِسْطِ ﴾

(الحديد : ٢٤)

□ يتساءل المخلصون من مفكري الأمة العربية والإسلامية ، عن سبب تدهور المسلمين ، وتأخرهم منذ قرون ، وفي عالم القرن العشرين أيضاً ، عالم العلم الحديث ، والتكنولوجيا ، والتصنيع ، عالم التقدم في الاكتشافات الكونية ، وغزو الفضاء !

ويدعو إلى التفكير أكثر ، أمر نشوء « اسرائيل » في أرضنا العربية الإسلامية المحتلة في قلب العروبة ومسرى الإسلام ، مثل جرح ينزف ، سببه : أن بضعة ملايين يهودي اسرائيلي ، استطاعوا أن يقفوا ولمدى عشرات السنين في وجه مئات الملايين من العرب والمسلمين ؟!

وهل قضية فلسطين ـ قضية العصر ـ قضية عربية ، لا علاقة لها بالإسلام ؟ وهل هي قضية الفلسطينيين وحدهم دون العرب والمسلمين ؟ ومن الذي خطط لذلك ؟ من الذي خطط للفرقة والتبدد ، وإلى متى يدوم ذلك ؟

وكيف يمكن إيقاظ الملايين من العرب والمسلمين ، وتوحيدهم مثلما كانوا في الماضي ، في عهود الإسلام الذهبية ؟ مثل عهد عمر بن الخطاب ، وعمر ابن عبد العزيز ، ونور الدين الشهيد !..

إن كلمات مضيئة مشرقة من سيدنا عمر بن الخطاب تكشف الداء والدواء ، كلمات بَرْهَنَ الزمان على صحتها ، قال رضي الله عنه : « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ومهما نبتغي العزة بغيره يذلنا الله » .

- ولا بد للقارئ أن يتساءل : وهل انحرفنا عن الإسلام ، حتى أذلنا الله ؟

- الإجابة صريحة واضحة : نعم ... ومنذ قرون .

لقد انحرفنا عن الإسلام ، والدليل على انحرافنا أن نعرض إسلامنا على :

الميزان !

ولكن : ما الميزان ؟

وجوابنا : دعوة القرآن العظيم ، القرآن وما يحيل إليه من السنة والإجماع ... هو الميزان :

- ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى الله والرسول ﴾ (النساء / ٥٩) .

الميزان : الذي يدعو إلى أسباب الرقي والتقدم ، والذي انحرفنا عنه نتيجة لمخطط مركّز من أعداء الإسلام ، وفي غفلة من المسلمين ، وعن أخطاء من دعاة الإسلام في أحيان أخرى .

والميزان : هو الذي سيبيّن غرض المغرضين ، وخطأ المخلصين ، والحمد لله على نعمة القرآن ، فما دام كتاب الله عز وجل ، وما يحيل إليه من السنة والإجماع قائماً بين أيدينا ، محفوظاً من التحريف والتأويل الخاطئ ، فنحن في خير على الرغم من كل شيء ، ونعرف أين نحن من الخطأ والصواب ، وهل نحن على الصراط المستقيم الذي نسأل الله تعالى كل يوم في صلواتنا ، أن يهدينا إليه ، فهل نحن مخلصون في السؤال ؟!

المُخْلِصُ وَحْدَهُ ... هو الذي سيسره أن نبحث هذا البحث ، وأن ندعو إليه ، وسيشاركنا في الدعوة إلى « الميزان » ، وسنجتمع كلنا على هدى القرآن ، لنعيد إلى الإسلام نضارته الحقيقية ، ولنعود إلى العزة والوحدة ، إلى الفهم الصحيح السليم للقرآن ، نأخذ بجميع تعاليمه من كل جوانبها فتتخلص الأمة عندها من كل الأحابيل والأضاليل التي قسمتنا ، ومهدت طريق دخول الاستعمار لبلادنا ، ولأننا قد توحدنا ، وذبنا في بوتقة المحبة التي ألّفت بين قلوبنا ، فأصبحنا على مذهب واحد ، في فهمنا القرآن بروحه التي تدعو إلى أن نكون أمة واحدة ، بل خير أمة أخرجت للناس .

□ سيبحث المخلصون عن حل لأزمة العرب والمسلمين ، طريق آخر غير طريق الإسلام ، وإلى هؤلاء نقول :

بالإسلام وحده الحل لمشكلاتنا ، والسبب هو أن النفوس البشرية ، بحاجة إلى ترويض وصقل وتربية ، وتهذيب ، وترسيخ لمعاني الفداء والإيثار والجهاد والجهد المستمر لتحقيق كل الكمالات الخلقية والتربوية التي يدعو إليها العقل المستنير ، والتي لا ترسخ في النفوس البشرية إلا بجهود المربين المضنية ، ولن يحقق أي دستور وضعي هذه المعاني .

□ المخلصون لن يضرهم هذا البحث .

وغير المخلص لا يهمنا رأيه في هذا الكتاب الذي ابتغينا منه رضا الله أولاً ، وكيف يمكن أن نعود إلى وحدتنا من جديد ، كيف يمكن أن نصل إلى المكانة التي يجب ألا يسبقنا أحد إليها تحت الشمس ثانياً :

﴿ ويا قومِ إني أخاف عليكُم يومَ التنادِ ، يومَ تُولُّونَ مُدْبرين ، مالكم من اللهِ من عاصِم ، ومن يُضلِلِ اللهُ فما له من هادٍ ﴾ (غافر / ٣٢ ـ ٣٣) .

☆ ☆ ☆



الشرع هو الميزان

القرآن ، السنة ، الإجماع

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ على شَرِيعَةٍ مِنَ الأمرِ فاتَّبِعْها ، ولا تَتَّبِعْ أهْوَاءَ الذينَ لا يَعْلَمُون ﴾ .

(الجاثية / ١٨)

« ١ »

العقل البشري عاجز عن إدراك الحقيقة دون تحكم الهوى .

فإن خلصت إليه الحقيقة في قالب الحكمة الرشيدة ، مجردة من الهوى ، محفوظة من التحريف ، فتلك نعمة لا يقدرها إلا عقل منصف رشيد .

والبشر دوماً في حاجة إلى من يصوغ لهم الدساتير والتخطيط الرئيسي لحياتهم ، وذلك لشدة تغلب الأهواء على المشرعين والمفكرين ، وتأثرهم بما يحيط بهم من أحداث ، فالبشرية قد تمضي تتخبط في تجارب متنوعة هنا وهناك ، وتدور مع هذه التجارب في حلقة مفرغة ضمن « التصور البشري والتجربة البشرية والخبرة البشرية المشوبة بالجهل والنقص والضعف والهوى ، في حين يحتاج الخلاص إلى قاعدة مختلفة كل الاختلاف : قاعدة المنهج الرباني الصادر عن علم بدل الجهل ، وكمال بدل النقص ، وقدرة بدل الضعف ، وحكمة بدل الهوى[1] ... » .

---

(١) المستقبل لهذا الدين ، ص : ٨ .

فالخلاص من هذا التخبط ، نعمة وجود القرآن ، بل هو النعم ، وهداية من الله من أن يضلوا :

- ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يَهْدي للتي هي أقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ المؤمنين[1]...﴾ .

وإذا كان الفلاسفة ، قد لجأوا إلى نظرية الحقوق الطبيعية ،لإيضاح : أن هناك تصوراً عقلياً لحقوق البشر ، دون أن يحددوا هذه الحقوق أو يبينوها بوضوح شامل . فميزة القرآن ، وفضل الله على عباده ، أن القرآن واضح نير في إيضاح هذه الحقوق والعلائق بين المخلوقين والخالق ، وبين البشر بعضهم مع بعض .

ثم كان من نعمة الله سبحانه على العالمين ، أن القرآن الكريم محفوظ من التحريف في الفاظه :

- ﴿ إنَّا نَحْنُ نَزَّلنا الذِّكرَ ، وإنَّا لَهُ لَحافِظُون[2] ﴾

ولو شرح القرآن بعيداً عن التعصُّب المذموم للرأي ، وأظهر ما فيه من جمال الفكر والأخلاق والمعاملات ، لكان معشوق كل عقل باحث عن الحقيقة والخلاص باخلاص وتجرُّد ،لما فيه من إجابات واضحة لكل معضلة ، ومشكلة فكرية أو بشرية تتطلب حلاً .

فالقرآن الكريم : هو الميزان الذي أنزله الله بالحق :

- ﴿ ثُمَّ جعلناكَ على شَرِيعَةٍ مِنَ الأمرِ فاتَّبِعْها ، ولا تَتَّبِعْ أهوَاءَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ[3] ﴾ .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية الكريمة : ٩ .
(٢) سورة الحجر ، الآية الكريمة : ٩ .
(٣) سورة الجاثية ، الآية الكريمة : ١٨ .

بـه نقيس ونزن عمل العـاملين ، واخـلاص المخلصين ، ونميز بـه الـدعـوات المغرضـة من الـدعوات المخلصـة ، ونرى بـه الفهم الصحيح لـلإسـلام ، من الفهم الخاطئ ، إنه ميزاننـا في المـاضي للمـاضي ، وفي الحـاضر للحـاضر ، وفي المستقبل للمستقبل .

☆ ☆ ☆

« ٢ »

﴿ يـاأيُّهـا الـذين آمنـوا استجيبـوا لله وللرسولِ إذا دَعَاكُم لما يُحييكُم[١] ﴾ .

□ القرآن هو الميزان ، للأمس واليوم والغد ، وقد أحالنا إلى عناصر أخرى نستكمل بها عناصر الميزان ، أحالنا إلى سنة الرسول ﷺ ، وأحالنا إلى الإجماع . وهذه بدهية لكل من درس الشرع ، قال تعالى :

﴿ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ ، وما نَهَاكُم عَنْهُ فا نتَهُوا[٢] ﴾ .

وقال عز وجل :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْـدِ مـا تبيَّنَ لَـهُ الهُـدَى ، وَيَتَّبع غير سبيل المؤمنين نُولهِ ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً[٣] ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية الكريمة : ٢٤ .

(٢) سورة الحشر ، الآية الكريمة : ٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية الكريمة : ١١٥ .

وقال رسول الله : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسول الله[1] » . وفي كتب الحديث والفقه مجال دراسة الأحاديث الصحيحة وشروط الإجماع الذي هو« اتفاق المجتهدين من هذه الأمة في عصر على أمر من الأمور[2] » ، جاء في السنة الشريفة : « من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة ، مات ميتة جاهلية » وورد : « لا تجتمع أمتي على خطأ » . وقد اعتبر للإجماع نفس القوة المعتبرة للقرآن وللسنة من حيث كونه حجة موجبة للحكم[3] » .

الإجماع جعل المستشرق « كولدسهير » ، يعجب به كل العجب أصلاً من أصول الشريعة الإسلامية ، ويقول :« سوف يرى بلا شك أن هذا الأصل - الإجماع - قد احتوى على ينبوع القوة التي تجعل الإسلام يتحرك ويتطور بكل حرية ، لأن هذا الأصل هو الذي يقدم العلاج الناجح تجاه غطرسة السلطة الشخصية ، وتعسف الكلمة التي لا حياة فيها[4]» .

ويهمنا أن نذكر ، أن بعض المضللين من أشباه المتعلمين المدعين دراسة الإسلام ، يتعرضون هنا لنقطة يدفعون بها كل حديث لرسول الله لا يروق لهم ، بقولهم : هذا حديث غير صحيح ! .

---

(١) رواه الإمام مالك عن أبي هريرة : (راجع التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ،ج : ١ ، ص : ٤٠) .

(٢) التعريف في كتاب : المدخل إلى علم أصول الفقه « محمد معروف الدواليبي » الطبعة الثانية ص : ٣٣ . ، وهو عن : كتاب كشف الأسرار لعبد العزيز النجاري ، شرح أصول البزدوي ، ج٣ ، صفحة : ٢٢٧ ، طبع اسطنبول : ١٣٠٨هـ .

(٣) انظر البزودي وشرحه ، أو« علم أصول الفقه » المنوّه عنه ، صفحة ٣٤ .

(٤) انظر.Goldziher, le dogme et la loi de l,islam, paris 1920, P. 46 والقول في ص ٣٤/٣٥ من « علم أصول الفقه » حيث وضح المؤلف أن للإجماع طرقاً أربعة :(الرأي الإجماعي ، التعامل الجماعي ، رأي بعض المفتين مصحوباً بسكوت الباقين الذين اطلعوا على هذا الرأي ، والتعامل لدى بعض المفتين دون أن يكون هذا التعامل قد اعترضَ عليه من قبل الباقين الذين اطلعوا عليه ايضاً)

ليس عنه دراسة علمية صحيحة ، بل لأنه لم يوافق مزاجهم ، وبالطبع هؤلاء مسؤولون أمام الله عن مخالفتهم للميزان الشرعي ، وخصوصاً حين يتضح وبالطريق العلمي الصحيح ، أن الحديث النبوي موضوع الخلاف هو حديث صحيح .

وإلى أمثال هؤلاء نقول : **إن علم مصطلح التاريخ الذي ظهر في الغرب منذ زمن ليس ببعيد ، هو علم ثوبه الخارجي غربي ، ولبابه عربي إسلامي .**

« مصطلح التاريخ » أساسه القواعد التي وضعها الأئمة من قرون عديدة ، للتوصل إلى الحديث الصحيح ،« ولو أن مؤرخي أوروبة في العصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين ، لما تأخروا في تأسيس علم المثودولوجية حتى أواخر القرن الماضي ، وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب ، فنؤكد لهم بأن ما يفاخرون به من هذا القبيل نشأ وترعرع في بلادنا[1] » .

أوَليس مما يثلج الصدر ، ويبهج النفس ، أن يكون علماء الحديث قد سبقوا الغرب في علم مصطلح الحديث ، الذي تفرع منه مصطلح التاريخ ؟ !

ـ هذا في مجال صحة الأحاديث ، وموقف بعضهم منها .

ـ والأبلغ من ذلك سوءاً ، وجود من يريد أن يفسر القرآن الكريم على هواه ومزاجه ، دون اتباع لأصول التفسير الشرعية ، وما يلزمها من علوم مساعدة ، وهذه نافذة أخرى للتضليل .



---

(١) كتاب « مصطلح التاريخ » للدكتور أسد رستم ، المكتبة العصرية ـ صيدا .

بعد هذا كله...وبكل بساطة ووضوح نقرر : إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وإجماع الصحابة والأئمة ، هو ميزان الشريعة في تاريخ المسلمين .

وهنا يتبادر سؤال : وإذا جد أمر جديد ، من الذي يقرر الحل له ؟

الإجابة : هو إجماع علماء المسلمين العاملين ، هذا الإجماع الذي ندعو إليه ، لننهي الفرقة والانقسام ، وتنتهي الأسماء العديدة التي فرقت الجماعة ، ونكتفي بلقب مسلم أو مؤمن محمدي وكفى !

والإجماع يتقرر برضوخ وتسليم العالِم للأعلم منه ، وأن يكون الاجماع باجتماعات دورية شهرية أو سنوية لكبار علماء المسلمين ، أسوة بالمجامع العلمية لكل مادة علمية والتي تعقد اجتماعاتها دورياً .

وبعد ...

لا بد للأمة الإسلامية من الرجوع إلى الميزان الشرعي ، الذي عناصره القرآن والسنة والإجماع . وندع الاجتهاد« العنصر الرابع من الميزان » لنهاية الكتاب ، لنزن به عظمة العالم الذي فهم الميزان فهماً صحيحاً سليماً جلياً بوضوح ، فقام بالاجتهاد ، ضمن الاجتماعات الدورية التي اقترحنا .

فإذا اتفقنا على نقطة الرجوع إلى الميزان الشرعي وعناصره ، فلا بد أن نتساءل : ما دعوة القرآن ؟ وكيف فهمت على الأزمان ؟

وكيف دخل إليها التأويل والتضليل !

☆ ☆ ☆

دَعوَة القــرآن

○﴿ اليَـوْمَ أكملتُ لكُمْ دينَكُم وأتممتُ عليكُمْ نِعْمَتي ، ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ دِيناً ﴾ .

(المائدة/ ٤)

القـــرآن والرّبوبيّـة

لا يـوجـد في تـاريـخ الإجـابـات المفحمـة ، إجـابــة أروع من إجــابــة الأحنف بن قيس[١] ،لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان في معرض الرد عليـه حين استشاره في أمر تولية ابنه يزيد خليقة من بعده .

جابه الأحنف معاوية برد أشد أثراً من ضربات السيوف ، قول ترقص لـه الضمائر السليمة ، مع ما فيه من حكمة في الرد ، وتلطف في إعطاء الرأي . قـال الأحنف :

« نخافكم إن صدقنا ، ونخاف الله إن كذبنا[٢] » .

---

(١) الأحنف بن قيس (٣ق .هـ ـ٧٢ هـ/٦١٩ ـ ٦٩١ م) تميمي ، أبـو بحر ، سيـد تميم ، ولـد في البصرة ، وأدرك النبي(ص)ولم يره ، وفد على عمر حين آلت الخلافة إليه ، فاستبقـاه عمر في المـدينـة المنورة ، فمكث عـامـاً ، ولمـا عـاد الأحنف إلى البصرة ، كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري :**« أما بعد فأدنِ الأحنف وشاوره ، واسمع منـه ... »** . اعتزل الفتنة ، ولما انتظم الأمر إلى معاوية ، عاتبـه ، فـأغلـظ الأحنف في الجواب ، فسئل معـاويـة عن صبره عليـه ، فقال : هذا الذي إذا غضب ، غضب له مئة ألف لا يدرون فيمَ غضب ... »

راجع الأعلام ، الجزء ١ ، صفحة : ٢٦٣/٢٦٢ .

(٢) (معاوية) ، ص : ٢٥٣ ، أعلام العرب . ٦ ،بقلم إبراهيم الأبياري .

هذا ما يجب أن يفهمه الإنسان من دعوة الإسلام إلى التوحيد ، ألا يخاف إلا الله ، وألا يتخذ أحداً رباً من دون الله تعالى ، وقد أكد القرآن هذا المعنى في عشرات الآيات :

﴿ إن الله لا يَغفرُ أن يُشْرِكَ به ، ويغفرُ ما دون ذلك لِمَنْ يشاء ، ومن يُشرِكْ باللهِ فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ . (النساء/ ١١٦)

- ﴿ أيُشرِكونَ مالا يَخْلُقُ شيئاً وَهُم يخلقون ﴾ . (الأعراف/ ١٩١) .

- ﴿ حُنفَاءَ للهِ غيرَ مُشْرِكِين به ، وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فكأنما خَرَّ من السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطّيرُ أو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ في مكانٍ سَحيق ﴾ .(الحج/٣١) .

- ﴿ قلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مثلكُم يُوحى إليّ أنَّما إلهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ ، فَمَنْ كَانَ يَرجُو لِقاءَ ربّهِ فليَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادة رَبّهِ أحداً ﴾ . (الكهف/١١٠) .

- ﴿ قُلْ إنما أُمِرتُ أَن أَعبُدَ اللهَ ولا أُشْرِكَ بِهِ إليه أَدعوا وإليه مآب ﴾ . (الرعد /٣٦) .

- ﴿ لقد كفَرَ الذينَ قالوا إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ ومامنْ إلهٍ إلاَّ إلهٌ واحِدٌ.. ﴾ (المائدة / ٧٣) .

- ﴿ وكيفَ أخَافُ مَا أشركتُم ولا تَخَافُون أنَّكمْ أشركتُم باللهِ ما لم يُنَزِّل بهِ عليكُم سُلطاناً ، فأيُّ الفريقَيْنِ أَحقُّ بالأمنِ إن كنتُم تعلمون ؟ الذين آمنوا وَلَمْ يلبِسُوا إيمَانَهم بظلمٍ أولئكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهم مُهتدون ﴾ .(الأنعام / ٨١ ـ ٨٢) .

- ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ ، اللهُ الصَّمدُ ، لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يكُنْ له كُفُواً أَحدٌ » . (الإخلاص) .

إن الإسلام دين يدعوك إلى ألاَّ تخاف إلا الله ، وألاّ تشرك به شيئاً ، ظاهراً وباطناً ، قولاً وفعلاً . ومن ثمرات الإيمان بالله : سعادة الفرد والمجتمع . بالإيمان الصادق ، يقنع الإنسان بحقه ، ويلجم النفس الأمارة بالسوء عن المطامع والتعدي على حقوق الآخرين ،الإيمان بالله : يدفع صاحبه إلى حفظ حقوق الناس ، وأداء الأمانات إلى أهلها .

ـ « إن الإنسان لا تتحقق له إنسانيته الحقة ، بأي نوع من أنواع العلوم أو التربية والثقافة مهما أكثر الإنسان منها وجمع . ما لم يحصل على شهادة الإيمان الصادق بالله ، فلا تزيده علومه وثقافته على أن يكون وحشاً مفترساً له قالب الإنسان وهيكله ، وقلب الحيوان المفترس وقسوته ، وعقلية الشيطان ومكره بأخيه الإنسان ، وخداعه ودهاؤه » .

المسلم الحق ، إيمانه بالله لا يتزعزع ، وثقته مطلقة بربه ، لا يخشى معه أحداً ، لسان حاله ينطق في كل أحواله ، في سرائه وضرائه : إلهي أنت مقصودي ، ورضاك مطلوبي ، ويتمثل الآية الشريفة : ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعبون ﴾ (الأنعام /٩١) .

□□□

القرآن والتربية الخلقية

قال ﷺ :(ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخُلق) .

□ أقبل رجل على رسول الله ﷺ ، فصار بين يديه فقال : يارسول الله : ما الدين ؟ فأجاب الرسول : حُسْنُ الخُلق .

فأتاه الرجل قبل يمينه وقال : يارسول الله : ما الدين ؟فأجابه الرسول

ثانية : حسن الخلق . ثم أتـاه الرجل من قبل شِمَالِـهِ وسـألـه : يـارسول الله : ما الدين ؟

فأجاب الرسول ثالثة : حسن الخلق .

ثم أتاه الرجل من ورائه وسأله : يارسول الله ، ما الدين ؟

فالتفت إليه الرسول وقال له : أما تفقه ! ؟ هو ألا تغضب .

□ قال ابن عباس : لكل بنيان أساس ، وأساس الإسلام حسن الخلق .

□ وقال ابن القيم : الدين كله خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليـك في الدين .

يقـول سبحـانـه :﴿ وهــدوا إلى الطيب من القـول ، وهــدوا إلى صراط الحميد ﴾ (الحج : ٢٤) .

﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ﴾ .(فاطر/١٠٠/) .

ولما سئلت السيدة عـائشـة رضي الله عنهـا عن خلُقِ رسول الله ، قـالت : « كان خلقه القرآن » . فما هي الأخلاق التي دعا إليها القرآن ؟

جمع الدكتور أحمد الشرباصي « أخلاق القرآن » في كتـابـِهِ القيم :« **أخلاق القرآن**[1] » ويمكننا أن نجمع من رياضه هذه الزهرات :

ـ العفة : وهي حالة للنفس تمتنع بها عن علبـة الشهوة عليـهـا :﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ . (البقرة /٢٧٣) .

ـ العــزة : ﴿ ولله العــزة ولرســولــــــه وللمــؤمنين ، ولكن المنـــــــافقين لا يعلمون ﴾ . (المنافقون / ٨) .

---

(١) « أخلاق القرآن » د . أحمد الشرباصي ، الناشر : دار الرائد العربي ، بيروت ـ لبنان .

﴿ ولا تهنوا ، ولا تحزنوا ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران /١٣٩)

« إن العزة ميراث المؤمن ، فليحرص كل مؤمن على ميراثه » . (حديث شريف)

ـ العدل : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ . (النساء /٥٧) .

ـ العفو : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ . (التغابن / ١٤)

ـ الصدق : ﴿ أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾ . (البقرة / ١٧٧)

﴿ والذي جاء بالصدق ، وصدّق به أولئك هم المتقون ﴾ . (الزمر / ٣٣) .

ـ الإيثار : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ﴾ . (الحشر / ٩) .

ـ الرضى : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وذلك الفوز العظيم ﴾ . (التوبة / ١٠١) .

﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه ﴾ . (البينة / ٨)

ـ التواضع : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ . (الإسراء /٦٣) .

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ . (الفرقان /٦٣) .

ـ الطمأنينة : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . (الرعد /٣٠) .

ـ الحياء : ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ﴾ . (القصص / ٢٥) .

ـ الثبات : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . (البقرة /٢٥٠) .

﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ . (هود / ١٢٠)

﴿ الذينَ قالَ لَهم الناسُ إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهُم ، فزادَهُم إيماناً : وقالوا : حسبنا الله ونعمَ الوكيل ، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ ، لم يمسسهم سُوءٌ ، واتبعوا رضوان اللهِ ، واللهُ ذو فضلٍ عظيم ﴾ . (آل عمران / ١٧٤) .

ـ السكينة : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ... ﴾ . (الفتح / ٤) .

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ . (الفتح / ١٨) .

﴿ إذْ جَعَلَ الذين كَفَرُوا في قلوبهم الحميَّةَ ، حميَّةَ الجاهليَّةِ ، فأنزلَ اللهُ سكينتهُ على رَسُولِهِ وعلى المؤمنينَ وألزمَهُم كَلِمةَ التقوى ، وكانوا أحقَّ بها وأهلَها ، وكانَ اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عليماً ﴾ . (الفتح / ٢٦)

الشكر : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ . (إبراهيم / ٧) .

﴿ فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ . (البقرة / ١٥٢)

﴿ بل الله فاعبد ، وكن من الشاكرين ﴾ . (الزمر / ٦٦) .

﴿ وأيــدكم بنصره ورزقكم من الطيبــات لعلكم تشكرون ﴾ . (الأنفال / ٢٦)

الرحمة : ﴿ فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ﴾ . (آل عمران / ١٥٩) .

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ﴾ (الفتح / ٢٩)

﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ . (الإسراء / ٢٤)

الاعتبار : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص[1] ﴾ ... ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ . (يوسف : ٣ / ١١١) .

﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ . (النازعات / ٢٦)

الخوف من الله : ﴿ وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ . (آل عمران / ١٧٥) .

﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ . (الأنعام / ١٥) .

الاستقامة : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ (هود / ١١٣) و (الشورى / ١٥) .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ﴾ (الأحقاف / ١٣) .

---

(١) الآية الأولى ذكرت في أول السورة ، والآية الثانية ذكرت في آخرها . فالغاية من القصص القرآنية الاعتبار .

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ (الأنعام / ١٥٣) .

الخشوع لله[١] : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ... ﴾ (الحديد / ١٦) .

﴿ وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين ﴾ (البقرة / ٤٥) .

﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ (المؤمنون / ٢)

الحلم[٢] : ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ (هود / ٧٥) .

﴿ قالوا يا شعيب : أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ (هود / ٨٧) .

الصبر[٣] : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ (مريم / ٦٥) .

﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ (طه / ١٣٢) .

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ... ﴾ (الكهف / ٢٨) .

﴿ قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ﴾ (يوسف / ٨٣) .

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ (الاحقاف / ٣٥) .

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (الشورى / ٤٣) .

التقوى[٤] : ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ (الزخرف / ٦٧) .

---

(١) ذكر الخشوع : ١٥ مرة في القرآن .

(٢) وردت في القرآن الكريم : ٢٠ مرة .

(٣) اصبر : وردت في القرآن الكريم : ١٩ مرة .

(٤) « اتقوا الله » : وردت في القرآن عشرات المرات . « ألا تتقون » : وردت ست مرات .

﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (فصلت / ١٨) .

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات / ١٣) .

الحمد : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ (الحجر / ٩٨) .

﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربي سميع الدعاء ﴾ (إبراهيم /٣٩) .

التدبر : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوبهم أقفالها ﴾ (محمد / ٢٤) .

التفكر : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون ﴾ (الأنعام / ٥٠) .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (الحشر / ٢١) .

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ (البقرة / ٢١٩) .

البر : ﴿ وبرا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ (مريم / ٣٢) .

المسارعة إلى الخير : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ (الواقعة / ١٠) .

﴿ ... ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين ﴾ (آل عمران / ١١٤) .

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ (آل عمران / ١٣٣) .

المسابقة إلى الخيرات : ﴿ ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ﴾ (البقرة / ١٤٨) .

﴿ إن الـذين هم من خشيـــة ربهم مشفقـون ، والـذين هم بـآيـات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لايشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلـة ، أنهم إلى ربهم راجعـون ، أولئـك يســارعـون في الخيرات وهم لهــا ســابقـون ﴾ (المؤمنون / ٥٧ ـ ٦١) .

الإنابـة : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا لـه من قبل أن يـأتيكم العـذاب ثم لا تنصرون ﴾ (الزمر / ٥٤) .

﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ (هود / ٨٨) .

﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ﴾ (الروم / ٣٣) .

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيـظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ (ق / ٣١ ـ ٣٣) .

الأمـــانـــة : ﴿ إن الله يـــأمركم أن تـؤدوا الأمـــانـــات إلى أهلهـــا ﴾ (النساء / ٥٨) .

﴿ فـإن أمن بعضكم بعضـا ، فليؤد الـذي اؤتمن أمـانتـه وليتق الله ربـه ﴾ (البقرة / ٢٨٣) .

المحبة : ﴿ يـاأيهـا الـذين آمنوا من يرتـد منكم عن دينـه فسوف يـأتي الله بقوم يحبهم ويحبونـه ، أذلـة على المؤمنين ، أعـزة على الكافرين ، يجـاهـدون في سبيل الله ولا يخافون لومـة لائم ، ذلـك فضل الله يؤتيـه من يشـاء والله واسع عليم ﴾ (المائدة / ٥٤) .

﴿ والـذين تبوأوا الـدار والإيمـان من قبلهم يحبون من هـاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ (الحشر / ٩) .

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ (آل عمران / ٣١) .

الإحسان : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ... ﴾ (النحل / ٩٠) .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ﴾ (الأحقاف / ١٥) .

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ (التوبة / ٥٥) .

التوبة : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (البقرة / ٢٢٢) .

﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون **بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين ﴾ (التوبة / ١١٢) .**

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ (هود / ٣ و ٥٢ و ٦١ و ٩٠) .

كظم الغيظ : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (آل عمران / ١٣٤) .

الحذر : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا ﴾ (النساء / ٧١) .

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ (المنافقون / ٤) .

الإعراض عن اللغو : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ (المؤمنون / ١ ـ ٣) .

﴿ والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ (الفرقان / ٢) .

لوم النفس : ﴿ لاأقسم بيوم القيامة ، ولاأقسم بالنفس اللوامة ﴾ (القيامة / ١ ـ ٢) .

القنوت : ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ (البقرة / ٢٣٨) .

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ (النحل / ١٢٠) .

الإخلاص : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، **ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة** ﴾ (البينة / ٥) .

﴿ .. وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾ (الأعراف / ٢٩) .

﴿ قل الله أعبد مخلصا له ديني ﴾ (الزمر / ١٥) .

الوفاء : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق ﴾ (الرعد / ٢٠) .

﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ (آل عمران / ٧٦) .

﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث

فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما ﴾ (الفتح / ١٠) .

التوكل : ﴿ وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ (غافر / ٤٤) .

﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ﴾ (آل عمران / ١٥٩) .

الرجاء : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ (الإسراء / ٥٧) .

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ (الكهف / ١١٠) .

الإخبات[١] : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ (هود / ٢٣) .

﴿ فإلهكم إله واحد ، فله أسلموا وبشر المخبتين ﴾ (الحج / ٣٤) .

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (الحج / ٥٤) .

القوة : ﴿ يايحي خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ﴾ (مريم / ١١) .

﴿ ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ (القصص / ٢٦) .

---

(١) الإخبات الاطمئنان مع اللين ، أخبت الرجل إلى الله ، إذا خشع وتواضع ، وأخبتوا إلى ربهم : أي اطمأنوا إليه ، وللاخبات ثلاثة مواضع في القرآن الكريم .

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (الفتح / ٢٩) .

﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . (آل عمران / ١٤٦ ـ ١٤٧) .

☆ ☆ ☆

ـ هذه هي أخلاق القرآن ..

ـ وهذه هي ميزان الأخلاق للبشرية أجمع .

ـ هذه هي الأخلاق التي اتصف بها رسول الله ﷺ ، وقد وصفه عز وجل :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلقٍ عَظيم ﴾ (القلم / ٤) .

وهو « ﷺ » قدوتنا في أعماله وجهاده وأخلاقه :

﴿ لَقَد كانَ لكمُ في رَسولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا ﴾ (الأحزاب / ٢١) .

ـ فهذه إذن أخلاق المسلم المطلوبة ، يزن نفسه وأعماله ومعاملاته على ضوئها متذكرا قوله عليه السلام : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » (رواه الترمذي : رياض الصالحين ص ٢٧٣) .

ومجتمع أخلاق أبنائه ، وميزانهم في التعامل :

□ العفة ، العدل ، العفو ، الصدق ، الإيثار ، التواضع ، الحياء ،

السكينة ، الرحمة ، الخوف من الله ، الإستقامة ، الخشوع لله ومراقبته ، الصبر ، البر ، التقوى المسارعة إلى الخير ، الأمانة ، المحبة ، الإحسان ، كظم الغيظ ، الإعراض عن اللغو ، المسابقة إلى الخيرات ، والمسارعة إلى المعروف ، الإخلاص ، الوفاء ، القوة ، والعزة ...

مجتمع انتفت منه بالمقابل صفات :

□ الطمع ، الذل ، الظلم ، الكذب ، السخط ، التكبر ، القبح ، الجور ، التمرد ، الخيانة ، البغضاء ، الإساءة ، إبداء الغيظ ، الشماته ، نقض العهد ، اليأس ، الضعف وجولة العدو ...

فأخلاق ان وجدت ، وانتفى ما يقابلها من أضداد ، في مجتمع ما : فهو مجتمع الملائكة . مجتمع الفرد المثالي : عرف واجباته قبل أن يعرف حقوقه .

أخلاق القرآن ، لو وجد عشرها لأغلقت أبواب معظم السجون والمحاكم ، ولما بقي منها إلا النادر والقليل لكل نفس بشرية خام ، جامحة صعبة الترويض .

المجتمع الإسلامي الأول الذي رباه محمد بن عبد الله ، تمثلت فيه هذه الصفات والأخلاق ، فزان كل فرد أعماله وأقواله وخلقه ومعاملاته على ميزان أخلاق القرآن ، كان هواه تبعا لكتاب الله ، هذا المجتمع المثالي أعطى بأخلاق القرآن العظيم نتائج محسوسة منها أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقي قاضياً عامين في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي مركز الخلافة الإسلامية حيث يكثر القادم إليها ، ثم طلب إعفاءه . لماذا ؟ أهربا من المسؤولية ! لا . ولكن لأنه لم يأته خلال العامين متخاصمان يحتكمان إليه ! فتفكر ؟ ! .

□ هل هذه الأخلاق الرفيعة السامية تضَيَّع ؟ أولا تنتهج ؟ ألا إنها إن

فقدت من مجتمع ، حل من الأخلاق أضـدادهـا ، فتصبح النفس البشريـة ذئبـاً يجري وراء حقه بل شهواته ولا يعرف حقوق الآخرين ، فلا يأمن أخ أخاه .

أخلاق القرآن : من لم يعرفها ، فقد أضاعها .

ومن عرفها ولم يفهم معناها الحقيقي ليعمل بها ، فقد أضاعها .

ومن المؤسف حقـا ، ممـا يحز في النفس ، ويحزن القلب ، أن تنحـدر قيمـة القرآن وتعاليمه في نفوس بعضهم ، فينزل به من مكانته الحقيقية كـدستور حيـاة للأحياء ، ينزل به إلى المقابر ، إلى الأموات ، وما أسوأهـا من صورة ، أن يقف بهـا ـ ولا أدري مـا أقول ـ : عـالم ، شيـخ أم مقرىء ، والأفضـل مقرىء ، لأن العالم العامل بالميزان ، والشيخ الحقيقي ، لاينزل أحدهم إلى هذا المستوى المميت للـدين ، المضيع لمعـانيـه . مـا أسوأهـا من صـورة ، يقف بهـا مقرىء أمـام قبر ويتلو :

﴿ يا أيهـا الـذين آمنوا إذا لقيتم الـذين كفروا زحفـاً فلا تولوهم الأدبـار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتـال أو متحيزاً إلى فئـة ، فقـد بـاء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . ﴾ (الأنفال / ١٥ ـ ١٦) .

أو يتلو : ﴿ ولا تنـازعـوا فتفشلـوا وتـذهـب ريحكم ، واصبروا إن الله مـع الصابرين ﴾ (الأنفال / ٤٦) .

ـ ﴿ انفروا خفافاً وثقـالاً وجـاهـدوا بـأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (التوبة / ٤١) .

ـ ﴿ يا أيها الـذين آمنوا قـاتلوا الـذين يلونكم من الكفـار ، وليجـدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (التوبة / ١٢٣) .

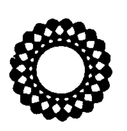
- ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (الجمعة / ١٠) .

- ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (الأنفال / ٦١) .

فهل نزلت هذه الآيات وأمثالها للأموات ؟ أم نزلت للقبور والمآتم ؟ ! علماً بأن معظم الأموات اليوم ما عرفوا القرآن في حياتهم ، فكيف سينتفعون به من بعد موتهم ؟ أما كان من الأجدر انتقاء آيات مناسبة في هذا الزمن الذي ضاع به القرآن من النفوس ، مثل :

- ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نَضِجَت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ (النساء / ٥٦) .

وبعد ... وفي المستقبل القريب سيسألني إنسان : القرآن ضائع ، كيف يا أخي ؟ ! القرآن يضيع ! ! وأقول : نعم ، ضاع من نفوسنا ، من معاملاتنا ، من سلوكنا ... شئنا أم أبينا . ولكننا لانزال نملك الإيمان بأن الله سيتم نوره ، وسيعم نور القرآن الكريم العالم .



القرآن والعلم

﴿ .. وألنَّا لَهُ الحَدِيدَ ﴾
﴿ .. وأنْزَلْنَا الحَدِيدَفيه بأسٌ شديدٌ ، ومنافع للناس ﴾ .

« قرآن كريم »

بعد ذكر الآية الشريفة : ﴿ وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم[1] ﴾ ذكر الشيخ محمد رشيد رضا[2] ما يلي :

« ومن المعلوم بالبداهة ، أن إعداد المستطاع من قوة ، يختلف امتثال الأمر الربَّاني فيه باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان ، وقد روي أن الرسول ﷺ تلا الآية السابقة ثم قال : « ألا إن القوة الرمي » وكرر ذلك ثلاثاً[3]. وهذا إشارة إلى أن أعظم أركان القوة الرمي . وذلك لأن رمي العدو عن بعد بما يقتله ، أسلم من مصادمته على القرب ... وإطلاق الرمي في الحديث السابق ، يشمل كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة أو بندقية أو

---

(١) سورة الأنفال ، الآية الكريمة ٦١ .

(٢) محمد رشيد رضا : « ١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م » صاحب مجلة المنار ، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي ، من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير . ولد في القلمون ، رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ ، فاتصل بالإمام محمد عبده وتتلمذ له . أصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة . من أشهر آثاره المطبوعة : (تفسير القرآن الكريم « المنار ») ، و « يُسْرُ الإسلام وأصول التشريع العام » ، « محاورات المصلح المقلد » . وللأمير شكيب أرسلان كتاب في سيرته سماه : « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » .
« راجع الأعلام » ج ٦ ، ص ٣٦١ / ٣٦٢ » .

(٣) رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داوود ، وابن ماجه ، والترمذي ، راجع تفسير ابن كثير : ج ٢ ، ص ٣٢١ .

طيارة أو مدفع .. أو غير ذلك - كالصواريخ اليوم - وإذا كان بعض هذه الوسائل لم يظهر في عهد النبي ، فإن لفظ الرمي على لسان نبينا مطلقٌ ليدل على العموم لأمته في كل عصر بحسب ما يرمى به في كل عصر .

فواجب المسلمين أن يصنعوا أسلحة القتال الحديثة بأيديهم ليحفظوا هيبتهم وحريتهم أمام أعدائهم ، ويجب عليهم أن يتعلموا الفنون والصناعات التي تمكنهم من صنع هذه الأسلحة ، والقرآن بعد هذا يقول : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم[1] ﴾ .

هذا فهم سليم ، وتفسير صحيح لآيات القرآن الكريم .

فهذه الهجعة الطويلة التي يعيشها المسلمون اليوم ، والتي بدلت حالهم من عز إلى ذل ، ومن قوة إلى ضعف ، ومن حركة إلى جمود ، ومن إقبال-على الدنيا وبهجتها إلى انصراف حتى استقر في ذهنهم عن الحياة ، صورة قاتمة بغيضة ، قويت معالمها بما طرأ على التعاليم القرآنية من تشويه وتعطيل وسوء فهم ، فكان عاملاً كبيراً من جملة عوامل تلك الهجعة[2].

هذه الهجعة ركود ، والركود موت .

هجعة ، نتج عنها أن المغرضين من الأجانب ، وحتى بعض المسلمين ، اتخذوا مظهر المسلمين هذا وسيلة للتحامل على الإسلام وتعاليمه ووصمها بالجمود ، واعتبروا ذلك قضية مُسَلَّمة ، ولا سيا أنهم صاروا أصحاب السلطان في الأرض ، وتمكنوا من وسائل القوة والعلم والحضارة ، فتأثرت الناشئة الإسلامية بدعاياتهم ومذاهبهم .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ، ص : ٦٩ / ٧١ ،ط ٢ ، طبع دار المنار سنة ١٣٦٩ هـ .

(٢) بتصرف عن « الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة » ص ٣ ، للأستاذ عزة دروزة .

ومن روائع الفهم الصحيح لمكانة العلم في القرآن ، تصريح نشرته « ريدر دايجست أسلمك » ، عنوانه : « إن صنع الطائرة فريضة إسلامية ، كما أن الصلاة فريضة إسلامية ـ كلمات مثيرة للمفتي الأكبر في سورية » صرَّحه في لاهور .

أعاد سماحته سبب انحطاط المسلمين إلى تقسيمهم الإسلام إلى شؤون دينية وشؤون دنيوية ، والإسلام لا يقسِّمُ الحياة إلى حقول متفرقة لا تربطها رابطة ، الإسلام يعتبر وحدة لا تتجزأ ، ومن واجب العلماء دفع المسلمين إلى الإحاطة بالعلم في كل نواحي الحياة ، سواء كان علم اقتصاد أو اجتماع ، نبات أو حيوان ، تعدين أو صناعة ، واعتبار ذلك كله فريضة إسلامية .

وأشار سماحته إلى أن القرآن الكريم (٦٣٤٢ آية) ، منها خمسئة آية فقط تبحث الأحكام ، وأقل من نصف هذه يبحث في شؤون التشريع والفقه ، وبلا شك ، فلقد حصرنا الإسلام كلياً في الجزء الأخير فقط ، بينما يوجد ما يقرب من « ٤٠٠٠ » آية ، تدعو باستمرار إلى استعمال العقل والفكر ، وإلى استنباط الحقائق العلمية من الطبيعة .

يجب أن نبدأ بإدراك أن صنع الطائرة فريضة إسلامية ، كما أن الصلاة فريضة إسلامية ، تحسين الأرض من الإسلام ، كما أن الصوم من الإسلام[1].

وقبل أن نجد دليلاً وسنداً لكلام سماحة المفتي العام من القرآن الذي هو ميزاننا ، أعرض فهماً خاطئاً شائعاً بين المتدينين : خريج شريعة فسر : « يعقلون يتفكرون » التي نجدها كثيراً في أواخر الآيات في القرآن ، بقوله :

---

(١) تصريح لسماحة المفتي العام للجمهورية الشيخ أحمد كفتارو في العدد السنوي الممتاز لمجلة المختار الإسلامية « ريدر دايجست اسلمك » ، العددان : ٥/ ٦ رمضان المبارك عام ١٣٨٦ هـ ، جوهانسبورغ .

يعقلون علوم الشريعة ويتفكرون بها ، دون أن يتطرق مطلقاً ليعقلون العلوم كلها ، ويتفكرون بالكون كله وبكل ما ينفعنا فيه .

أستاذ جليل ، عالم عامل ، مخلص دون شك ، رأيت له عنوان كتاب : « مباحث في علوم القرآن » أخذت الكتاب وتوقعت أن أجد فيه دعوات ملحة إلى التصنيع والسدود والأفران العالية والمعامل ونحو ذلك ...

ولما طالعت تفاصيله وجدته يبحث في :

١ ـ **القرآن والوحي :** أسماء القرآن وموارد اشتقاقه ، ظاهرة الوحي ، تنجيم القرآن وأسراره .

٢ ـ **تاريخ القرآن :** جمع القرآن وكتابته ، المصاحف العثمانية في طور التجديد والتحسين ، الأحرف السبعة .

٣ ـ **علوم القرآن :** لمحة تاريخية في علوم القرآن : علم أسباب النزول ، علم المكي والمدني ، لمحة خاطفة عن فواتح السُّوَر ، علم القراءات ولمحة عن القراء ، علم المحكم والمتشابه ، علم الناسخ والمنسوخ ، علم الرسم القرآني .

٤ ـ **التفسير والإعجاز :** نشأته وتطوره ، القرآن يفسر بعضه بعضاً ، إعجاز القرآن ، المجاز والكناية في القرآن ، الإعجاز في نغم القرآن .

البحوث السابقة لا يستهين بها مسلم ، وهي ضرورية جداً لاستمرارية فهمنا لمعجزة الإسلام الخالدة « القرآن » ولكنها ليست كل شيء ، ولا يمكننا أن نقف عندها طويلاً .

دعوت مرة مسلماً ، إلى جلسة علم تحث المسلم على فهم الإسلام الحق ، ديناً

ودنيا ، فاعتذر بقوله إن شيخي فلان يقرأ على الأربعة عشر ، صوت رائع ، وتجويد ممتاز ، مع القراءات كلها ، وهذا حظ صاحبنا من الإسلام والقرآن (تجويد) ورددت في نفسي حديث رسول الله :

عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « سيأتي على أمتي زمان يكثر القراء ، ويقل الفقهاء[1] ، ويقبض العلم ، ويكثر الهرج ، قالوا : وماالهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل بينكم ، ثم يأتي بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال من أمتي لا يجاوز تراقيهم[2] .. » .

قلت لصاحبنا المعتذر : وهل التجويد السليم إخراج كل حرف من مخرجه السليم في الفم ؟!

قال : نعم والله .

قلت : وبعد هذا ؟

قال : تستمر الجلسة ساعة أو ساعتين ، ثم نشرب الشاي الأخضر وننصرف .

قلت له : أما فكرتم في تجويد فهم معاني القرآن !

أما فكرتم في تجويد العمل بما قرأتم !

أما فكرتم في تجويد تطبيق معانيه !

أما فكرتم في الدعوة إليه بجودة وحكمة وفهم صحيح !؟

---

(١) الفقهاء : ليس المراد بالمعنى الخاص اليوم ، فقهاء بدين الله من جميع جوانبه ، فقهاء بالشريعة ، بالعمل بها ، بالدعوة إليها .

(٢) تراقيهم : الترقوة : العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق (ولا تضم التاء في الترقوة) . والمراد لا يتجاوز الحناجر .

ثم تذكرت الحديث الشريف السابق ثانية وتمثلت الآية الكريمة :

﴿ ... واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربي بما تعملون محيط ﴾ . (هود / ٩٢)

☆ ☆ ☆

لن تنهض الأمة الإسلامية من هجعتها إلا عندما تتيقّن أن العلوم التي دعا إليها الإسلام مفروضة على المسلمين كالصلاة والصوم .

١ ـ أولاً الإسلام دين محو الأمية والجهل ، وانتشار التعليم والعلم ، بدليل أن أول كلمات القرآن الكريم « اقرأ » ثم « علم بالقلم » ثم « ن ، والقلم وما يسطرون » .

٢ ـ عندما يقول القرآن : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ ، فمعنى ذلك واضح جلي ، أيها المسلمون : اعلموا أن الدول لا تبنى إلا على العلم .

٣ ـ ﴿ وألَنَّا له الحديد ﴾ ، إلانَة الحديد : إذابته بعد استخراج خاماته وفلزاته من المناجم ، وبعد التنقيب عنها . أليس المعنى قد توضح ؟! وهو أيها المسلمون تعلموا كيف تنقبوا عن ثروتكم الباطنية واستخرجوها ، وأذيبوها ... وبعد ذلك هل نتفرج عليها ؟! يلحق بذلك تصنيع عام ، هذا ... والسورة عنوانها « الحديد » فهل وردت هذه التسمية مصادفة ، أم تنبيها لمعدن الحديد وثروتنا الباطنية ؟!

٤ ـ ﴿ أن اعمل سابغات وقَدِّر في السرد ﴾ ، السابغات هي الدروع ، وفي عصرنا هل نعمل الدروع بمعناها كما كانت أيام رسول الله ؟ دروعنا اليوم : أدوات الحرب عامة ، نتقنها ، نصنعها . (وقَدِّر في السرد) : أي الدروع التي لها حلقات صغيرة كيلا تنفذ السهام والرماح منها إلى جسم لابسها ، الله

أكبر ، الله يعلمنـــا . واليــوم : هــل سيبقى تفسير « وقَــدِّر في السرد » هــو السابق ؟

تفسر بحسب حـاجـة العصر وأسلحتــه ، تفسر بصنـع الـدبـابـات التي لا تخترقها القنابل ، إنها آية تذكير وتنبيـه . لقوة ومتـانـة سلاحنـا كيلا ينفـذ العدو إلينا . هل فهمت الآية هكذا قبلاً ؟!

٥ ـ ﴿ وأسَلْنَا لَهُ عين القِطْر ﴾ والقِطرُ هو النحـاس ، أليست الآيـة تقول في جوهرها أسيلوا النحاس وأذيبوه بعد استخراجه من مناجمه ؟

أم الآية للتسلية يذكر لنا بها خبراً من أخبار السابقين ؟.

٦ ـ ﴿ يرفـع الله الـذين آمنـوا منكم ، والــذين أوتــوا العلم درجــات ﴾ (المجـادلـة / ١١) : كل عـالم : طبيب ، مهنـدس ، جيولوجي ، بيولـوجي ... يعمل لقوة هذه الأمة المحمـديـة ولصمودهـا بـدافع فهم صحيح للإسلام ، يرفعـه الله درجات ، تماماً كالعالم الذي يعلم فقه الوضوء ، وأركان الصلاة ، ومفسـدات الصوم ..

٧ ـ ﴿ ألم تَرَ أنَّ الله أنْـزَلَ من السَّماء مـاءً فـأخرجنـا بـه ثَمَرات مُخْتَلِفـاً ألوانهـا ... ﴾ (فـاطر :٢٧) ، إنهـا دعوة إلى العلوم الطبيعيـة . ومعرفـة تفسير نزول الماء من السُّحب لا يتم إلا بمعرفة الفيزياء والكيمياء ، ولا يُعرف الإنبـات والإثمار إلا بعلم النبات .

٨ ـ ﴿ فلينظر الإنســان مم خلق ، خلـق من مـاء دافـق ، يخرج من بين الصلب والترائب .. ﴾ . أليست دعوة إلى علم البيـولـوجيـا ، علم الحيـاة ، وإلا فكيف يكون النظر بين الصلب والترائب ؟!

٩ ـ ﴿ إن في خَلْقِ السموات والأرضِ واختلافِ اللَّيلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألباب ﴾ (آل عمران : ١٩٠) .

﴿ قلِ انظروا ماذا في السمواتِ والأرض .. ﴾ (يونس : ١٠١) أليست دعوة إلى علم الفلك صريحة ، والنظر في الفضاء نظر الباحث المستكشف !

□ الحديث يطول .. ولكن لتفهم الأمة أنها إذا احتاجت إلى عدد من العلماء في مجال ما وليكن عددهم مائة ، ووجد بينها تسعون فقط فهي آثمة . علماء في أي مجال يكفل القوة والصمود والعزة لتتحقق الخلافة في الأرض للمؤمنين .

سورة سبأ ، فيها إنشاء السدود ، أم هي قصة لتسليتنا ، وحكاية لتقضية وقت ، أم الفهم السليم لها ، أن ابنوا سدودكم لتصبح بلادكم جنات :

﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمينٍ وشمال ، كلوا من رزقِ ربكم واشكروا له بَلْدَة طَيِّبَةٌ وربٌّ غفور ﴾ . (سبأ / ١٥)

النبي ﷺ ، ما رضي بكسرة خبز أن تهدر ، قبَّلها ووضعها على عينيه ثم قال : « يا عائشة أكرمي جوارَ نعم الله ، فقلما نعمة نفرت من قوم ثم عادت إليهم » . (رواه البخاري) .

ـ كسرة خبز نعمة ، الأراضي الصالحة للزراعة ، ولا تزرع ، أليست نعمة ؟! وكم من كسرات الخبز تساوي ؟

ـ كسرة خبز نعمة ، ومياه الأنهار تفيض في البحر وعلى جانبيها أراض بور ، أليست إقامة السدود كما جاء في سورة سبأ نعمة ، ومناجم المعادن كلها نعمة ... أليس ثمنها نعمة ، وعدم استيرادها وتحكم الاحتكارات العالمية بنا ، تساوي ملايين الملايين من كسرات الخبز !

- وإذا نبهنا الله تعالى لبناء السدود ، فمعنى ذلك أن علم الهندسة فريضة إسلامية !!!

ومن طرف آخر : أراد النبي من حديثه للسيدة عائشة أن يعلمنا الاقتصاد ، بل وينمي فينا ملكة الاقتصاد ، والهدف : الحرص على الخيرات ، والانتفاع بها ، والاقتصاد من الرخاء إلى الشدة . أما قال ﷺ : « يا سعد لا تسرف - في الوضوء - ولو كنت على نهر جار »[1]. فلماذا ؟

هل سينقص النهر أم سيجف ؟! هل سينقطع مجراه من وضوء سعد إن أسرف بماء وضوئه ! لا ، الهدف تثبيت ملكة الاقتصاد في نفس المسلم .

ما أعظم القرآن ! وما أعظم تعاليمه ! ولكنها في وادٍ نحن في غيره .

□ أصبح أكثر الناس أمواتاً عن كتاب الله تعالى ، وإن كانوا أحياء في معايشهم ، وبكماً عنه وإن كانوا يتلونه بألسنتهم ، وصماً عن سماعه ، وإن كانوا يسمعونه بآذانهم ، وعمياً عن عجائبه وعلومه وإن كانوا ينظرون إليه في مصاحفهم ، وأميين في أسراره ومعانيه وإن كانوا يشرحونه في تفاسيرهم[2].

وإن رأيت قرّاءه يتغايرون ويتحاسدون ولا يستأنسون ، فاعلم أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم خاسرون[3].

وأخيراً في هذا البحث :

ذكر صاحب : « مباحث في علوم القرآن » في صفحة ٢٩٧ : « إذا كنا نبحث عن النكات البلاغية - في القرآن - رجعنا إلى الزمخشري ، وإذا التمسنا

---

(١) رواه أنس .

(٢) « الغزالي » لطه عبد الباقي سرور ، سلسلة اقرأ .

(٣) قال ﷺ « تعوذوا بالله من فخر القراء ، فهم أشد فخراً من الجبابرة ، ولا شيء أبغض إلى الله من قارىء فخور » . (رواه الديلمي عن أنس) .

المباحث الكلامية رجعنا إلى الرازي ، وإذ أردنا إعراب القرآن فعلينا بالبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، ففيه كثير من المباحث النحوية والمسائل المتعلقة بالقراءات ...

وقد ألفت في القرن الأخير تفاسير لبعض العلماء المعاصرين فيها محاولات تجديد ، وأقلها نصيباً من النجاح - بلا ريب - « الجواهر في تفسير القرآن » لطنطاوي جوهري ، فإن في تفسيره كل شيء ما عدا التفسير . هذا ما قاله الدكتور مؤلف : مباحث في علوم القرآن !

الشيخ طنطاوي جوهري[1]، فسر القرآن ، ومن سوء حظه - إن صح التعبير - أنه لم يُعِرْ النكات البلاغية ولا المباحث الكلامية ، ولا الإعراب والقراءات كبير أهمية ، لكنه فسر الآيات العلمية تفسيراً وضع له الصور والمصورات والتوضيحات الدقيقة .

أخذت دون انتقاء الجزء الخامس والعشرين من تفسير الجواهر ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٠ هـ طبع مصطفى البابي الحلبي ، وتصفحت هذا الجزء فوجدت :

أن الشيخ طنطاوي جوهري في تفسير سورة النبأ « الآيات : ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ وضع رسماً يوضح الطيف الشمسي في ص : ١٤ ، وجهاز مبدد الضوء في ص : ١٥ . ليوضح بديع خلق الله في الضوء وأشعة الشمس . فهل لأنه لم يعرب الآيات ، ولم يبحث فيها عن النكات البلاغية ليس في تفسيره تفسير ! يا سبحان الله !

---

(١) طنطاوي جوهري : ١٢٨٧ - ١٣٥٨ هـ / ١٨٧٠ - ١٩٤٠ م ، عالم فاضل له اشتغال بالتفسير والعلوم الحديثة ، ولد بمصر وتعلم في الأزهر مدة ، وتضلّع بالانكليزية ، ألقى محاضرات في الجامعة المصرية ، وناصر الحركة الوطنية .

ولما فسَّر الشيخ جوهري : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافا ﴾ وضع صوراً لشجرة ، لأقسامها ، للورقة وبراعمها ، وشرح الساق ، وفسر لماذا تتجه الأغصان إلى أعلى والجذر إلى أسفل ، وصوراً لأنواع الأوراق والزهر ، والثمر ... في الصفحات من ١٦ ـ ٢٧ .ثم قال في صفحة ٢٨ و ٢٩ :

« اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، وإن العلم أجل سعادة ، وإن الجهل هو العذاب المهين .

رباه : نعيش في هذه الأرض ونحن حيارى لا ندري ما يراد بنا ، نراك ملأت أرضنا من الزروع والأشجار والحَبِّ والفاكهة ، ونحن نأكل ولكننا غالباً غافلون ... أذكر أنني كنت في زمن الشباب والفتوة أجلس في الحقول وأتأمل زهر الفول المشبه شكل ٢٩ وما بعده إلى شكل ٣١ ، ولكني ما كنت أفهم فيه شيئاً ، غاية الأمر أني أنظر ظواهر اللون والشكل وأنا عن الحقائق بعيد ...

أيها الناس : خذوا حذركم ، أيها الناس ، اقرؤوا هذه الآيات : إن الله لم يذكر « لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً » إلا بعد أن قدم مقدمة يذكر الأرض والجبال والليل والنهار والسموات والشمس والسحاب والمطر ، وهو لم يخلق لكم هذه الحبوب ، ولا هذه الفواكه إلا لتذكركم بالعلويات ، والعلويات مذكرات بي ... » .

فكل ما ذكره الله في سورة النبأ لإظهار عظمته ، وقد أظهرها المفسر بأسلوب علم موضح بالصور ، ما أروع ذلك وما أبهجه للنفس ولكن صاحب : « مباحث في علوم القرآن » ، وجد في التفسير كل شيء ما عدا التفسير ، يا سبحان الله .

وفي صفحة ١٢٩ وما بعدها بدأ الشيخ جوهري بتفسير : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسَوَّى ، والذي قـدَّر فهـدى ... ﴾ فقـال « أتبع الله التسبيح بتسعة أمور : الخَلْق ـ التسوية ـ التقدير ـ الهداية ـ خلق النبات ـ الإقراء عدم النسيان إلا ما شاء الله ـ التيسير لليسرى ـ أن الذي يخشى هو الذي يتذكر » .

ثم فسر المعنى وأبـدع في وضع صور بـديـع خلـق الله في خلقـه كالحشرات وحياتها العجيبة ، ثم في صفحة : ١٣٥ ، العنكبوت وحياتـه العجيبـة ،ونسيجـه الأعجب ، الدودة الشريطية وقطعـة من لحم الخنزير المشتمل على الـدودة المسماة « تريتبشنا » والدود الصغير مـدفون في أجزاء اللحم ... كلهـا ليظهر عظمـة الله في الخلـق وتفسير الآيـات ﴿ الـذي خلـق فسـوى ، والـذي قـدَّر فهـدى ... ﴾ (الأعلى : ٢ و ٣) .

المفسر لم يعرب ، ولم يبحث عن الصـور البـلاغيـة ، والمسـائـل المتعلقـة بالقراءات ... فوجـد صـاحـب : « مبـاحـث في علوم القرآن » كل شيء مـا عـدا التفسير ، فيا سبحان الله !!

دخل(قارىء) ، ولا أقول عالم ، إلى مكتبة من مكتبـات دمشق ، تصفح جزءاً من تفسير الجواهر بشكل سريع ، فلمح فيه صوراً علمية توضح بديع خلق الله في السمـوات والأرض من المجرة إلى الـذرة ، الحيـوان والإنسـان والنبـات ، فرمى به وقال بعُجْبٍ : هذا كتاب تشريح !!

وأنا لا أدافع عن الشيخ طنطاوي جوهري دفاعاً أعمى ، فـإن على تفسيره ملاحظة واضحة ، ألا وهي كثرة سرده الأقاصيص وتوسعـه فيهـا كثيراً ، ولكن لا يعاب عليه بـأي شكل تطرقـه العـديـد الواسع للعلوم العصريـة ، كي يوضح

بشكل جلي بديع صنع الله ، فنعرف الله في عظمة خَلْقِه ودقة صنعه . مع دعوة صريحة للأخذ بأسباب العلوم العصرية ، وأي غريب في هذا !!

وكان الشيخ جوهري يعلم مواقف المتزمتين الجامدين الرافضين لتجديده في التفسير ، فقال في الجزء ٩ ، صفحة ١٨٦ : أنت أيها الشيخ حفظت القرآن من صغرك ، بلا تدبُّر ، على طريقة المسلمين في الأرض ، تُرِكت بلا مرشد ، قرأالشيخ العلوم العربية ، ونهايتها البلاغة ، وهي نحو من اثني عشر علماً ، وأفهمه شيوخه أنك بهذه العلوم تعرف سر القرآن ، والدليل على ذلك أني حين سألتك أيها الشيخ أجبتني بإسناد الضمائر ، وذلك خاص بعلم المعاني ، وهذا هو الذي أوقف عقول أمة الإسلام ، عاشت في القرون الأخيرة في جوٍ من الألفاظ ، فحجبت عنها الأسرار ، وقال قوم ممن جاهدوا أنفسهم وصلوا إلى معانٍ ،بتصفية الباطن ، ولكنهم ما أبرزوها للناس ، لأن الناس لا يصدقونها ، فرجع الأمر أن الأمة وقفت في مربضها ، وتقدم غيرها من الأمم ، فدرسوا هذه الكائنات والمسلمون في سبات . أنت أيها الشيخ ، ما أنت إلا واحد من آلاف حفظوا القرآن كما حفظت ، ولكنهم تعثروا في أذيال الخيبة والنكال ، فإنهم اكتفوا منه بالتلاوة أو العبادة أو التبرُّك أو السماع أو التغني به . وكل ذلك نذر يسير ، ولم ينزل القرآن ليقتصر على هذا ، إنه نزل لإطلاق العقل ، والشيوخ الذين حفظوا القرآن لفظاً ، كلما خلت أمة اتبعتها أخرى ، والعقول واقفة ، والنفوس نائمة ، والأعداء حولكم مستبشرون فرحون .

ومن صور الفهم الصحيح لهذا العالم الجليل « طنطاوي جوهري » ، ومن توقعاته التي حذر منها ، وتنبأ بها ، وقد وقعت بالفعل ، مما يدلل على إخلاصه في نصحه ، وصحة تصوره ، وسلامة ما يدعو إليه ما يلي[1]:

---

(١) الجواهر ، الجزء الأول ، صفحة : ٨ ، الطبعة الثانية : شوال ١٣٥٠ هـ (ط : البابي الحلبي) .

☆ « وإني أدعو جميع أمم الإسلام ، في مشارق الأرض ومغاربها ، أن يمعنوا النظر فيما أقول ، وإلا فكيف يقول الله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزيَّة ، وهي أن الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات ، والإسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به ، لا يشاركه فيها دين من الأديان ، ليُعَلِّمَ كل عالم أو ملكٍ أمته جميع العلوم باعتبار أنها من الإسلام ... **فإذا أبى المسلمون ما ذكرناه ، فإني أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، وقد بدت بوادرها من الطيارات القاذفات على القرى ، والشيوخ والصبيان** ، فمن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم ، فلا يلومن إلا نفسه « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » .

ألا وإن أرباب المذاهب من شيعة وسنية ، ومالكية ، وحنابلة ، وحنفية ، وشافعية ، وزيدية ، كان اختلافهم في مسائل من الشريعة المطهرة ، فإذا قرؤوا علوم الآفاق التي أرشد إليها القرآن ، لم يكن بينهم اختلاف فيها . لأنها مكشوفة ظاهرة ،والله هو الذي منحهم إياها ، فليقرأ المسلمون في الشرق والغرب ، جميع العلوم التي برع فيها الإفرنج ، وهي علوم الأنفس والآفاق ، وإذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم في الشريعة يسيرٌ جداً ، بالنسبة لما اتفقوا فيه .

إلى هذا أدعو جميع المسلمين ، والله يهدي إلى سواء الصراط ، إن علماءنا السابقين شرحوا هذا في كتبهم ، ودوَّنوه في دفاترهم ، ولكن المسلمين كانوا في غفلة ساهين ، ليقف العالم بين الناس شارحاً لهم جمال الزهر ، وبهجة القمر ، وبدائع النبات ، وغرائب الطب ، والمعادن ليفهم غيره ، وليكثر من هذا : أولا يرى علماء الإسلام من سنيين ، وشيعيين ، وزيديين وغيرهم ، أن علوم الخلق

من العوالم العلوية والسفلية غذاء ، وأن علوم الشريعة ، وهي الأحكام الفقهية التي صرفوا فيها أعمارهم دواء ، وكيف يعيش الإنسان إلا بالغذاء ؟ وهو إذا تعاطى الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فإنما يكون عند انحراف الصحة .

فيا أيها المسلمون : اطلبوا الغذاء وعلوم الدواء : أي العلوم الكونية ، والعلوم الشرعية ، وجميعها يطلبها القرآن ، وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشد من عنايته بالدواء » .

وهكذا ... حذر الرجل من كسل المسلمين وإعراضهم عن العلوم كلها ، وحذر من نيران صاعقة بدت بوادرها في زمانه قبل حوالي خمسين سنة ، خصوصاً من الطيارات القاذفات ... فلم يجد أذناً تعي بعد أن تسمع ، لا من أمير ولا عالم ، فكان ما لقيه العرب من طيران عدوهم !! في حروبهم الحديثة .

☆ ☆ ☆

إن دعوة القرآن للعلم بكل صوره ، دعوة صريحة ، ولن تفلح أمتنا إلا عندما نراها قد أخذت بكل العلوم العصرية النافعة .

والبلد المسلم الحق ، فيه إلى جانب كل مئذنة تعلو ، مدخنة مصنع ترتفع ، يبني المسجد ، ويبني المعمل ، يشيد الجامع ، ويشيد مجمع البحوث العلمية ...

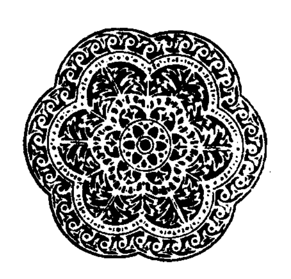
- بهذا الفهم السليم لدعوة القرآن ، نجد القرآن في حياتنا ومعاملاتنا اليومية .

ـ وبغير هـذا الفهم ، يحـدث الانحراف ، ويضيع القرآن ، ويصبـح هـو في واد ، والمسلمون في واد غيره .

ـ تكون تعاليمه وأهدافه ومراميه في واد ، وسلوكنا في واد غيره ...

قال ﷺ « يأتي زمان على أمتي القرآن في واد ، وهم في واد غيره[1] » . [☆]

☆ ☆ ☆



(١) رواه الحكيم عن حيان بن حجر ، راجع مسند الإمام أحمد بن حنبل ، الجزء الرابع ، هـامش صفحة ٤٨ ، « منتخب كنز العمال » . طبع أحمد البابي الحلبي ، عام ١٣١٣ هـ .

☆ ويقول ﷺ : « يأتي على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن ، فيجمعون حروفـه ، ويضيعون حـدوده ، ويل لهم مما جمعوا ، وويل لهم مما ضيعوا . » (رواه أبو نعيم عن ابن عباس) .

العُلماء في الميزان

﴿ وَإذْ أخَذَ اللهُ ميثاق الذينَ أوتوا الكتابَ لَتُبَيّنُنَّهُ للنّاسِ ولا تكتُمُونَهُ .. ﴾ .

(آل عمران / ١٨٧)

ـ من العالم ؟

□ العالم في مصطلح القرآن ، ومصطلح السنة هو الفاهم لكتاب الله بحقيقته ، والعامل بعلمه من أجل إبلاغه ، المعرض بقلبه عما سوى الله ، وهو الداعي بحكمة وموعظة حسنة .

هو موحد الأمة ومعدها لحياة أفضل ، الداعي لنبذ الخلافات ، جمع قلباً ذاكراً صافياً رحباً مزكى ، وعقلاً واسعاً كبيراً ، ففهم عصره وعرف طريق الخلاص .

هو العالم بمكارم الأخلاق ، المتمثلة فيه ، القائم على ترسيخها في النفوس أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم .

يُذكِّرُ الناس إذا غفلوا ، ويهذب نفوسهم ويوقظ هممهم ، ويجمع قلوبهم ولذلك كانت عزته من عزة الإسلام ، الحكمة رائده ، والعقل نهجه ، ومرضاة الله هدفه . هو العالم الذي اجتاز قبل انطلاقه في الدعوة وتمثيل الإسلام فحصين اثنين :

ـ فحصاً في تـزكيـة نفسـه ، وادراكـه لعصره ، وتفجر ينـابيـع الحكمـة في قلبه .

ـ وفحصاً في العلـوم القرآنيـة ، ليُرى فهمُـه الصحيـح عن الله في كتـابـه العزيز وفهمه السُّنَّة النبويـة . هو الإنسـان الـذي وضع كتـاب الله حَكَماً لكل تصرفاته ، وضع الميزان نصب عينيه ، بـه يغضب وبـه يرضى ، فـإذا هو صورة الشريعة ، في صفاته وسلوكه « قرآن ، وسنة ، واجماع » .

عرف أن كل خطـأ منـه لا يحسب عليـه وحـده ، بل يلصق بـالإسـلام ، ولذلك جعل حياته إسلاماً كلها ، طعامة وشرابه ، وقته وكلامه ، شغله ودنيـاه للإسلام .

وعرف أن الشعار الذي يحملـه في وجهـه وعلى رأسـه هو شعـار رسول الله والسابقين الأولين ، فحفظ لهذا الشعار هيبته وكرامته وعزته .

وعرف نفسه أنه طبيب ، وليس قاضياً يُكَفِّرُ هـذا ويُفَسِّقُ هـذا ، ويخرج هذا من رحمة الله ... إنه طبيب مداوٍ حليم حنون رؤوف ...

نفسه لينة دون ضعف ، لا يُرى فيها غلظة ، ولا تَزَمُّت ولا تَرَفُّع .

هو حـارس القرآن من الضَيـاع : بعلمـه الصحيـح ، ونفسـه المـزكاة ، وعقله الحكيم ، وسلوكه الكريم .

وعالم يحمل هذه الصفـات ... رحمـة[1]، يـدفع بـالتي هي أحسن ، يـأخـذ النـاس بـاليسر[2]، لا يحـدث النـاس بمـا ينفرهم عن ربهم[3]، يـدرك بـالرفـق

(١) يقول عز وجل : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليـظ القلب لانفضوا من حولـك ... » آل عمران / ١٥٩ .

(٢) قال عليه الصلاة والسلام : « خذوا الناس باليسر فان المؤمنين رفقاء »

(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم عما يفزعهم ... »

مالا يدرك بالعنف ، يألَفُ ويُؤلف[1]... وباختصار يجمع أخلاق القرآن في نفسه وشخصه ..

عالم بهذه الصفات ، هو مصباح هداية لنا ، ولهذا فإن حديث النقد لا يمسه ، ولا أعنيه فيه ، وكيف أتجرأ على نقده ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « العالم سلطان الله في الأرض ، فمن وقع فيه فقد هلك[2]» . كيف أتجرأ على النقد ، ورسول الله يقول بحق العالم العامل الحقيقي : « العلماء مصابيح في الأرض ، وخلفاء الأنبياء وورثة الأنبياء[3] » ويقول عليه السلام : « أكرموا العلماء ، فانهم ورثة الأنبياء ، فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله[4]» .

ولكنني أخاطب في نقدي من تزيَّى بزي العلماء وليس منهم ، حديثي وهمسي وكلامي عمن اندس بين العلماء فأساء ، ولا أبالغ إذا قلت إن أمثال هذا ليسوا حراساً للشريعة بل هدَّامون دروا أم لم يدروا ، فإن من يدعي المداواة والطب ، خطر على الصحة العامة أكثر ممن قال لا أعرف ولست طبيباً .

ومن يدعي أنه طيار فاستلم طائرة فيها مئة راكب ، هنا يكمن الخطر ، لأنه إذا جدّ الجد لا ينقذ الأول لباسه الثوب الأبيض ، ووضعه « السماعة » على أذنيه ، ولا ينقذ الناس وينقذ الثاني لباسه لباس الطيارين !

إنني أخاطب من قال رسول الله بحقهم : « إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين[5]» ، « يأتي على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن ، فيجمعون حروفه ،

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

(٢) الديلمي في الفردوس .

(٣) أبو عدي في الكامل عن ابن علي .

(٤) الخطيب في التاريخ عن جابر .

(٥) الترمذي عن ثوبان .

ويل لهم مما جمعوا ، وويل لهم مما ضيعوا إن أولى الناس بهذا القرآن من جمعه ولم يرَ عليه أثرة[1]» .

إنني أخاطب من أمات معاني القرآن ، وضيع أهدافه ، وجعله على القبور ، قال صلى الله عليه وسلم بما رواه أبان : « يؤتى بعصابة من أمتي يوم القيامة وهم القراء ، فيقال لهم من كنتم تعبدون ، قالوا : إياك ربنا ، فيقول : كذبتم ، عبدتموني واستغفرتموني بالالسن ، وفررتم مني بالقلوب ، فينظمون في سلسلة ثم يطاف بهم على رؤوس الخلائق ويقال : كذابو أمة محمد » .

وقال في حديث آخر : « تعوذوا بالله من فخر القراء ، فهم أشد فخراً من الجبابرة ، ولا شيء أبغض إلى الله من قارىء فخور » . (الديلمي عن أنس) .

وهناك أحاديث كثيرة بحق « الدعي » لا أرى مناسباً أن أوردها ، وهم أعلم بها كما أظن .

أما العالم الحقيقي : فهو سيد في مجتمعه ، له السلطان على القلب والروح والدين . العالم المخلص وحده لن ينزعج من بحثنا هذا ، وهو سيشاركنا في الدعوة إلى الميزان ، فنحن معه لنعيد إلى الإسلام نضارته .

المخلص لا نعنيه ، ولن يضره البحث .

وغير المخلص ... سيتناولنا في حديثه ، سيجرِّح ، وله ما يشاء ، ولكنني أدعوه عند التكلم والهجوم إلى مراعاة جنب الله ، والتمثل بأخلاق القرآن إن أمكنه .

☆ ☆ ☆

---

(١) أبو نعيم عن ابن عباس .

مَالهُـمْ

﴿ وَمَنْ يُعَظِّم شَعَـائِرَ الله فـإنهـا من تقـوى القلوب ﴾ .

(الحج / ٣٢)

حديثنا هنا عن عالم حقيقي ، عَرَّفْناه سابقاً ، ووصفناه بأنه حارس القرآن من الضياع ، وهو الذي ورد في حقه بعض الأحاديث الشريفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١ ـ « يأتي على الناس زمان لا يتبع فيه العالم ، ولا يستحيا فيه من الحكيم ، ولا يوقر فيه الكبير ، ولا يرحم فيه الصغير ...[1] »

فاتِّباع العالم العامل والاستحياء منه وتوقيره من واجباتنا نحوه

٢ ـ « احذروا زلة العالم ، وانتظروا فيأته[2] » .

زلته : وقوعه في خطأ لأنه بشر ، وقد يزل في حياته مرة أو أكثر ، فلا يُشهَّر به ، ولا تُهَوَّل زلته ، فرجوع المؤمن سريع ، وندمه قريب ، ولقد مر معنا من أخلاق القرآن التي تتمثل بالعالم : **الإنابة** وهي الرجوع والاقبال واخلاص العمل لوجه الله عز وجل ، **ولوم النفس** من أخلاق القرآن فأوبته سريعة ، فمن الأدب عدم التشهير والتهويل .

٣ ـ « العالم سلطان الله في الأرض ، فمن وقع فيه فقد هلك[3] » .

---

(١) الديلمي عن علي

(٢) الحلواني عن ابن عمر ، والبيهقي .

(٣) الديلمي في الفردوس .

إنه سلطان الله على دين المسلمين ، وسلطان على توجيههم وهدايتهم ، ومن وقع فيه ، ذماً وتجريحاً أو مخالفة ، هلك في دينه ، أو في دنياه ، أو في دينه ودنياه . فبئس من يقع عليه معنى هذا الحديث الشريف .

٤ ـ « أكرموا العلماء ، فإنهم ورثة الأنبياء ، فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله[١] » . فما أصدق إيمان من يكرّم العلماء ! وما أجزل ثوابه فثواب اكرامه على الله ورسوله .

٥ ـ « **إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ، ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا فأجابوا بغير علم ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا[٢]** » . فمن واجب المسلمين تشجيع العالم وتكريمه ، ليرى الناس إكرام المؤمنين له ، فيتشجعوا ليكون منهم علماء ويرى الناشئة مكانة العالم فيطمعوا ويأملوا أن يحذوا حذوه ، وبهذا يبقى العلم والعلماء وتبسط الهداية نورها .

٦ ـ **عن عثمان رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه** وسلم : « يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم الشهداء ، ثم العلماء[٣] » . بمن سيشفعون ؟ بمن أحبهم ، وانتفع بهم ، وجالسهم ، في الدنيا . أما من حسدهم وحمل الحقد عليهم ، ما أظن أن هؤلاء المبغضين الحاسدين يحشرون معهم أبداً .

٧ ـ عن أبي حفص أنه سمع أنس بن مالك يقول ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مَثَلَ العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء ، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فاذا انطمست النجوم يوشك أن تضل الهداة » .

---

(١) الخطيب عن جابر .

(٢) متفق عليه ، عن ابن عمر .

(٣) المرهبي في فضل العلم ، رواه الخطيب عن عثمان .

فويل لمن يحاول طمس هدايتهم ، بأكاذيب واشاعات يبثها حولهم ، حسداً وحقداً وسوء توفيق .

٨ ـ « يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين[١]» .

٩ ـ « فضل العالم على العابد ، كفضلي على أدناكم ، إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت ، ليصلون على معلم الناس الخير »[٢].

١٠ ـ وأخيراً ... يجمل الامام علي كرم الله وجهه واجبات المسلم نحو العالم : (من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه دونهم بالتحية . وأن لا تجلس أمامه ، ولا تشيرنَّ عنده بيدك ولا تغمزن بعينيك ، ولا تقولن قال فلان خلافاً لقوله ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تسارر في مجلسه ، ولا تأخذ بثوبه ، ولا تلح عليه إذا حل ، ولا تعرض من طول صحبته ، وانما العالم بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء ، فإن المؤمن العالم لأعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله ، فاذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء إلى يوم القيامة)[٣].



---

(١) الحاكم وابن عساكر عن ابراهيم العذري .

(٢) الترمذي عن أبي أمامة .

(٣) رواه الخطيب .

فيما بينهم

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا ، لما صبروا ،
وكانوا بآياتنا يوقنون » .

(السجدة / ٢٤)

من أخلاق العلماء فيما بينهم : يتداولون الكرامة ، ويتبادلون الاجلال .

□ أدب علماء الصحابة فيما بينهم ، نماذج للاقتداء :

١ ـ كان عبد الله بن مسعود ـ وهو الذي شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بأنه : غلام مُعَلَّم ـ كان يقول لو سلك الناس وادياً وشعباً ، وسلك عمر وادياً وشعباً ، لسلكت وادي عمر وشِعْبَهُ ، وقال : لو أن علم عمر وضع في كفة الميزان ، وَوضِعَ عِلْمُ أهل الأرض في كفة ، لَرَجَحَ عِلْمُ عمر .

فما أجمل تواضع العالم للعالم ، ابن مسعود وعمر مثال لخفض جناح التكبر ، ومد جناح التواضع .

٢ ـ كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن ، أي سيدنا علي كرم الله وجهه .

وما أجمل تواضع عمر رغم شهادة ابن مسعود بحقه . ألا ترى في شهادته بحق علي غاية الاكرام والاجلال ! إنها أخلاق القرآن متمثلة في سيدنا عمر رضي الله عنه ، انه الاخلاص الذي هو محاربة هوى النفس ، والتجرد عن حظ النفس ، للاقبال على الآخرة ، واحياء خشية الله في القلب ، وهذا الاخلاص

إذا صدق ، استلزم صواب العمل وطهارته ، وفي الحديث القدسي : « **الاخلاص سر من سري ، استودعته قلب من أحببت من عبادي** » .

قال معاذ بن جبل : لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قلت له : يا رسول الله : أوصني ، فقال : أخلص دينك يكفك القليل من العمل .

فاخلاص ابن مسعود أنطقه شهادته بحق عمر .

واخلاص عمر أنطقه شهادته بحق علي .

واخلاص العلماء اليوم : يجب أن يدفعهم على أن يقدموا أعلمهم وأكثرهم عملاً منطلقين من خُلقِ : الاخلاص .

٣ ـ قال أبو موسى الأشعري لمجلس كنت أجالس فيه عبد الله (يعني ابن مسعود) أوثق في نفسي من عمل سنة .

٤ ـ قال ابن حوشب : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه بهيبة له .

٥ ـ قال ابن عباس وهو قائم على قبر زيد بن ثابت : هكذا يذهب العلم .

٦ ـ كان عمر بن الخطاب يقول لابن عباس : قد طرأت علينا عضل أقضية ، أنت لها ولأمثالها .

ومن أخلاق العلماء فيما بينهم :

□ لما قدم العز بن عبد السلام إلى الديار المصرية ، بالغ الشيخ زكي الدين

المنذري (محدث مصر) ، في الأدب معه ، وامتنع عن الافتاء لأجله ، وقال : كنا نفتي قبل حضوره ، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا يتعين فيه[1].

□ سهل بن عبد الله التُّسْتري جاء لأبي داود المحدث ، فقيل له : يا أبا داود ، هذا سهل بن عبد الله قد أتاك زائراً ، فرحب به وأجلَّه ، فقال سهل : يا أبا داود لي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟

قال : حتى تقول قضيتها مع الامكان .

قال : قد قضيتها مع الامكان .

قال : أخرج لسانك الذي حدثت به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبله .

قال : فأخرج لسانه فقبَّله[2].

□ بلغ سفيان الثوري مَقْدَمَ الأوزاعي[3] (عالم أهل الشام) فخرج حتى لقيه بذي طُوى (موضع قرب مكة المكرمة) ، فحل سفيان رأس بعير الأوزاعي من القافلة ، ووضعه على رقبته ، فكان إذا مر بجماعة قال : الطريق للشيخ[4].

□ قال أبو زيد الانصاري ، وقد ذُكِر عنده شعبة الأزدي[5] محدث البصرة : وهل العلماء إلا شُعبة من شعبة .

---

(١) ص ١٢٧ ، ج : ١ ، حسن المحاضرة .

(٢) ابن خلكان ، ج١ ، ص : ٢٦٨ .

(٣) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الاوزاعي : (٨٨ - ١٥٧ هـ / ٧٠٧ - ٧٧٤ م) ، ولد في بعلبك وتوفي في بيروت ، قال صالح بن يحي في تاريخ بيروت : « كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام ، وكان أمره فيهم أعز من أمر السلطان . له كتاب « السنن » في الفقه ، و« المسائل » ، ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها . (الأعلام : ج ٤ ، ص ٩٤) .

(٤) ابن خلكان ، ج١ ، صفحة ٣٤٦ .

(٥) هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي ، « ٨٢ - ١٦٠ هـ / ٧٠١ - ٧٧٦ م » ، من أئمة الحديث =

□ تغيَّر خاطر السيوطي[1] على القسطلاني[2] وقال : إنه ينقل عن كتبه ولا ينسب إليها . فمشى القسطلاني من القاهرة إلى الروضة وكان السيوطي بها منعزلاً عن الناس ، فدق عليه الباب . قال : من أنت ؟ أجاب القسطلاني أنا القسطلاني جئت إليك حافياً مكشوف الرأس ليطيب خاطرك عليَّ قال السيوطي : قد طاب خاطري عليك .

وهذا الحادث يذكرنا بعدة أخلاق من أخلاق القرآن العظيم ومنها : العفو ، الرضى ، الحلم ، كظم الغيظ ... فما أسرع رجوع قلوبهم إلى صفائها ورضاها واطمئنانها بالله .

□ قال الشافعي : « الناس في الفقه ، عيال على أبي حنيفة » .

□ قال عبد الله بن سنان : « قدم ابن المبارك مكة وأنا بها ، فلما خرج شيَّعه سفيان بن عُيينة[3]، والفضيل بن عياض[4] وودعاه ، فقال أحدهما : هذا

= حفظاً ودراية وتثبتاً ، ولد ونشأ بواسط . وسكن البصرة إلى أن توفي . وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين ، وجانب الضعفاء والمتروكين .

قال الإمام أحمد : هو أمة وحده في هذا الشأن . وقال الشافعي : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق . وكان عالماً بالأدب والشعر ، قال الأصمعي : لم نر أحداً قط أعلم بالشعر من شعبة ، له كتاب (الغرائب) في الحديث . (الأعلام ، ج ٣ ، ص ٢٤١)

(١) هو عبد الرحمن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي جلال الدين : (٨٤٩ - ٩١١ هـ / ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م) ، إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو ٦٠٠ مصنف ، نشأ في القاهرة يتيماً ، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس ، وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل فألف أكثر كتبه . وفي (الأعلام ج ٤ ، ص ٧١ و ٧٢) ثبت ببعض أسماء كتبه التي أشهرها « الاتقان في علوم القرآن » والجامع الصغير .

(٢) هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني ، شهاب الدين : (٨٥١ - ٩٢٣ هـ / ١٤٤٨ - ١٥١٧ م) مولده ووفاته في القاهرة ، له : « ارشاد الساري شرح صحيح البخاري » مطبوع بعشرة أجزاء ، و « المواهب اللدنيَّة في المنح المحمدية » مطبوع ، و « لطائف الاشارات في علم القراءات » مخطوط ، و « الكنز » في التجويد والروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر » و « شرح البردة » ... (الأعلام ، ج ١ ، ص ٢٢١) .

(٣) سفيان بن عيينة (١٠٧ - ١٩٨ هـ / ٧٢٥ - ٨١٤ م) : محدث الحرم المكي ، ولد بالكوفة ، وسكن مكة وتوفي بها ، قال الشافعي : لولا مالك وسفيان « الثوري » لذهب علم الحجاز له : « الجامع » في الحديث ، وكتاب في « التفسير » . (الأعلام ، ج ٣ ، ص ١٥٩) .

(٤) الفضيل بن عياض ، سيأتي الحديث عنه بالتفصيل .

فقيه أهل المشرق ، فقال الآخر : وفقيه أهل المغرب[1] » .

□ كان أحمد بن حنبل من أصحاب الإمام الشافعي وخواصه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر ، وقال في حقه : « خرجتُ من بغداد وما خَلَّفْتُ بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » .

□ قال أحمد بن حنبل : ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي واستغفر له .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل قلت لأبي : أيَّ رجل كان الشافعي ! ؟ فإني سمعتك تكثر من الدعاء له .

فقال : يا بني ، كان الشافعي كالشمس للدنيا ، وكالعافية للبدن ، هل لهذين من خلف ، أو عندهما من عوض ؟ !

□ لما مرض أبو يوسف[2] صاحب أبي حنيفة مرضاً خيف عليه منه ، عاده أبو حنيفة ، فلما خرج من عنده وضع يديه على عتبة بابه وقال : « إن يمت هذا الفتى فانه أعلم من عليها ، وأومأ إلى الأرض » .

□ قال ابن كرامة ، كنا عند وكيع[3] « الفقيه » يوماً ، فقال رجل : « أخطأ أبو حنيفة ، فقال وكيع : كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطيء ومعه مثل أبي يوسف وَزُفَرْ في قياسها ، ومثل يحي بن أبي زائدة ، وحفص بن غياث

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ، ج ١ ، ص : ٢٥٦ .

(٢) تتلمذ على أبي حنيفة منذ طفولته ، ولما أرادت أمه منعه من الذهاب إلى حلقات أبي حنيفة ، ليعمل في صنعة يقتات منها . قال لها أبو حنيفة سيأتي يوم على ابنك يأكل أطايب الطعام بأطباق من الذهب . وقد كان عندما علت مكانته عند الرشيد .

وأبو يوسف هو : يعقوب بن ابراهيم بن حبيب ، أصله عربي من قبيلة الأوس ، ولد عام ١١٣ هـ .

(٣) هو وكيع بن الجراح (١٢٩ ـ ١٩٧ هـ / ٧٤٦ ـ ٨١٢ م) : حافظ للحديث ، ثبت ، كان محدث العراق في عصره ، ولد بالكوفة ، قال الإمام ابن حنبل : ما رأيت أحداً أوعى منه ولا أحفظ ، وكيع إمام المسلمين .

وحبان ومندل في حفظهم للحديث ،والقاسم بن معن في معرفته باللغة العربية ، وداود الطائي والفضيل بن عياض في زهدهما وورعهما ؟ من كان هؤلاء جلساؤه ، لم يكن يخطىء لأنه إن أخطأ ردوه » .

□ ومما يذكر في باب تلاقي العلماء بالاكرام ، أن العالم الشهير شيخ الشافعية : أحمد بن حجر الهيثمي المكي المتوفى سنة / ٩٧٣ هـ / ، ألف كتاباً خاصاً في مناقب أبي حنيفة سماه « الخيرات الحسان ، في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان » .

□ وقف الشافعي رضي الله عنه على قبر الليث بن سعد ، وهو إمام لم يدون أصحابه عنه ، فاندثر مذهبه ، على حين كان رافع منار مصر في عهده ، يقارع مالكاً في المدينة في علمه ، ويقابل أبا حنيفة في العراق بثرائه واستخدام غناه للعلم وأهله .

قال الشافعي أمام قبر الليث : لله درك يا إمام ، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم : العلم ، والعمل ، والزهد ، والورع .

□ روى الشعبي قال : ركب زيد بن ثابت فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ . فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا . فقال زيد : أرني يدك ، فأخذها وقبَّلها وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نَبِيِّنا » .

فما أجمل أن نرى علماء اليوم يتبادلون الاجلال والاكرام والاحترام .

يلتقون على ما اتفقوا عليه وهو ٩٩ ٪

ويعذر بعضهم بعضاً على ما اختلفوا عليه وهو ١ ٪

فلماذا تهويل الاختلاف ، ومباعدة الشُّقَّة ؟ !

لخدمة من هذا ؟

ولصالح من نتائجه ؟

يا سادة . . . دعوا الخلاف ، والتقوا على محبة الله ورسوله ، ومجال عملكم معروف واضح بالآية الشريفة :

﴿ وإذ أخذَ اللهُ ميثاقَ الذينَ أوتوا الكتاب ، لتبيننَّه للناس ولا تكتمونه[1] ﴾ .

واذكروا حديث رسول الله ﷺ : « **صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، واذا فسدا فسد الناس ، العلماء والأمراء[2]** » .

☆ ☆ ☆



(١) سورة آل عمران الآية الكريمة :١٨٧

(٢) أبو نُعيم في الحلية عن ابن عباس

ماعليهم

□ « احـذروا زَلّـة العـالِم ، وانتظروا فيأته »☆ .

رسول الله

□ « القرآن ضائع » من نفوس الخلق ، ومن المجتمع ككل ، فما أجمل أن يعمل العلماء على اعـادة تثبيتـه في النفوس ، انهم حراس القرآن ، فما أروع أن يكـون « الميزان » مقيـاس أعمـالهم وكـلامهم وحبهم وبغضهم ، يحبـون لحبـه ، ويبغضون ببغضه .

ومن يرى منهم أن الايمان الحق صلاح نفسه وبيته فقـط ، فليقم للتبليغ والارشـاد بـالحكمـة والمعروف . وليقم لتجويـد معـاني القرآن في قلـوب البشر ، وليجعل هدفه توحيد الأمة على مختلف طوائفهـا ومـذاهبهـا ؛ فـإن الشجرة إذا ازداد نموها ، واشتد التفافها ، وكثرت أوراقها ، وتشعبت اغصانها ، قل ثمرهـا ، وتضـاءلت غلتهـا ، فـالبستـاني الحـاذق يعمـد اليهـا فيبتر ويشـذب ، ويقلم ويهـذب ، ويبقي على أصولهـا ، فيتسرب الغـذاء الى هـذه الاصول وحـدهـا ، وبذلك يعود الى الشجرة طاقة إثمارها ، وايتـاء أُكُلهـا ، وهكـذا القرآن : يجب أن تنصرف همم العلمـاء وتتجـه عـزائم المصلحين الى فهمـه وحـده ، وفهم حيـاة النبي ﷺ العمليـة التي تفسره وحـده ، وإلى تنميـة شعـور المسلمين ، وتربيتهم على قداسته وحده ، وانما كان هـذا لأن تزاحم الأمم على الحيـاة في هـذا العصر استأثر بـالوقت ، فلم يبق منـه للثقـافـات الـدينيـة والـدراسـات الروحيـة إلا

☆ رواه البيهقي والحلواني عن ابن عدي .

القليل ، فيجب اغتنام القليل وتسخيره في خدمة القرآن ، فيخف الحمل وتسير السفينة باسم الله[1] .

هو مجدد ، يبدد غلو الغالين ، ويدحض ابطال المبطلين . لذلك من واجبه فهم عصره بدقة .

□ يدرك بالرفق ، ما لا يدرك بالعنف ، يتحبب الى الناس : « إن رأس العقل التحبب الى الناس[2] » .

□ إحياء القلوب : يقول رسول الله ﷺ : « لتغشين أمتي فتن يموت فيها قلب الرجل ، كما يموت بدنه[3] » . فمن سيحيي هذه القلوب سوى العالم العامل المزكى .

□ يتناصح بالعلم مع العلماء والمتعلمين : « تناصحوا في العلم ولا يخن بعضكم بعضاً ، فان خيانة في العلم ، اشد من خيانة في المال[4] » .

□ يتمثل حديث رسول الله معنى في الروح : « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ من لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا ييئسهم من روح الله ، ولا يؤمنهم مكر الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه الى ما سواه[5] » .

□ يحسب حساب السؤال عن فضل علمه يوم القيامة : « ان الله تعالى يسأل العبد عن فضل علمه ، كما يسأله عن فضل ماله[6] » .

---

(١) جمال الدين الافغاني سلسلة اقرأ ط ٢ ، ص : ٦٣ / ٦٤ .

(٢) رواه ابن عساكر عن أبي هريرة .

(٣) رواه نعيم بن حماد في الفتن عن ابن عمر « كتاب الفتح الكبير » .

(٤) عن ابن عباس

(٥) ابن لال في مكارم الأخلاق عن علي

(٦) الطبراني في الصغير

□ لا يُزهِّد الناس بالدنيا « نعمت المطية للمؤمن » ، بل يجعلها بين أيديهم ، والقلب مع الله ، يملك الدنيا ولا تملكه الدنيا «فعليها يبلغ الخير ، وبها ينجو من الشر[1] » .

□ يحيي السنة في كل مجالاتها : في الجهاد ، في محاربة الفقر والبطالة والكسل ، أما حمَّل النبي فأساً لمسلم فقير وقال له اذهب واحتطب ولا تسأل الناس (أليست هذه سنَّة ؟) .

□ يطبب القلوب المريضة ، ويسمو بالقلوب السليمة المستنيرة . لا يُكَفِّر ولا يشتم فهو الطبيب المداوي برفق وحنان .

□ هو مبتسم لطيف كي تتفتح مغاليق القلوب له ، فلا غلظة ولا قسوة ولا تجبُّر ولا تكبر ، فما أكثر أحاديث رسول الله ﷺ في المرح والمزاح سنورد بعضها في غير هذه الأسطر من هذا الكتاب . فلا غلظة ولا قسوة ولا تجبر ولا كبر .

□ يرى الناس ثمرات الاسلام ومبادئه في أعماله وسلوكه : طيبة خيرة ممكنة سهلة . . . فتُعشق ، فيصبح قبلة المسلمين .

□ لا يناظر حباً بالمناظرة ، يناظر أهل الزيغ ليدفع بحقه باطل من خالف الحق وخرج عن جماعة المسلمين ، فتكون غلبته لأهل الباطل والزيغ والتحريف ، بركة على المسلمين ، وعلى سلامة مسيرتهم .

□ اذا نشر الله ذكره عند المؤمنين ، واحتاج اليه الناس لما عنده من علم ، ألزم نفسه التواضع للعالم وغير العالم . فتواضعه لمن هو مثله في العلم محبة تنبت الألفة والقرب . وتواضعه لمن هو دونه في العلم تشريف له عند الله ،

---

(١) الديلمي عن ابن مسعود

عندها اذا غاب عن المؤمنين خفوا اليه ، وحنت اليه قلوبهم ، ونبتت محبته في نفوسهم .

ومن صفة العالم الكامل المثالي : أن يريد الله بعلمه ، لا يطلب به شرفاً ولا منزلة ، الفقير والغني عنده سواء ، وأساس تقويمه للناس (إيمانهم ومحبتهم لله) ، يرفق بمن أساء اليه لأنه لا يتخلق إلا بأخلاق القرآن الجميلة ، ويتجافى عن الاخلاق الدنيئة .

يذاكر العلماء مذاكرة رائده الحق لا الغلبة فيها . يحب ظهور الحق ، وظهوره على لسان أحدهما ، حباً يستوي فيه أن يكون ظهوره على لسانه أو لسان مذاكِره ، من غير ان يكون للشيطان فيما هما فيه نصيب ، مبعداً هوى النفس من أن يدخل بحجة طلب الحق فيقع في المراء ، قال ﷺ : « من ترك المراء وهو صادق بنى الله له بيتا في وسط الجنة[1] » . وقال : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل[2] » .

يأمن شَرَّه من خالطه ، ويأمل خيره من صاحبه ، لا يؤاخذ بالعثرات ، ولا يشيع الذنوب عن غيره ، ولا يقطع بالبلاغات ، ولا يفشى سر من عاداه ، ولا ينتصر منه بغير حق ، ويعفو ويصفح عنه ، ذليل للحق ، عزيز على الباطل ، كاظم للغيظ عمن آذاه ، شديد البغض لمن عصى مولاه ، يجيب السفيه بالصمت عنه ، والعالم بالقبول منه ، لا مداهن ، ولا مشاحن ، ولا مختال ، ولا حسود ، ولا حقود ، ولا سفيه ، ولا جاف ولا فظّ ، ولا غليظ ، ولا طعان ولا لعان ولا مغتاب ، ولا سباب ، يخالط من الاخوان من عاونه على طاعة ربه ، ونهاه عما يكره مولاه . يخالق بالجميل من لا يأمن شره ابقاء على دينه ،

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة ، والامام أحمد بن حنبل .

سليم القلب للعباد من الغل والحسد ، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين في كل ما أمكن فيه العذر ، لا يحب زوال النعم عن أحد من العباد ، يداوي جهل من عامله برفقه ، اذا تعجب من جهل غيره ذكر أن جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل . لا يتوقع له بائقة ، ولا يخاف منه غائلة ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في جهد[1] .

□ يرجع الى الحق والصواب دون خوف . أفتى الشيخ العز بن عبد السلام مرة بشيء ، ثم ظهر له أنه خطأ ، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه ، من أفتى له ابن عبد السلام بكذا ، فلا يعمل به فانه خطأ .

□ إن اختلف مع عالم آخر ، لا يعاديه ، ويجعل للصلح والتفاهم كل طريق .

الشافعي قال : أربع رضعات تزوج ولا حرج ، وخمس متفرقات يُحَرِّمْن الزواج . وقال : لا زكاة في الحلي المباح .

اما أبو حنيفة فقد قال : يحرم الزواج برضعة واحدة أو رضعتين ، أو مصة أو مصتين ، وتجب الزكاة في الحلي المباح اذا بلغ الحلي النصاب وهو مقدار عشرين مثقالا من الذهب ، وقُدِّر ذلك باثنتي عشرة ليرة ذهبية تقريباً .

وعلى الرغم من ذلك ما سفه الشافعي رأي أبي حنيفة الذي خالفه في رأيه ، بل إنه ما قنت في صلاة الصبح عند قبر أبي حنيفة ، ولما سئل لماذا لم تقنت ، اجاب قائلا : تأدباً مع صاحب هذا القبر ، الذي يرى بعدم القنوت في صلاة الصبح .

---

(١) ص : ١١ ، من أخلاق العلماء ، للشيخ محمد سليمان .

فما أروعه وأجمله من أدب بين العلماء ، ما أجدر علماء هذا العصر أن يقتدوا به .

□ ورع فوق ورع المؤمنين لأنه قدوة :

فقد ترك أبو حنيفة أكل لحم الغنم لما فقدت شاة في الكوفة الى أن علم موتها . فقد سأل عن أكثر ما تعيش ؟ فقيل له : سبع سنين ، فترك أكل لحم الشياه سبع سنين تورعاً منه لاحتمال أن تبقى تلك الشاة الحرام فيصادف أكل شيء منها فيظلم قلبه إذ هذا هو شأن أكل الحرام ، وإن انتفى الاثم للجهل بعين الحرام .

وكان يقول : « وما أرى ذلك على الناس واجباً ولكن العالِم يحتاج أن يأخذ لنفسه من عمله بأكثر مما يدعو الخلق اليه[1] » .

□ إذا سئل ولا يعلم ، قال لا أدري ، وهذا خلق نبوي ، لأنه كان ﷺ اذا سئل عن الشيء مما لم يتقدم فيه علم الوحي من الله عز وجل يقول لا أدري .

خرج عليّ رضي الله عنه يوماً وهو يمسح بطنه ويقول : يا بردها على الكبد ، سُئلت عما لا أعلم ، فقلت لا أعلم والله أعلم .

□ أما خلقه مع الله : فهو شاكر وله ذاكر ، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور ، فينعم القلب بمناجاة الرحمن ، يعد نفسه مع الله ـ مع شدة اجتهاده ـ خاطئاً مذنباً ، ومع الاستمرار على حسن العمل مقصراً ، يلجأ الى الله في كل شيء ، أُنسه بالله وحده ، ووحشته ممن يشغله عن ربه ، إن ازداد علماً خاف توكيد الحجة ، شفق على ما مضى من صالح عمله أن لا يقبل منه ، همه

---

(١) الخيرات الحسان ، ص ٤٤ .

في تلاوة كلام الله الفهم عن مولاه ، وفي سنن الرسول فقيه ، متأدب بالقرآن والسنة ، يمشي على الارض هوناً بالسكينة والوقار ، وقلبه مشتعل بالفهم والاعتبار ، إن فرغ قلبه عن ذكر الله فمصيبة عنده عظيمة ، وإن أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم ، فخسران عنده مبين . يذكر الله مع الذاكرين ، ويعتبر بلسان الغافلين ، عالم بداء نفسه ومتهم لها في كل حال . . .

﴿ إنَّ الذين أوتوا العِلْمَ من قَبْلِهِ إذا يُتْلى عَلَيهِم يَخِرُّون للأذْقَان سُجَّداً وَيَقولونَ سُبْحَانَ رَبِّنا إن كان وَعدُ رَبِّنا لَمفْعولا ، وَيَخِرُّون للأذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزيدُهُم خُشُوعا[1] ﴾ .

وقبل نهاية هذا البحث أقول :

لست أهلا للتحدث عن واجبات العلماء ، ولكنني اتماماً للبحث ، خضت في الموضوع معترفاً لهم بالفضل والارشاد .

واني لأعرف قدر نفسي . . . وشفيعي حسن القصد وخلوص النية ، والرغبة في خدمة القرآن وتعاليمه ، وسير مركب الدعوة بسلام وحكمة .

فالعلماء العاملون المصلحون المجددون هم أدرى مني بما قلت ولكن ﴿ وذَكِّر فإن الذكرى تنفعُ المؤمنين[2] ﴾ .

وأضيف دعوة الى رجوع حق الى القرآن « الميزان » الى الشريعة كحكم في كل خلاف بين العلماء اليوم ، وحديث رسول الله بَلْسَمٌ لنا ولكل المؤمنين منهج يطيب الرجوع اليه .

روى الترمذي عن الحارث الاعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،

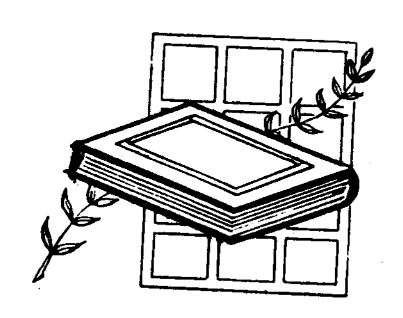
---

(١) سورة الإسراء ، الآية الكريمة : ١٠٧ / ١٠٨ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية الكريمة :٥٥ .

أنـه قــال ، سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : « ألا إنهــا ستكـون فتنــة ، فقلت : ماالمخرج منهـا يـارسول الله ؟ قـال : كتـاب الله ، فيـه نبـأ مـاقبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحكم مابينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبـار قصمـه الله ، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضلـه الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الـذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبـه هو الـذي مـاإن سمعته الجن حتى قالوا : إنـا سمعنـا قرآنـاً عجبـاً يهـدي إلى الرشـد ، ومن قـال بـه صدق ، ومن عمل بـه أجر ، ومن حكم بـه عـدل ، ومن دعـا إليـه دعـا إلى صراط مستقيم » . (التاج .. جـ ٤ ، ص ٦ / ٧) .





وأنت أيها المسلم !

« العالم سلطان الله في الأرض ، فمن وقع فيه فقد هلك »

« حديث شريف »

□ وأنت أيها المسلم ، لا بد أنك سمعت بالأحاديث التالية[1] أو بعضها ، قال ﷺ :

١ ـ « العلماء أمناء الله تعالى على خلقه[2] » .

٢ ـ « اتبعوا العلماء فإنهم سُرُجُ الدنيا ومصابيح الآخرة[3] » .

٣ ـ « وُزن حبرُ العلماء ، بدم الشهداء فرجح عليهم[4] » .

٤ ـ « إن الله تبارك وتعالى جعل العلم قبضات ، ثم بثها في البلاد ، فإذا سمعتم بعالم قد قبض من الارض فقد رفعت قبضة فلا يزال يقبض حتى لا يبقى شيء[5] » .

٥ ـ « مجالسة العلماء عبادة[6] » .

٦ ـ « خيار أمتي علماؤها ، وخيار علمائها رحماؤها[7] . . . » .

---

(١) وكلها أحاديث صحيحة من : « منتخب كنز العمال في سنن الأقوال » ، الجزء الرابع ، ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) رواه القضاعي وابن عساكر عن أنس ، المنتخب جـ : ٤ .

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس .

(٤) رواه الخطيب عن ابن عمر ، وفي حديث شريف : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، ودم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء » . رواه الشيرازي عن أنس ، المرهبي عن عمران بن حصين ، ابن عبد البر في العلم عن أبي الدرداء ، وابن الجوزي عن النعمان بن بشير .

(٥) رواه الديلمي في الفردوس .

(٦) رواه الديلمي عن ابن عباس .

(٧) أبو نعيم في الحلية ، والخطيب عن أبي هريرة .

٧ ـ « ما قبض الله تعالى عالماً من هـذه الامـة ، إلا كان ثغرة في الاسلام لا تسد ثلمته الى يوم القيامة[١] » .

٨ ـ « يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنـه تحريف الغـالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلية[٢] » .

٩ ـ « العلماء مصابيح في الأرض ، وخلفاء الأنبياء وورثة الأنبياء[٣] » .

١٠ ـ « إذا أبغض المسلمون علماءهم ، وأظهروا عمارة أسواقهم ، وتألبوا على جمع الدنيا ، ابتلاهم الله بأربع : الجور من السلطان ، والخيانة من ولاة الحكام ، والقحط من الزمان ، والصولة من العدو[٤] » .

☆ ☆☆

وورد :

١ ـ قال لقمان لابنه : يا بني ما بلغت من حكمتك ؟

قال : لا أتكلف مالا يعنيني .

قـال : يـا بني إنـه قـد بقي شيء آخر ، جـالس العلمـاء ، وزاحمهم بركبتيـك ، فـإن الله يحيي القلوب الميتـة بـالحكمـة كما يحيي الارض الميتـة بوابـل السماء .

وقال لقمان يعظ ابنـه : لا تجـادل العلمـاء فتهون عليهم ويرفضوك ، ولا

---

(١) المرهبي في العلم عن ابن عمر .

(٢) ابن عساكر في تاريخه عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري .

(٣) ابن عدي عن علي .

(٤) رواه الحاكم عن علي .

تجادل السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك في العلم ولمن هو دونك . فانما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم واقتبس من علمهم برفق . يابني : إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

٢ ـ قال ابن عباس : ذللت طالباً ، فعززت مطلوباً .

٣ ـ قال الحسن بن علي لابنه : يا بني اذا جالست العلماء ، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت ، ولا تقطع على أحد حديثاً وان طال حتى يُمسك .

٤ ـ وقال الشعبي : جالسوا العلماء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم ، وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم ، وان أخطأتم لم يعنفوكم ، وإن جهلتم علموكم ، وإن شهدوا لكم نفعوكم .

٥ ـ قال ابن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يُقبض ، وقبضه ذهاب أهله[1] .

☆ ☆ ☆

ـ عشرة أحاديث شريفة

ـ وخمسة أقوال مأثورة .

هل تمعنتها ؟

هل عرفت قدر العالم الحقيقي ، وقيمة ما يحمل من علم ؟ !

فكيف يجرؤ انسان فيه ذرة ايمان على تناولهم بسوء أو بخبر سوء ، أو

---

(١) كتاب « جامع بيان العلم وفضله » لابي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي الاندلسي . ط ٢ . (١٩٦٨) .

باشاعة ، أو كذب وافتراء ، هل تحققت من خبر يأتيك عن أحدهم قبل أن تشيع خبر السوء ؟ هل عرضت ما تسمع من المغرضين المندسين في صفوف المسلمين على (ميزان الشريعة) .

ألا تقرأ قوله عز وجل :

□ ﴿ ياأيها الذين آمنوا إن جاءَكُمْ فاسِقٌ بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين[1] ﴾ .

□ فكيف اذا كان الذي ستصيبه بجهالتك من صفوة الخلق ؟

□ هل راعيت (ميزان الشريعة) في أحاديثك بحق العلماء ؟

□ هل حاولت أن تضع أمام أذنك مصفاة لتميز الخبيث من الطيب من الاقوال التي تسمع بحق العلماء ؟

□ هل كلفت خاطرك بزيارة العالم موضوع الافتراء لتتبين ، كما أمرتنا الآية السابقة ؟

ارجع الى نفسك وفكر !

وإن جالست العلماء : جالسهم بأدب وتواضع ، واخفض صوتك في حديثك معهم ، فما كان يطلب من الصحابة لرسول الله ، يطلب منك للعالم ، فهو وريث رسول الله ، ما ورث درهماً ولا ديناراً ، انما ورث مقام الهداية والارشاد والعلم . فسل العلماء بأدب ، وصوت خافت :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوتِ النبي ، ولا تجهروا له بالقولِ كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين

---

(١) سورة الحجرات ، الآية الكريمة : ٦

يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحنَ الله قلوبَهُم للتقوى لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم ، إن الذين يُنادُونك من وراءِ الحجراتِ أكثرهم لا يعقلون[1] ﴾ .

هذه الآيات لنا نحن اليوم ، فالنبي ﷺ والصحابة مضوا الى ربهم ، والقصة كحادثة مضت وراحت ، ولكن الآيات باقية لك ولي ولكل مسلم .

أما علمت أيها المسلم أن أبا بكر عندما كان يحدث النبي فكأنه يُسِرُ له سراً من انخفاض صوته ، وكان عمر اذا تكلم مع النبي لا يسمع النبي كلامه حتى يستفهم ﷺ من عمر .

بل لقد حافظوا على غض الصوت مع الرسول بعد وفاته ، فكانوا ينكرون رفع الصوت عند قبره الشريف الطاهر ، فقد روي عن عمر أنه سمع رجلين يرفعان صوتيهما في مسجد الرسول ، فأقبل عليهما غاضباً يقول : أتدريان أين أنتما ! ؟ من أين أنتما ؟

فقال أحدهم : من أهل الطائف .

فقال عمر : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .

لذلك قال الفقهاء : إنه يكره رفع الصوت عند قبر النبي ، كما كان رفع الصوت مكروهاً عنده في حياته ﷺ .

واليوم وارث النبي الحق ، حكمه في ذلك حكم النبي تماماً ، في التقدير والاحترام .

أيها المسلم ... ان انتفعت من علمهم ـ وهذا واقع ـ فأشكرهم على ذلك

---

(١) سورة الحجرات ، الآيات : ٢ ، ٣ ، ٤ .

عملياً . فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله . وإن غضبوا عليك ، انظر السبب ، فلا يغضبون إلا لله ، راجع نفسك واعتذر اليهم ، تلطف ووقِّر ... طاعة لأمر الله :

□ ﴿ ذلكَ ومَنْ يُعظِّمْ شعائِرَ اللهِ فإنها من تَقْوى القلوب ﴾[1] .

تريد أن يكون العالم على هواك ! لمن القيادة كما نصت الأحاديث ، له أم لك ؟ ! ينبغي أن تكون أنت على هواه ، لأن هواه هوى الشريعة والميزان ، وهواك ... مع شهواتك ودنياك .

ثم إنك تهتم بخياط ثيابك ، وصانع أحذيتك ، ومهندس دارك ، وحلاق شعرك ... فهل عندك اهتمام بمن يهندس ايمانك ، ويطبب قلبك ، ويزين روحك ؟ . فاحذر أن يكون ايمانك خراباً ، وجسدك عامراً ، ومظهرك عامراً ، وباطنك خاوياً ! !

هل علمت أيها المسلم أن مخططات الاستعمار لهدم الاسلام : أضعاف سلطان الاسلام في نفوس المسلمين بالسخرية من علماء الدين ، وتصويرهم بصورة الجهلاء الجامدين تارة ، والمنافقين المستغلين لنفوذهم ووظائفهم تارة أخرى ، وبث الشائعات حولهم ؟ !

قد تجد بينهم من يخطئ ويسيء ، وأي فئة في العالم ليس فيها مندس متطفل ، وما أسهل التمييز بين العالم الحقيقي والدَّعي : « فمن ثمارهم تعرفونهم » . واعلم أن :

نقائص العظماء ، هي عزاء التافهين .

---

(١) سورة الحج ، الآية الكريمة : ٣٢ .

□ **أيُّها المسلم :**

ليس الـــورع في الجبهـــة حتى تقطب ، ولا في الخـــد حتى يُصَعَّرَ ، ولا في الظهر حتى ينحني ، ولا في الرقبـــة حتى تطـــأطئ ، ولا في التمتمـــات وكثرة الركعـات ، إنما الورع في القلـوب ، وبتعظيم شعـائر الله ، وبشيـخ عـالم مرب يغرس في نفسك الفضائل والمكرمـات ويـدفعـك الى العمل في الـدنيـا والسعي بصدق الى الآخرة .

ذهب الخشوع من نفوس المسلمين ، شيء طبيعي ، فأين المربون ؟

قـال حـــذيفـــة بن اليمان : أول مـــا تفقـــدون من دينكم الخشـوع ، وآخر ما تفقـدون من دينكم الصلاة ، ورُب مصل لا خير فيـه ، ويوشـك أن تـدخل مسجد الجماعة ، فلا ترى فيهم خاشعاً .

والسر واضـح في ذلـك : إن الخشـوع أمر قلبي لا يراه النـاس ، فمـا أسرع التضييـع لأمر لا يراه النـاس ، أمـا شكل العبـادة الظـاهري من حركات فقـد يأتيها انسان بحكم العادة أو الرياء بلا خشوع واطمئنان .

ومن أخطاء المسلمين اليوم :

□ عدم انتفاعهم بالعالِم ، فان مات ، يُعظَّم وَيُبَجَّل ... أما في حيـاتـه ؟ فواقع المسلمين اليوم يجيب عن هذا السؤال .

هل أدَّب المسلم ابنه على حب العالم وتقديره وغرس في نفسـه حبـه لينتفع منه ؟

يفكر المسلم بلباس ابنه ، بطعام ابنه ، بمصروف ابنه ، بزواج ابنه ... أمـا دين ابنه من يعلمه إياه ، من ينشئه تنشئة صالحة ؟ من يربيـه على الايمـان ؟ من ينمي فيه معاني القرآن وخشية الله ؟ لا أحد ... السبب :

رخص قيمة الدين في نفوس غالب المسلمين ! ! مع كل أسف . لقد أصابت المسلمين السكرتان : « سكرة الجهل وسكرة حب الدنيا » .

ومن يتذكر عالماً ويذهب إليه ، قد يُسأل العالم فيجيب هو ، يجلس بلا أدب ، بينما كان الصحابة في حضرة رسول الله : كأن على رؤوسهم الطير ، وأنت الآن بين يدي الوارث المحمدي ، فهو يرث كل ما كان من تبجيل واحترام كان للنبي ﷺ .

- تذهب إلى الخياط، وتراه يمسك المقص ويقطع قطعة « قماشك » لاتتدخل ولاتعترض .

- تذهب الى الحلاق ، يمسك رأسك ويضغطه الى تحت دون اعتراض .

- تذهب الى الطبيب ، يدخل في جسمك الابرة وتتألم ، ويعطيك دواء مُراً لا اعتراض ، بل مع جزيل الشكر والامتنان والمكافأة المادية .

أما عند العالم بدين الله ، فأنت أمامه : (عالم ونصف) ، بل أنت المرشد والموجه .

لا أقول دع عقلك وأقبل ، لا ...

بل اجعل (ميزان الشريعة) مقياسك في كل قول لك أو عمل مع السادة العلماء .

- اللهم سكينتك أنزلها على قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم ...

- لئن عاب الله على بني اسرائيل « قتلهم الأنبياء بغير حق » ، فيعاب على المسلمين اليوم قتلهم علماءهم بغير حق ، قتلوهم جوعاً وفقراً ونقداً وبعداً ومجافاة واشاعات ومعاداة وغيبة وافتراءاً ودساً ...

ـ آيات القرآن : مواد لبناء الايمان والأخلاق

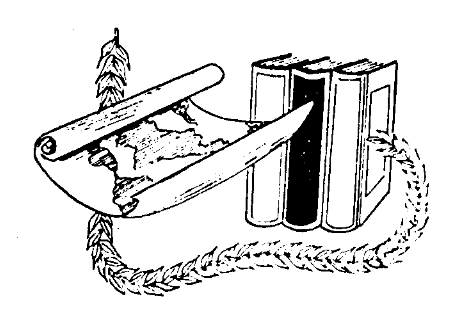
ومكان العمل المسجد .

والبناء هو الشيخ العالِم .

هجر المسلمون المسجد والعالم ، وظنوا أنهم يستطيعون البناء !

فانظر ـ لاانتظر ـ بل انظر النتيجة : « ضياع القرآن من القلوب » .

* * *



ثمرة القرآن الأولى

« أدبني ربي فأحسن تأديبي »

(رسول الله)

□ كانت الثمرة الأولى والمثلى لتعاليم القرآن الكريم ، شخصيَّة رسول الله ﷺ ، ويكفينا أن الله عز وجل ، تولى تأديبه ، فأية أخلاق هذه التي ستتمثل بانسان تولى الله تربيته وتأديبه ؟ ! إنه حتماً بشر بأخلاق وسلوك الملائكة . ورضي الله عن أم المؤمنين السيدة عائشة التي أجابت عندما سئلت عن خُلق رسول الله : بأنه « كان خُلقه القرآن ، يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه » .

□ ﷺ ، فهو الأسوة الحسنة لنا جميعاً ، في كل شأن . حيث يمكن لكل انسان كائناً من كان ، وعلى أية حال ، وفي أية سن أن يقتدي به ، وأن يجد في حياته ما يتخذه مثلا أعلى له .

« وأياً ما كنت ، وفي أي شأن كان شأنك ، فانك مهما أصبحت أو أمسيت ، وعلى أية حال بت أو أضحيت ، فلك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة ، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي بضوئها ظلام العيش . إن سيرته هي أكمل ما عرفت الانسانية من سيرة انسان رسول ، فلا عجب أن تطلب السماءُ الى الناس جميعاً أن يتخذوه قدوة صالحة ، وأسوة حسنة ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**[1] ﴾ .

---

(١) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، لمحمد الراوي ، طبعة : دار العربية .

لم لا وهو في مرتبة الكمال البشري ، فما أمر بشيء إلا كان أسبق اليه ، وما نهى عن شيء إلا كان أبعد الناس عنه ، تراه في كل شيء بسمته النيرة ، وحقيقته الكاملة من لحظة ولادته الى أن لقي ربه ، في داخل بيته وخارجه ، صفحة مشرقة ، ليس فيها ما يطوى أو ينكر ، لأنها بيضاء ناصعة ، نقية طاهرة ، حنيفيَّة سمحة .

فهو قدوة العلماء بخاصة في خصال معينة يمكن أن نذكر المهم منها :

أ ـ صقل محمد بن عبد الله ﷺ روحه ، **وذلك في اعتكافه في غار حراء .** فهو لو لم يجد بين صخور حراء سعادة نفسية ، وهناءة روحية ، وقربة الى الله ، لما ترك الناس والزوجة والولد ، واعتكف هناك . تهجده الطويل ... حياة لروحه وقلبه بل طرب بالله وقرب منه . لذلك ما اتخذ خليلاً ، ولو اتخذ لاتخذ أبا بكر خليلاً ، ولكنه قال « ولكن خليل صاحبكم الله » .

فهو إذن شديد الشعور بالله ، شديد اللجوء اليه ، شديد الخشية منه ، لذلك لما لاقاه أهل الطائف بما لاقوه من إعراض ، واغراء السفهاء به ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجؤوه الى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه السفهاء ، عمد الى ظل شجرة من عنب ، فلما اطمأن لجأ الى الله وحده فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربي ، الى من تكِلُني : الى بعيدٍ يتجهمني[1] أم إلى عدوٍّ ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي

(١) ـ يتجهمني : يلقاني بالغلظة والوجه الكريه .

غضبـك ، أو يحل عليَّ سخطـك ، لـك العُتبى[1] حتى ترضى ، ولا حول ولاقـوة إلا بك ![2] »

إنه شديد الشعور بالله ، فهذا الدعاء لا يصدر إلا عن إنسان كيـانـه كلـه يحس ويشعر بـالله ، لـذلـك عنـدمـا يقسم كان يقـول « والـذي نفس محمـد بيده ... » .

كان يرى لقاء الله ، أقرب اليه من اللقمة التي يرفعهـا بيـده الشريفـة الى فمه ، أو من طرفة عين وارتدادها ..

□ **شديد الشعور بالله** ، صفة يجب أن يتحلى بها كل مؤمن ، فضلا عن العالم الداعي الى الله ، وعلى قدر التأثر بالله يكون الانتاج والخير في الدعوة .

لقد كانت لرسول الله ساعة مع الله لا يرقى اليها مَلَـك مقرب ، ولا رسول مرسـل ، فهـو في حضرتـه في كل لحظـة ، وهـذا مـا يفسر لنـا خشيتـه من الله عنـدمـا أراد ضرب خـادمـة صغيرة بسواك صغير . لم يضربهـا خشيـة من الله . وخشيته وشعوره بالله هي التي جعلته يكشف عن بطنه الشريف « لسواد » كي يقتص منه عنـدمـا ادعى أنـه تـألم من قضيب كان بيـد رسول الله ، يسوي بـه الصفوف قبيل معركة بدر .

ان الصفة الأولى والهامة جدا ، بل الأسـاس لكل داعيـة الى الله ، المقتـدي برسول الله حقاً وصدقاً ، شدة توجهه الى الله في كل حال .

٢ ـ جهـاد النبي ﷺ في الـدعـوة ، وحكمتـه في ذلـك . « الحكمـة الحكمـة يا سادة » وأهم مظاهرها : عدم تعريض الصحابـة للقتل في معـارك لايستفيـد

---

(١) ـ العتبى : الرجوع عن الاساءة إلى مايرضي العاتب .

(٢) ـ تهذيب سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، ص ١٣١ .

منهـا الاسـلام . صبر في مكـة وكان يقـول : « أنتم قليـل يـا عمر » . وفي بـدر مـا خرج لحرب ، إنما خرج للقـافلـة ، وفي أُحـد مـا أراد الخروج ، وفي غـزوة الأحزاب ، دافع من وراء الخنـدق .. فتح مكـة بعـد صلح الحـديبيـة ... كلهـا دروس للـداعي أن لا يعرض أصحـابـه للهـلاك ، إلا في مجـابهـة عـدو مستعمر خارجي ، ففي هذه الحال يفرض الجهاد على كل مستطيع لحقن دماء الأبريـاء من المسلمين « أطفالاً وشيوخاً ونساء » .

ونستنتج من ذلك ، أنه يجب دعوة الناس بـالحكمة ، والموعظـة الحسنـة ، والتحبب والتـآلف ، والصبر ، وبكل ايجـابيـة ، فقـد أضرت بـالمسلمين السلبيـة ونتائجها .

٣ً ـ جهاد النبي ، أمام العدو المستعمر ، جهاد قوة ، وليس جهـاد ضعف ، ليس في حياته اتكالية وزهد وتقوقع ، بل جهاد ، وعمل ، وانتاج .

قـال علي كرم الله وجهـه : « إنـا كنـا اذا حمي البـأس واشتـد واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه » .

وقـال ابن عمر : « مـارأيت أشجـع ولا أنجـد ، ولا أرضى من رسـول الله ﷺ » .

فما أجمل الاقتداء بهذه الصفة ، صفـة جهـاد العـدو الصهيوني أو المستعمر ، لنظهر للنـاس أن الـدين ، دين عـزة وقـوة وجهـاد ، جهـاد كلمـة طيبـة في الداخل ، وجهاد طائرة ومدرعات مع العدو المغتصب ، لنعطي الدين ، بلسان العمل والواقع ، صفته الايجابية في أمور الحياة المعاصرة .

٤ً ـ يـدعـو النبي الى المـؤمن القـوي ، ويكره الجهـل والمكـوث في الجبـال والصـوامـع ، فكان ﷺ : يصـوم ويفطر ، ويقـوم الليـل وينـام ، ويتزوج

النساء ، ومن رغب عن سنته ، فليس منه ، إنه يريد المؤمن قوياً ، رجل واقع وميدان ، رجل حياته نابضة بالعمل المنتج لصالحه وصالح المجتمع .

٥ً ـ وظيفة العالم اليوم دعوة أتباعه الى نبذ الكسل والجبن والبخل والفقر ... فدعاء النبي واستعاذته من الجبن والكسل والعجز والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال ... معنى ذلك أنه ﷺ لا يحب الجبان ، ولا الكسول ولا العاجز ، ولا الضعيف ... انه يحب الشخصيات القوية العاملة الغنية لا غنى البخل والشح والتكديس .. بل غنى الانفاق ، وغنى الخير للآخرين .

□ أما « نَجَّر » النبي الكريم بيده الشريفة يد فأس لمسلم كي يحتطب ولا يسأل الناس ؟ ! فهل فكر عالِمٌ يوماً أن يهتم بأمور المسلمين الدنيوية ، ويسعى لغناهم ، لأن في الغنى قوة ؟ !

□ عندما قال ﷺ : « كاد الفقر أن يكون كفراً »[1] فهو يحارب الفقر ، ويكره أن يكون المؤمن فقيراً ، فالفقر ذل وهدر كرامة ، وضعف واستجداء .. والايمان عزة وقوة وكرامة ، فكيف يجتمعان ! ؟

لذلك قال المربي الأول ، رضي الله لنا أن يكون أسوة لنا : « لأن يأخذ أحدكم حبلة فيأتي بحزمة من حطب فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه[2] » . وقال : ﴿ اليد العليا خير من اليد السفلى[3] » .

٦ً ـ لقد ارتضى المسلمون النبي ﷺ حاكماً لهم ، على أمور دينهم ودنياهم ، باعتباره المسلم الأول ، والمربي الأول ، وكذلك ارتضوا أبا بكر وعمر وعثمان

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية .

(٢) رواه البخاري ، رياض الصالحين جـ ١ ، ص ٢٤٤ .

(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي .

وعليا ، إلى أن جاء معاوية وغير هذه الخطـة ، وجعلهـا وراثيـة ، وإن الله عز وجل يقول : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقـاكم ﴾ ، وأكرم النـاس عنـد الله ، يجب أن يكون أكرمهم عند الناس .

العالم الوارث المحمدي ، هو الحاكم ـ على الأقل ـ على أرواح وايمـان وقلوب المسلمين ، يهتم بتربيتهـا وتنميتهـا ، ويسعى للسمو بهـا وسلامتهـا ، مع الحلم على أصحابـه ، كما حلم النبي على أصحـابـه ، حتى المنـافق منهم . أمـا حلم كثيراً على عبد الله بن أُبي بن سلول في أحد وغيرها ، أما قال للنبي : « أطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ! » .

فالحلم على الأتباع من أخلاق رسول الله ﷺ ، والحلم : وقار وثبات عنـد الأسباب المحركة للغضب ، أو البـاعثـة على التعجل في العقوبـة ، الحلم : حبس النفس حتى تخضع لسلطـان العقـل وتطمئن لمـا يـأمرهـا بـه . الحلم : ضبـط النفس .

٧ً ـ الرسـول ﷺ مربٍ للنفـوس ، مـزك لهـا ، بقـولـه وعملـه ، في كل أحواله ، دون أن تؤثر عليه روعة الانتصار ، بعـد أن ملـك الأمـة ، وقـد كان مطلوباً مهاجراً ملاحقاً .

إنه معلم مزك ، لم يتخل عن هذه الوظيفة طرفة عين ، ولم يـدع التوجيـه حتى آخر لحظة من لحظات حياته فكان يقول : الصلاة ... الصلاة ...

ولهذا فإن ، تربية النفوس ، صفة وخُلقٌ وسجيـة في حيـاة الوارث لرسول الله ﷺ .

٨ً ـ وكان النبي زاهداً واجداً ، زاهداً بغير الموجود ، وإن وجـد تنعم بـه . ولم ينفر أصحابه من الدنيا والاستمتاع بها .

روى الحاكم عن أنس ، قال ﷺ : « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا من ترك آخرته لدنياه ، ولكن يصيب منهما جميعا ، ولا يكون كَلّاً على الناس[1] » .

وفي حديث الديلمي عن ابن مسعود ، قال عليه أفضل صلاة وسلام : « لاتسبوا الدنيا فنعمت المطية للمؤمن ، عليها يبلغ الخير ، وبها ينجو من الشر » .

فمن ينفر المسلمين من الدنيا ، ويزهدهم بها ، لتضيع من أيديهم ، ويقوى بها أعداؤهم ، أولئك رغبوا عن الإسلام الحق ، وعن سنة رسول الله ، بل عن « ميزان الشريعة » ككل .

٩ ـ كان ﷺ ، يمازح أصحابه ، ويخالطهم ، ويحادثهم ، ويداعب أولادهم ويجلسهم في حجره ، ويجيب دعوة العبد والحر والأَمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر .

قال أنس : خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي أُف قط ، وما سبني من سبة ، ولا ضربني ضربة ، ولا انتهرني ، ولا عبس في وجهي ، ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاقبني عليه :

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَولِكَ ﴾[2] .

فما أقرب اللطف الى النفس ، وما أروع فعل الابتسامة في القلب ، وما أجمل المداعبة اللطيفة المتزنة على الروح .

---

(١) رواه الحاكم عن أنس .

(٢) سورة آل عمران . الآية الكريمة : ١٥٩ .

رسول الله قدوة ، فلندع الغلظة والتعالي والتكبر ، ولتكن الابتسامة والمحبة الصادقة الصورة الظاهرة ، لتجذب الناس الى الداعي .

□ عن جابر بن عبد الله ، قال دخلت على رسول الله ﷺ ، والحسن والحسين على ظهره راكبين ، فقال جابر : نعم الجمل جملكما . فقال ﷺ : ونعم الراكبان هُمَا .

ما أروع هذه النفس الكريمة الحرة وهي تلاطف وتداعب ، ويستمع الى الملاطفة ويتقبل المزاح في سماحة ، وطهر وحسن مودة ، وحب عميق . مع أنه ﷺ ، كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، فما أطيبك وما أكرمك يارسول الله .

□ جاءت إليه ﷺ امرأة يقال لها أم أيمن ، فقالت يا رسول الله إن زوجي يدعوك ، قال : أهو الذي بعينه بياض ؟ قالت : والله ما بعينه بياض ، فقال ﷺ : إن بعينه بياضاً . فقالت : لا والله ، قال ﷺ : ما من أحد إلا وبعينه بياض .

□ زهير بن حرام : رجل من أهل البادية ، كان يهادي النبي ﷺ بموجود البادية وما يستطرف منها ، وكان ﷺ يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وما يستطرف منها . وكان ﷺ يقول : زهير باديتنا ، ونحن حاضرته . وكان ﷺ يحبه ، فأتاه النبي وهو يبيع في السوق متاعاً له ، فاحتضنه من خلفه من حيث لا يبصره ، فقال : أرسلني ، من هذا ؟ فالتفت فعرف أنه النبي ﷺ ، فجعل يمسح ظهره في صدر النبي ﷺ ، وجعل الرسول يقول : من يشتري العبد ، فقال زهير : يا رسول الله إذن تجدني كاسداً ، فقال ﷺ : أنت عند الله غال[١].

---

(١) حديث رواه أنس ، وروايته باسم (زاهر) وليست (بزهير) والحديث أخرجه أحمد والترمذي في الشمائل ، وهو في كتاب الاصابة ...

فما أجمل ملاطفة النبي لأصحابه . وهو قدوة لنا بذلك !!!

□ وكان نُعَيْمان بن عمرو بن رفاعة الانصاري لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها . ثم جاء إلى النبي ﷺ فيقول : هذا أهديه لك ، فإذا جاء صاحبه يطلب ثمنه ، أحضره إلى النبي ﷺ فيقول : أعط هذا ثمن متاعه . فيقول : أولم تهده لي ، فيقول : إنه والله لم يكن عندي ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكل ، فيضحك ، ويأمر ﷺ لصاحبه بثمنه .

□ خرج أبو بكر تاجراً إلى بصرى ، ومعه نعيمان بن عمرو الأنصاري ، وسويط بن حرملة ، وقد كانا من الذين شهدوا بدراً ، وكان سويط على زاد أبي بكر ، فجاءه نعيمان ، وقال له : أطعمني ، فقال : لا حتى يأتي أبو بكر ، وكان نعيمان رجلاً مضحاكاً مزاحاً فيه دعابة ، فقال لسويط لأغيظنك ، فذهب إلى ناس مروا بهم ، فقال لهم نعيمان : تشترون مني عبداً لي ؟ قالوا : نعم ، قال : إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعبده ، أنا رجل حر ، فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا علي عبدي . قالوا : لا .. بل نشتريه ولا ننظر في قوله ، فاشتروه منه بعشر قلائص ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا ، فجاء القوم به وقالوا : قد اشتريناك . فقال : هو كاذب ، أنا رجل حر ، فوضعوا عمامته في عنقه ، فقال لهم : إنه يتهزّأ ، ولست بعبده . فقالوا له : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في عنقه ، وذهبوا به ، ولم يسمعوا كلامه . فجاء أبو بكر رضي الله عنه فأخبره خبره ، فذهب هو وأصحابه ، واتبعوا القوم ، وأخبروهم أنه يمزح ، وردوا عليهم القلائص ، وردُّوا سويطاً منهم . فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فضحك رسول الله ﷺ من ذلك حولاً كاملاً .

□ جاء أعرابي الى رسول الله ﷺ ، فدخل المسجد ، وأناخ راحلته

بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : لو نحرتها فأكلناها فإنا قد قرمنا[1] الى اللحم . ويؤدي رسول الله ﷺ حقها . فنحرها نعيمان . فخرج الأعرابي ، فرأى راحلته ، فصاح : واعقراه يامحمد !

فخرج النبي ﷺ فقال : من فعل ؟ قالوا : نعيمان ، فاتبعه النبي ﷺ يسأل عنه ، فوجده في دار ضباعة بن الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد . فأشار إليه رجل ، ورفع صوته : ما رأيته يارسول الله ، وأشار بأصبعه حيث هو . فأخرجه رسول الله ﷺ ، وقد تعفّر وجهه بالتراب فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلوك عليّ يارسول الله هم الذين أمروني . فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك ، ثم غرم ـ دفع ـ رسول الله ﷺ ثمنها .

□□ هذه جوانب من حياة رسول الله ، عرضناها لنقتدي بها . ولو أردنا أن نوفي الموضوع حَقَّه لعرضنا سيرته الشريفة الطاهرة كلها ، فهو مثال الكمال الخلقي ، والبر الإنساني ، إنه الرحمة المهداة للعالمين ، فلا يجد المتقدم نحو ساحة سيرته إلا البر في أكمل صوره ، والاحسان في أجل معانيه ، والعفو عن مسيئيه ، فضلا عن محبيه .

قال علي رضي الله عنه : « كان ﷺ كريماً جواداً وفياضاً سخياً ، صادق القول ، لين العريكة ، من جالسه أحبَّه ، ومن رآه بديهة هابه » .

□ فإلى الاقتداء بالمربي الأول . وعلى قدر المحبة يأتي التطبيق والاقتداء

---

(١) القَرَم : البعير المقرم لايحمل عليه ولا يُذلل ، ومنه قيل للسيد قَرْم ومُقْرَم تشبيهاً به ، والقَرَم « بفتحتين » شدة شهوة اللحم ، وقد « قرِم » إلى اللحم ، من باب طَرِب . « مختار الصحاح ، ص : ٤٥٧ » .
والحديث من طريق ربيعة بن عثمان ، راجع الاصابة ص : ٥٤٠ ، جـ ٣ .

والتخلق بأخلاقه ، وعلى قدر الفهم يكون النجاح . والتطبيق الأمثل ، عندما يقتدي العالِم بجميع جوانب شخصيته ﷺ ، فلا يغلب فيه حال على حال .

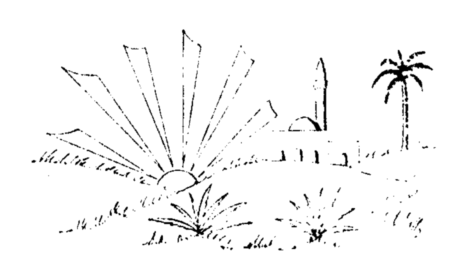
لا يغلب جانب الروح على جانب الجسد ،

ولا جانب الجسد على جانب الروح .

وبذلك تتحقق الوراثة النبويّة الكاملة .

وعلى ذلك كان الصّديق رضي الله عنه مع رسوخ إيمانه أكثر من غيره ، وعلى ذلك كان عمر رضي الله عنه مع اجتهاده وتشريعاته الرائعة ، وعلى ذلك كان عثمان رضي الله عنه مع غناه وانفاقه في سبيل الدعوة والاسلام ، وعلى ذلك كان علي رضي الله عنه مع شجاعته وفروسيته وقوته ، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم .

☆ ☆ ☆



أمراء حَفِظوا القرآن

قال ﷺ : « صنفانِ من أُمّتي إذا صَلُحا صلحت الأمة : العلماء والامراء » .

« أبو نُعَيْم في الحلية »

□ لن نسرد هنا تاريخاً ، إنما هي لمع من سيرة أُمراء فهموا عناصر الميزان فهماً سليماً . سنعرض جوانب من حياتهم ، فالحديث عن الجوانب كلها يطول بنا . ولن نكتب ترجمة لهؤلاء ، فلسنا في صدد كتابة تراجم رجال أمراء .

إنما هي صور صادقة من الفهم السليم للإسلام ، لم نُجمِلْها لنخرجها صورة جميلة كما نريدها أن تكون ، بل هي صور هكذا كانت على حقيقتها في نفوس أصحابها وأعمالهم ، فرفعتهم لروعتها وجلالها إلى مكانٍ عَليٍّ .

كما أننا لن نعرض جوانب حياة هؤلاء الأمراء ، الذين انتقينا ، قبل توليهم الإمارة إلا بمقدار يسير ، قد نحتاجه لفهم نواحٍ من شخصيَّةِ من نحن في صدده .

ولسنا نزعم أن الذين سنتطرق إليهم ، هم كل الامراء القادة ، الذين فهموا الإسلام فهماً سليماً ، على مَرِّ تاريخ هذه الأمة ، فهناك غيرهم كثير ... ولكنها أمثلة نعرضها .

أبو بكر الصّدِّيق

تمت له البيعة بخلافة رسول الله ﷺ ، فقام ليعلن منهجه في الحكم كما فهمه من الكتاب والسُّنَّة ، فقال : « أيها الناس قد وُليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه ، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى ، لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله »[1].

هذه خطة اتبعها الصّدِيقُ في سياسته لشعبه ، وهي وجهة ولّى وجهه شطرها في حكم شعبه ، إنها سياسة لا إبهام فيها ، وقد حقق ذلك في مدة خلافته ، وزاد على ذلك عدلاً ورحمة . لقد جعل لباسه العدل ، وشعاره التقوى ، وهدفه الإخلاص ورقي أُمته ، وحب الخير لها غير ناظر لمنفعة شخصية : « أطيعوني ماأطعت الله ورسوله » .

كانت الخلافة ، وكانت أمامه رضي الله عنه ثلاثة أمور خطيرة : بعثه لجيش أسامة بن زيد ، وحروب الردة ، وبعوث العراق والشام ، فقام على هذه الأمور الثلاثة ، كل ماقام بعد ذلك من بناء الدولة الإسلامية .

شيع جيشَ أسامة ، فأوصاه وصيةً ، هي بلاغ الدين القويم على لسانِ الصدّيق ، إنها وصية أمير مسلم ينطق بالعدلِ والحقِّ لسانُهُ ، فهو مسلم مع من يحب ، ومع من لا يحب ولو في القتال ، فقال لجيش أسامة : « ياأيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تُغِلُّوا ، ولا تغدروا ولا

(١) الكامل ، جـ : ٢ ، ص : ٢٢٤ / ٢٢٥ .

تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله »[1] .

وبعث أسامة ، كان فهماً رائعاً من الصدّيق ، لأحوال السياسة المحيطة به ، وكان طاعة لأمر رسول الله . فشيع الجيش ماشياً على قدميه : « وما عليَّ أن أُغبر قدمي في سبيل الله ؟! » . ثم استأذن أسامة قائلا : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل . فعاد عمر بإذنٍ من أسامة ، بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة في هذا الموقف ، حتى على الخليفة وعلى أكبر الصحابة من بعده .

ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله ﷺ ، ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله .

وأدرك الناس في عصر أبي بكر صواب رأيه في انفاذ جيش أسامة ، فما مَرَّ أسامة وجند الله معه ، بقبيلة تريد الارتداد ، إلا تخوَّفت وسكنت وقال قائلوها فيما بينهم : لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء .

وجيش يرسله أبو بكر إلى تخوم الروم ، تلك الدولة التي لها في النفوس رهبة وهول ، ثم يعود بالغنائم غير منقوص ، أرهب القبائل الهائمة في صحراء العرب . إن أبا بكر بهذا العمل ، دَلَّلَ على قوة الدولة ، وأوهن عزيمة

---

(١) الكامل ، جـ : ٢ ، ص : ٢٢٧ ، والطبري : جـ : ٣ ، ص : ٢٢٦ .

القبائل ، لقد فعل هذا الجيش بسمعته ، مالم يفعله بعدده وعدته ، فأحجم من المرتدين من أقدم ، وتفرق من اجتمع .

وفهمه الرائع للميزان ، كان في حروب الردة أيضاً ، عندما قال : « والله لأُقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً ـ الأنثى من أولاد المعز ـ لقاتلتهم على منعها » .

فحق المال فرض كالصلاة ، فما وردت كلمة : « أقيموا الصلاة » إلا ورد بعدها : « وآتوا الزكاة » . وقال عز وجل : ﴿ وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ... ﴾ .

حق الفقير ليس تكرماً واحساناً لمن يشاء من الأغنياء ، ليس مِنَّةً وتفضلاً لمن يرغب ... لا ، إنه : « حق معلوم » ، قام الصديق يطالب به ، ليعيده الى نصابه وطريقه المرسوم .

وأبو بكر الصديق ، المؤمن الخاشع ، القائم الليل ، الذي وصفته عائشة رضي الله عنها بقولها إنه كان : « غزير الدمعة وقيد الجوانح ـ أي محزون القلب ـ شجي النشيج » .. هذا ... غزير الدمعة ... مامنعه خشوعه من بناء قواعد مجد الدولة ، خشوعه جانب من الايمان ، وجانب آخر ، تراه يوصي قواده بالحيطة ، وينبههم في كفاحهم لعدوهم .

قال ليزيد بن أبي سفيان عندما سيره في فتوح الشام : « .. وإذا قدم عليك رسُلُ عدوك فأكرمهم ، وأَقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تريّثهم ، فيروا خللك ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكرك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك ... وأكثر حرسك ، وبددهم في عسكرك ،

وأكثر مفاجأتهم في محـارسهم بغير علم منهم بـك ، فمن وجـدتـه غفل عن محرسـه فـأحسن أدبـه وعـاقبـه في غير إفراط ، وأعقب بينهم بـالليل ، واجعل النَّـوْبَـةَ الاولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار ... » .

وكان رضي الله عنه يفهم القرآن استعداداً ، دون تواكل مطلقـاً . الإسلام دين القوة والعزة والعقل والأخـذ بـالأسبـاب ، لقـد وقف يومـاً يتفقـد جنـده الـذين همـوا بـالخروج لغـزو الشـام ، فلم تعجبـه عـدَّتهم ، وسـأل من حـولـه : ما ترون في هؤلاء إن أرسلتهم الى الشام في هذه العدّة ؟ فقـال عمر : مـا أرضى هذه العدّة لجموع بني الأصفر ، وقـال بقيـة أصحـابـه : نحن نرى مـا رأى عمر ، فكتب الى أهل اليمن يستكمل العـدّة ، ويستنهضهم إلى الجهـاد ليخفـوا إليـه بمـا يسد هذا النقص من جند وسلاح .

وهذه لكمة لوجه من يدعي أن الإسلام تواكل وكسل واهمـال للأسبـاب ، كما يفتري المفترون ، فمـا سيَّر جنـداً إلا بعـد استكمـال الأسبـاب ، واتمـام العـدّة والعدد بمـا ينـاسب كل جبهـة ، وهـذا الفهم العلمي السليم : من أين تعلمـه أبو بكر ؟ ، من أي أكاديميـة حربيـة اقتبسـه ؟ إنـه خريـج مـدرسـة استـاذهـا محمد بن عبد الله ، ودستورها ومنهجها كتاب الله وسنة رسوله .

هذا ...

وكان رضي الله عنه أمينـاً على بيت مـال المسلمين ، فَسَلَّمـه لمن سماه النبي « أمين الأمة » وهو أبو عبيدة عـامر بن الجراح ، وولّى القضـاء رجلاً لم يشتهر أحد بـالعـدل اشتهـاره وهو : عمر بن الخطـاب ، وولّى الكتـابـة ، كاتب النبي عليه الصلاة والسلام : زيد بن ثابت ...

وما أخذ من بيت المال إلا حـاجتـه « على الرغم من أنـه مـا فكر براتب

منه ، فقد أخذ قماشه على كتفه ليفتح دكانه ، فرفض الصحابة ذلك ، وطالبوه بالتفرغ لأمور الأمة ، فأخذ حاجته وكفافه من بيت المال فقط ، ومما روي عن عفته وزهده أن امرأته اشتهت حلواً ، واستفضلت من نفقتها في عدة أيام ماتشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات الى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى . وهذا فهم سليم للميزان ، فأموال الأمة أمانة في عُنقه » .

وما غرته ـ رضي الله عنه ـ الخلافة ، وماغيرت من أعماله في خدمة الأمة : كان يقيم بالسنح على مقربة من المدينة ، فتعوَّد أن يحلب للضعفاء أغنامهم كرماً منه ، ورفقاً بهم ، فسمع جارية تقول بعد مبايعته بالخلافة : اليوم لا تحلب لنا مفاتح دار ، فسمعها فقال : بلى لعمري لأحلبنها لكم ... فكان يحلبها وربما سأل صاحبتها : يا جارية ! أتحبين أن أرغي لك أو أصرح[1] ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت صرح ، فأي ذلك قالته فعل .

وايمانه دفعه إلى الاهتمام بالمسلمين ، عند مرضه الأخير ، فترك الأمر الى المسلمين يختارون من يشاءون ، فجمع إليه نخبة من أهل الرأي ، وقال لهم فيما قال : « قد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمِّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمَّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي » .

فلم يستقم لهم أمر كما جاء في رواية الحسن البصري ، ورجعوا إليه يقولون : « إن الرأي يا خليفة رسول الله رأيك » . فاستمهلهم حتى « ينظر لله ولدينه ولعباده » .

---

(١) رَغوة اللبن ورُغوته ورِغوته ورغاوه ورِغايته أي زبده ، لسان العرب ، جـ : ١٤ ، ص : ٣٢٩ ، والصريح : المحض الخالص من كل شيء ، والصَّريح : اللبن إذا ذهبت رَغْوَته ، ولبن صريح : ساكن الرغوة خالص ، لسان العرب ، جـ : ٢ ، ص : ٥٠٩ .

ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد ، وأُسيد بن الحضير .

وسأل علياً فقال : « عمر عند ظنك به ورأيك فيه ، إن وليته ـ مع أنه كان والياً معك ـ نحظى برأيه ونأخذ منه ، فامض لما تريد ، ودع مخاطبة الرجل ، فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت ، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير » .

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان ، فكتبه وختمه وخرج به مختوماً ونادى في الناس : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ ... وقيل إن أبا بكر أشرف من كوَّته فقال : ياأيها الناس ! إني قد عهدت عهداً أفترضونه ؟ فقالوا : رضينا يا خليفة رسول الله ، وقام عليٌّ فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر . ثم كانت البيعة التي أجمع عليها المسلمون .

□ **قال الإمام علي كرم الله وجهه في تأبين أبي بكر : « .. كنت كالجبل** الذي لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك ، قويّاً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك ، عظيما عند الله ، جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ... » .

وفي هذا الثناء غاية إذا عمدنا إلى الثناء الذي قاله فيه عارفوه .



رحم الله أبا بكر ، فقد فهم عناصر الشريعة وميزانها الدقيق ، وكان :

ـ أميناً في صداقته لرسول الله .

ـ أميناً في خلافته لرسول الله .

ـ أميناً على أرواح جند الله .

ـ أميناً على أموال عباد الله .

ـ فاهماً وأميناً لكتاب الله .

ـ عارفاً أميناً لِسُنَّة رسول الله .

☆ ☆ ☆

عُمَر الفاروق

هذه صور من حياة الفاروق في إمارته للمؤمنين ، وليس لنا حديث عن اسلامه ، وجوانب شخصيته ، وموقفه مع النبي عليه السلام ، أو مع أبي بكر ... فليس هذا موضوع بحثنا الآن ... ولكننا نقول مع العقاد عن هذا العبقري الذي قال عنه رسول الله : « لم أرَ عبقرياً يفري فريّه[1] » :

ـ (اسم يقترن بدولة الإسلام ، ودولة الفرس . ودولة الروم ، وكل دولة لها نصيب في التاريخ ، فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثه المحمدية ؟) .

١ ـ لطفه في الدعوة : تفقد رجلاً يعرفه ، فقيل له إنه يتابع الشراب ، فكتب إليه : اني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذو الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير . فلم يزل الرجل يرددها ويبكي حتى صحت توبته ، وأحسن النزع وبلغت توبته

---

(١) فرى الجلد : قطعه ليصلحه ، وفرى الفرى أتى بالعجيب ، والمعنى أن عمر عبقري متفرد في عمله ، فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه .

عمر ، فقال لمن حضروا مجلسه : « هكذا فاصنعوا ... إذا رأيتم أخاً لكم زلَّ زلَّة فسددوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه » .

كما وجه انذاراً شديداً لأبي موسى الأشعري حين جلد شارباً ، وحلق شعره ، وسوَّد وجهه ، ونادى في الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه . فأعطى الشاكي مائتي درهم ، وكتب إلى أبي موسى : لئن عُدْتَ لأُسودن وجهك ، ولأطوفن بك في الناس . وأمره أن يدعو المسلمين إلى مجالسته ، ومؤاكلته ، وأن يمهله ليتوب ، ويقبل شهادته إن تاب ...

إن الرحمة من صفات عمر في رعيته ، وازنت فيه حبه لاقامة الحدود والعدل في نفسه ، فكثيراً ما كان يدرأ الحدود بالشبهات ، وكان من دأبه أن يتريث في اقامة الحدود .

٢ ـ **الرعية سواسية :** فقصة القبطي وابن عمرو بن العاص مشهورة ، يهمنا منها أنه أعلن حقوق الإنسان قبل اعلانها في العصر الحديث بألف عام ، قال مخاطباً عَمْراً : « بِمَ تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . ماقالها شعاراً براقاً ، بل مانجا عمرو من يده إلا برضى من صاحب الشكوى ، واعتذار مقبول ، مِمَّنْ ولمنْ ؟ ! من القبطي غير المسلم إلى فاتح مصر عمرو بن العاص ، كيف لا والناس ، والرعية كلها سواسية على اختلاف مذاهبهم !

وقصة جَبَلة بن الأيهم الغسّاني ـ ملك آل جفنة ـ مشهورة أيضاً ، ويهمنا منها أن عمر أَمر الفزاري أن يحطم أنف جبلة ، ولما سأل جبلة : يا أمير المؤمنين هو سوقة وأنا ملك ؟ قال عمر : إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية .

وعمر يرى الإمارة مسؤولية أمام الله عز وجل ، فهو يقول : « لو مات جدي بطرف الفرات ، لخشيت أن يحاسب به الله عمر » .

لذلك تفقد رعيته ليلاً ونهاراً . أما حمل عِدلاً من دقيق وكُبَّة دَسَمٍ بمساعدة « أسلم » على ظهره ، فقال أسلم : أنا أحمله عنك ، قال عمر : أنت تحمل وزري يوم القيامة لاأمَّ لك !. وانطلق عمر يهرول إلى بيت الأطفال ، فأوقد النار ، وكانت لحيته عظيمة ، فصار الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم ، وأفرغ لهم وبرَّد الطعام ... ولم يزل حتى شبع الأطفال وأمهم تقول : جزاك الله خيراً ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين عمر !!

إنه الشعور بالمسؤولية النابع من الرحمة في نفس عمر .

رأى عمر شيخاً ضريراً يسأل على باب ، فلما علم أنه يهودي قال له : ما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ! فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله . فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : انظر هذا وضرباءه فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم ، فهذا من مساكين أهل الكتاب ... ووضع عنه الجزية وعن ضربائه ، وخصص له عطاءً من بيت مال المسلمين .

وهذا يدحض فرية أن الإسلام يفرق الأمة ، ويجعلها طائفية ... فكل مواطن في دولة الإسلام معروفة حقوقه وواجباته ، ولا فقير في دولة الإسلام ، حتى بين أتباع الديانات الأخرى .

وعمر بلا ريب أشد المسلمين تمسكاً باسلامه ، فلو كان من طبيعة الإسلام ظلم من لم يدخل فيه ، لكان عمر أشد المسلمين ظلماً لهم ، وقسوة عليهم ، لكنه في الواقع كان أشد المسلمين رعاية لعهدهم ، وعطفاً عليهم . بل مات وهو يوصي

من بعده بأهل الذمة . أما رفض أن يصلي داخل الكنيسة في بيت المقدس وقال للبطرك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي وقالوا : هنا صلى عمر ! ..

لم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذي سينتخب بعده بالذميين كافة « أن يوفي بعهدهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم » .

« ودون هذا بالمراحل الشاسعة ، يقف عدل الدول القدامى والمحدثات في كل ما اتخذت من حيطة حربية ، أو حماية قومية ، أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية ، وأن عذرها لدون عذر عمر في خططه ، وأن أسبابها لدون أسبابه في الاقناع .

كان مسلماً شديداً في اسلامه ، فلم تكن شدته في اسلامه خطراً على الناس ، بل كانت ضماناً لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهلياً فأسلم ، فأصبح اسلامه طوراً من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة في التاريخ الإنساني ، لما كان إسلام رجل طوراً من أطواره الكبار[1] » .

وعمر الرحيم العادل ، نير الفكر ، حاضر البديهة ، فلايجتمع إسلام حق ، مع غباء ومسكنة ، ولا مع تغابٍ وتمسكن .

٣ ـ عمر وعزة المسلم : لقد أحب عزة الرعية ، يكره مظاهر الضعف والمسكنة ، ويكره التواني ليقال إن فلاناً متوكل على الله ، ويكره الضعف ليقال فلان زاهد ناسك ، منصرف إلى الله .

(١) عبقرية عمر للمرحوم العقاد ، ط : دار الهلال ، ص : ٩٥ .

فكان يقول : « ان المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله » .

وكان يضرب من يتاوت ويستكين ، ليظهر التخشع في الدين . نظر إلى رجل متاوت ، قد حنى ظهره ولوى رقبته ، فخفقه بالدرة وقال : لاتُمِتْ علينا ديننا أماتك الله .

وكان كلما رأى شاباً منكِّساً رأسه ، صاح به ، ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على مافي القلب ، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق مافي قلبه ، فإنما أظهر للناس نفاقاً إلى نفاق .

وكان يعجبه الشاب المسلم : نظيف الثوب ، طيب الرائحة ويرى المسلمين بخير ما عَلَّموا أبناءهم **الرمي والعوم والفروسية . فما أروع فهم الإسلام الصحيح ، المتمثل في شخص عمر رضي الله عنه .**

قال عمرو بن العاص : « كان عمر والله أعقل من أن يُخدع ، وأفضل من أن يَخدع » ، ووصف نفسه رضي الله عنه : « لست بالخب ، ولكن الخب لا يخدعني » . وهذا هو دَهاء المسلم المطلوب والمحمود ، إنه دهاء ليس فيه خبث ، أو سوء طويَّة .

٤ ـ **حسابه لعماله :** جمع عمر رضي الله عنه صلاح عماله على الأمصار في : « أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله » .

فكان يختار ولاته اختياراً ، منطلقاً من مبدأ صلاح الرجل للولاية ، لاصلاحه في ذاته . وكان لا يولي طالب الولاية . قال يوماً : دلوني على رجل استعمله على أمر قد أهمني ، قالوا : فلان ، قال : لا حاجة لنا فيه ، قالوا : فمن تريد ؟ قال : أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ،

وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم قالوا : ما نعرف هذه الصفة إلا في الربيع بن زياد الحارثي ، قال : صدقتم ، فولاّه .

وأوصى عماله فقال : إياكم والحجاب ، أي لاتغلقوا أبوابكم دون الرعية ، فلما بلغه أن سعداً بنى داراً سُميت القَصْر في الكوفة ، وأغلق الباب دونه ، أرسل إليه المفتش الإداري ، وعمد إلى القصر فأحرق بابه ، وكتب الى سعد يقول : بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويُسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منزلاً بما يلي بيوت الأموال ، وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً ، يمنع الناس من دخوله ، وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت .

فما أغفل رضي الله عنه شكاية عن والٍ ، فكان سرعان ما يرسل محمد بن مسلمة « أمين سره » الذي يثق به ثقة لاحد لها لتقواه وورعه .

وصمم عمر على القيام بجولة تفتيشية عامة ، فقال : لئن عشت ان شاء الله ، لأسيرنَّ في الرعية حَولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائجَ تُقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها إليَّ ، وأما هم فلا يصلون إليَّ ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأُقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا .

وطبق رضي الله عنه على ولاته ، مبدأ : من أين لك هذا ؟ فكان إذا استعمل عاملاً أحصى ماله ، وقد قاسم غير واحد منهم ماله إذا عزله ، منهم سعد بن أبي وقاص ، وأبو هريرة .

٥ ـ **عمر والقضاء** : لقد وضع عمر أثناء امارته دستور القضاء مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله ، ليحقق العدل والأمان والطمأنينة في رعيته .

كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ، أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، وأنفذ إذا تبيَّن لك ، فإنه لا ينفع حق لانفاذ له .

آسِ ـ أي سوِّ ـ بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولاييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالاً .

ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت لرشدك أن ترجع الى الحق[1] ، فان الحق قديم لايبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التادي في الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سنة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثم قس الأمور عند ذلك ، واعمد الى أحبها الى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى .

واجعل لمن ادعى حقاً غائباً ، أو بينة ، أمداً ينتهي اليه . فان أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضاء ، فان ذلك أنفى للشك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ في العذر .

---

(١) ويعني في دعوى أخرى مثلها ، أما التي صدر فيها الحكم وصار حقا مكتسبا لصاحبه فلا يبدل الحكم فيها ، وذلك معنى قول عمر لما سئل عن اختلاف حكمين له في دعويين متشابهتين : « تلك كما قضينا ، وهذه كما نقضي » .

والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فان الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم الشبهات .

وإياك والقلق والضجر والتأذي بالناس ، والتنكر للخصوم في مواطن الحق ، التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر ، فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه ، يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس فيما يعلم الله خلافه منه شانه الله ، وهتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته والسلام » .

وهكذا جمع رضي الله عنه في هذه الرسالة الرائعة : آداب القاضي ، وأصول المحاكمة ، ولو لم يكن لعمر آثار غيرها ، لعد بها من كبار المفكرين والمُشَرِّعين .

٦ ـ معاملته لكبار الصحابة : كسا عمر أصحاب النبي ﷺ ، فلم يكن في الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما ، فبعث الى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما ، وقال حين رآها : الآن طابت نفسي ! .

وسافر الى الشام فاستخلف علياً رضي الله عنه على المدينة ، وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع اليه في قضائه متحرجاً من دعوته اليه حين يحتاج الى سؤاله : استفتاه بعضهم في مجلسه فقال : اتبعوني ، وأخذهم الى علي فذكر له المسألة فقال علي : ألا أرسلت إلي ؟ قال عمر : أنا أحق باتيانك[1] .

وكان يستفتي ابن عباس في الدين والأدب ، ولا يلقاه باحثاً مسترسلا في

---

(١) لما ولي صعد المنبر فقال : ما كان الله ليراني أني أرى نفسي أهلا لمجلس أبي بكر ، فنزل مرقاة ـ أي درجة ـ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اقرؤوا القرآن تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ... الى آخر خطبته .

الحديث إلا قال له معجبا متبسطاً : غُص غواص ! .. وقلما سئل في أمر وابن عباس حاضر إلا قال يشير اليه : عليكم بالخبير بها .

ولم يحجم عن توليتهم الولايات إلا كما أحجم عن تولية الجلة من الصحابة ، ورؤوس قريش الذين ابقاهم عنده للمشورة ، وصانهم عن محاسبته وعتابه .

وتجلى تكريم عمر لصحابة رسول الله ﷺ بالعطاء حيث قال : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، فكان يقدم الأقرب فالأقرب من رسول الله ، فإذا استووا في القرابة ، قدم أهل السابقة ، حتى انتهى إلى الأنصار ، فقالوا : بمن نبدأ ؟ قال : ابدؤوا برهط سعد بن معاذ ، ثم الأقرب فالأقرب إليه » .

فلوجهاء القوم اكرامهم ، انهم أهل المشورة والنصح .

٧ - **عمر يفتح الجبهات :** عمر هو الذي سير البعوث الى العراق ، ومصر ، والجزيرة ... إنه هو الذي أعد للقادسية : قائدها ، ومكانها ، وخطتها ...

لقد اختار سعداً للقادسية وقال له : « لايغرنك من الله أن قيل : خال رسول الله ﷺ ، وصاحب رسول ﷺ ، فان الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن . وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الامر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه » .

وبقي عمر على صلة دائمة مع سعد ، وكأنه ينظر الى المعركة بعين بصير ، كتب لسعد : « اكتب إليَّ أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ، فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به قلة علمي بما هجمتم

عليه ، والذي استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها ، واجعلني من أمركم على الجلية » .

فوصف سعد برسالة مفصلة طبيعة أرض المعركة[1].

ويؤكد عمر على العقيدة في كل نجاح ، فقد كتب الى عمرو بن العاص وقد استبطأه في فتح مصر : «عجبت لابطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وان الله تبارك وتعالى لاينصر قوماً إلا بصدق نياتهم » .

رحم الله عمر ... لقد اختار القواد بنفسه ، وكان له في اختيارهم حاسة عجيبة ، يعرف بها حقائق الرجال واقدارهم ، وكفاءاتهم ومعادنهم . وأوصاهم بوصية الخبير بما يصلح به القائد والجند ، وأدار المعارك كقائد عام أعلى ، يرسم ويخطط لها ، يبعث بأوامره وتعليماته ببصيرة نفاذة ، كأنه يشهد ببصيرته حركاتهم وقتالهم ، ومع هذا كله كان يشاور المسلمين .

فعمر الذي قام بأعمال حطمت دولتين عظيمتين ، وفتح الجبهات ، وسير الجيوش بحنكةٍ وخبرة ودراية ، هو نفسه عمر الذي يصلي بالناس إماماً في المسجد ؛ بل عمر الذي كان في وجهه خطان من البكاء ، فعن هشام بن الحسن قال : كان عمر يمر بالآية وهو يقرأ فتخنقه العَبرة فيبكي حتى يسقط ، ثم يلزم بيته حتى يعاد ، يحسبونه مريضاً .

وعن عبد الله بن شداد قال : سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح ، وهو يقرأ سورة يوسف حتى بلغ : « إنما أشكو بثي وحزني الى الله » .

---

(١) أوردناها في سلسلة المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام الجزء الاول « القادسية » ، ص٣٦ .

رضي الله عنه ، لقد :

جمع الشجاعة والخشوع لديه ما أروع الشجعان في المحراب

٨ ـ هذا ... ورائعة فهم عمر لأهداف ومرامي الشريعة ظهرت في تنفيذه لمبدأ تغير الأحكام ، بتغير الأزمان ، وقد أفردنا له بحثاً مستقلاً ، سنرى فيه اجتهاده ، ونفاذ بصيرته وفكره في ذلك ، وعمر في ذلك باق مع الشريعة لم يفارقها لحظة من حياته في إمارته ، فهو الذي أوصى : « إذا جاءك أمر في كتاب الله فاقض به ، ولا يلفتنك عنه الرجال ، فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله ﷺ فاقض بها ، فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ، فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبل ، فاختر أي الأمرين شئت : إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وان شئت أن تؤخر فتأخر ، ولا أرى التأخير إلا خيراً لك » .

وضرب لقضاته وولاته أصلح الأمثلة باجتهاده كما سنرى في : مبدأ تغير الأحكام بتغير الأزمان .

☆ ☆ ☆

هذه جوانب من فهم أمير المؤمنين عمر لميزان الشريعة ، وهي قليل من كثير كثير ، وغيض من فيض لكنها تشكل صورة في الذهن : عن أمير فهم وحفظ ورعى عناصر الميزان : بينه وبين ربه ، وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين رعيته .

قال العقاد :

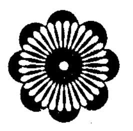
« تشهد العيون كما تشهد القلوب ، إنه لمن معدن العظمة ، معدن العبقرية

والامتياز بين بني الإنسان ، وللمحدّثين علامات في العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة ، كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال » .

واختتم الحديث عن عمر بحديث قاله الفضل بن عميرة ، يلخص فلسفة عمر ونظريته بالإمارة على المسلمين : « قدم الأحنف بن قيس على عمر في يوم صائف شديد الحر ، وهو محتجز بعباءة يدهن بعيراً من إبل الصدقة ، فقال عمر : يا أحنف ضع ثيابك ، وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير ، فانه من إبل الصدقة ، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين ، فقال الأحنف : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين! فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا ؟ فقال عمر : يا أحنف ! وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف هذا ، إنه مَن ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة ، وأداء الأمانة مع المداراة » .

قال ﷺ : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب[1] » ، وقال : « إن الله جعل الحق على قلب عمر ولسانه[2] » .

☆ ☆ ☆



(١) رواه الترمذي ، والامام أحمد .

(٢) مسند الامام أحمد ، جـ٢ : ص٩٥ .

□ عن أبي عثمان النهدي قال سمعت عمر بن الخطاب يقول على المنبر : « ان أخوف ماأخاف على هذه الأمة المنافق العليم . قالوا : وكيف يكون منافقاً عليما ياأمير المؤمنين ؟ قال : عالم اللسان ، جاهل القلب والعمل » . رحم الله سيدنا عمر ... فقد كان يركز على القلب المشبع بالايمان ، وعلى رشحات ونتائج هذا الايمان ؟!! .

عُمر بن عَبد العـزيز

□ أحسن خلفـاء بني أميـة سيرة[1]، وأنقـاهم سريرة ، وأنزههم يـداً وأعفهم لسانـاً ، فقـد أصبح حكمـه غرة في جبين العصر الأموي

انتقاه سليمان بن عبد الملك بعـد مشـاورات حكيمـة دقيقـة ، للخلافـة من بعده ، فكتب بذلك وصية سلمها لرجاء بن حَيْوة ، فقـال عمر بن عبـد العزيز لرجاء : أخشى أن يكون هـذا أسنـد إليَّ شيئـاً من هـذا الأمر ، فـأنشـدك الله وحُرمتي ومودتي إلا أعلمتني ، ان كان ذلـك ، حتى أستعفيـه الآن قبل أن تـأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة .

فقال رجاء مجيباً : لا والله ما أنـا بمُخبرك حرفـاً . فـذهب عمرُ غضبـان ، لأنـه يرى أن الخلافـة مسؤوليـة أمـام الله ، فهـو لايطلبهـا ، ولن يسعى اليهـا بارادته .

ولما فتحت رسالة سليمان بعد وفاته ، بـايع النـاس عمر بن عبـد العزيز ،

---

(١) حكم رضي الله عنه من عام : ٩٩ ـ ١٠١هـ . وهو من نسل طيب طاهر مؤمن ، سمع عمر بن الخطـاب فتـاة ترد على أمها التي أمرتها أن تمزج الحليب ماء تقول : ياأمتاه ! ان كان عمر لايعلم فإله عمر يعلم ، والله مـاكنت لأطيعـه في الملأ ، وأعصيه في الخلاء . فلما سمع عمر ذلك زوجها لابنه عاصم . فولدت لـه محمدا وبنتـا هي أم عـاصم ، فتزوجهـا عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، فأتت بعمر بن عبد العزيز . فكان بنو أمية يقولون عن أحوالهم في زمانـه : أنتم فعلتم هذا بأنفسكم ، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده ، طبعا من حيث رعاية الاموال العـامـة والحكم بمـا أنزل الله .

□ وللتوسع في حياة هذا الخليفة الراشدي الخـامس يراجع : الكامل : جـ٢ ، ص١٥٢ ـ ١٦٥ ، الطبري : جـ٦ ، ص٥٥٠ ـ ٥٧٣ ، تـاريـخ الاسـلام : جـ١ ، ص٣٢٥ ـ ٣٣١ ، ابن الجـوزي : ص٧٢ ، الريـاض النضرة : جـ٢ ، ص١٢ ، نهـايـة الادب : جـ٣ ، ص٢٣٨ ، وسيرة عمر بن عبـد العزيز لابن عبـد الحكم ، والسيوطي : تـاريـخ الخلفـاء ص١٥٣ . والمسعودي : مروج الذهب : جـ٢ ، ص : ١٦٨ .

وكانت له مفاجأة ذهل لها . ولما رجع من جنازة سليمان رآه مولاه مزاحم مغتما فسأله السبب ، فقال : ليس أحد من أمة محمد في شرق الأرض ولا مغربها إلا وأنا أريد أن أؤدي اليه حقه من غير طلب منه .

ثم صعد المنبر ليعلن سياسته وبيانه في سياسة الدولة والناس ، ومما قاله :

« أيها الناس ! من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فلا يقربنا :

١ ـ يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها .

٢ ـ ويعيننا على الخير جهده .

٣ ـ ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه .

٤ ـ ولا يغتابن أحداً .

٥ ـ ولا يعترض فيما لا يعنيه » .

فانقشع الشعراء والخطباء ، وثبت عنده الفقهاء والعلماء ، علماً أن العلماء كانوا تلامذة أمام عمر بن العزيز .

وقال : « يا أيها الناس ! إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، ألا وإني لست بقاض ، ولكني منفذ ، ولست بمبتدع ، ولكني متبع ، ولست بخير من أحدكم ، ولكني أثقلكم حملا ،وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وبذلك ... كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أشبه بجده عمر بن الخطاب في زهده وتقشفه ، مع أنه ملك الدنيا ، ويشبهه بإيمانه بالله ، وسنة رسول الله .

□ ولما أرادَ الذهاب إلى داره ، أتاه موكب الخلافة ، وفيه لكل دابة سائس ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : مراكب الخلافة ، قال : دابتي أوفق لي ، وركب دابته ، وصُرفت تلك الدواب . ولما أتاه أصحاب مراكب الخلافة يطلبون علفها ، أمر بها فبيعت وجعل أثمانها في بيت المال ، وقال : تكفيني بغلتي .

وبلغ عبد العزيز بن الوليد ـ وكان غائباً ـ موت سليمان ، ولم يعلم ببيعة عمر ، فعقد لواء ودعا إلى نفسه ، فبلغه بيعة عمر بعهد سليمان ، فأقبل حتى دخل عليه فقال له عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك بايعت من قبلك وأردت دخول دمشق ؟! فقال : قد كان ذاك ، وذلك أنه بلغني أن سليمان لم يكن عهد لأحد ! فخفت على الأموال أن تنهب ، فقال عمر : **لو بايعت وقمت بالأمر ، لم أنازعك فيه ولقعدت في بيتي** ، فقال عبد العزيز بن الوليد : ما أحب انه وليْ هذا الأمر غيرك وبايعه .

فلما استقرت البيعة لعمر بن عبد العزيز قال لامرأته ، فاطمة بنت عبد الملك : إن أردت صحبتي فردي ما معك من مال وحلي وجوهر ، إلى بيت مال المسلمين ، فإنه لهم وإني لا أجتمع أنا وأنت وهو في بيت واحد ، فردته جميعه . فلما توفي عمر وولي أخوها يزيد ردَّه عليها وقال : أنا أعلم أن عمر ظلمك ، قالت : كلا والله ، وامتنعت من أخذه ، وقالت : ما كنت أطيعه حياً وأعصيه ميتاً .

رحمه الله ، لقد كان ورعاً في أموال الأمة ، ليس في أموال زوجته وحليها ، بل حتى في زيت سراجه ، فسراج زيته من أموال المؤمنين لرعاية مصالحهم ، وسراج آخر يوقد عند بحث أموره الخاصة !!

اصلاحاته :

١ ـ وضع الجزية عمن أسلم ، برسالة أرسلها إلى عامله الجراح بن عبد الله ، قال له : « فضع الجزية عمن أسلم ، فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً » .

٢ ـ أمر الجيش المسلم أن ينسحب من سمرقند ، وما كاد الجيش ينسحب ، حتى دخلت المنطقة كلها بالإسلام لعدل الإسلام المتمثل بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

٣ ـ أخذ الخوارج باللين واللطف وقارعهم بالحجة ، فأرسل إلى شوذب رئيسهم كتاباً يقول فيه : « بلغني أنك خرجت غضباً لله ونبيه ، ولست أولى بذلك مني ، فهلم أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس فيه ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا » . فكتب شوذب إلى عمر : لقد أنصفت . وقد أثمرت سياسة عمر ، فقد نصَّب الخوارج أنفسهم في بلاد العراق والجزيرة منذ خلافة عمر بن عبد العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين .

وهذا يدل ... إن طبق الإسلام كما هو ، إسلاما كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، ترضى جميع الطوائف والفئات والمذاهب إن كانت تريد الله ورسوله !

٤ ـ وأمر بترك سب أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، وكتب إلى العمال في الآفاق بذلك وذكر لهم قراءة : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى » الآية . بدل سب أمير المؤمنين علي ، فكسب بذلك العلويين ، لذلك تميز حكمه ، برضى الجميع ، وقبوله من الجميع ، وبمحبة الجميع .

٥ ـ ترك حيـاة الترف في قصـور بني أميـة ، فكان يطيِّن داره بيـده ، وكانت نفقته كل يوم درهمين فقط . ولما قال مسلمة لأختـه فـاطمـة بنت عبـد الملك : اغسلوا ثيـاب أمير المؤمنين ، قـالت : نفعل ! ثم عـاد وقميصـه عليـه لم يغسل فقال : ألم آمركم أن تغسلوا قميصه ، فقالت فاطمـة : والله مـا لـه غيره ! وكان ذلك في مرضه الأخير .

اشترى ثوباً بثمانية دراهم ، فوضع يده عليـه وقـال : مـا ألينـه ، فقـال لـه مولاه : اشتريت لك ثوباً بثمانمائة درهم قبل إمارتك فقلت : ما أخشنه ، وأنت اليـوم تستلين كسـاء بثمانيـة دراهم ، فعجبت من ذلـك ، فقـال عمر بن عبـد العزيز : ما أحسب رجلا يبتاع كساء بثمانمائة درهم يخاف الله عز وجل .

٦ ـ كما رعى جانب الله في أموال الأمة ، وفي رعاية الأمـة ، وجعل مولاه مُزاحماً رقيباً عليه ، قـال لـه يومـاً : إن الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنـا أجعلك عيني على نفسي ، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها ، أو فعلاً لاتحبه ، فعظني عنده ، وانهني عنه .

ودخل ليلة مع مولاه إلى المسجد ، فمر في الظلمـة برجل نـائم ، فعثر بـه ، فرفـع الرجـل رأسـه اليـه وقـال : أمجنـون أنت ؟ فقـال عمر : لا . فهم مـولاه بضرب الرجل ، فقال عمر : صه ! إنما يسألني : أمجنون أنت ؟ فقلت : لا .

فما أجمل الحلم على الرعية ، واللطف بهم ومحبتهم .

ولا بد من ذكر نبذة عن تقواه ، ويمكن لمس ذلك من خطبتـه التـاليـة : « أيها النـاس ، إنكم لم تُخلقوا عبثـاً ، ولن تتركوا سُـدى ، وإن لكم معـاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، وقد خاب وخسر من خرج من رحمـة الله

التي وسعت كل شيء ، وحُرم الجنة التي عرضها السموات والأرض . ألا واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، وباع نافذاً بباق ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان . ألا ترون أنكم أسلاب الهالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون ، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ! وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، فتغيبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد فارق الأحبة ، وخلع الأسباب ، فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتهن بعمله ، فقير إلى ماقدم ، غني عما ترك . فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه . وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله وأتوب إليه . وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا وددت أنه سداي ولحمتي ، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ، وأيم الله أن لو أردت غير هذا من الغضارة والعيش ، لكان اللسان مني به ذلولاً عالماً بأسابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، يدل فيها على طاعته ، وينهى عن معصيته » .

ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق وأبكى الناس حوله .

□ ومما يذكر أن الناس كانوا في زمن الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا : من قتل البارحة ، ومن جلد ، وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع ومصانع ، فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع وشق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ولما ولي سليمان بن عبد الملك أكثر الناس من الحديث عن القيان والسراري مثله ، وعمروا مجالسهم بذكرهن ، **ولما ارتقى عمر بن عبد العزيز الخلافة : كان الناس يتساءلون : كم حفظت من القرآن ؟ وكم وردك كل ليلة ؟ وكم يحفظ فلان ؟ وكم يصوم بالشهر ؟ وهكذا ... كان الناس على دين ملوكهم !**

٧ ـ لقد وصلت رعاية عمر بن عبد العزيز ورحمته الحيوان أيضاً ، فحدد حمولة الدابة ، وأمر بعدم إرهاق الحيوان بحمولات فوق طاقته ، وأمر واليه عبد الرحمن بن نعيم في وصية طويلة منها : « ولا تجر الشاة إلى مذبحها ، **ولا تحدُّوا الشفرة على رأس الذبيحة »** .

وكتب إلى سليمان بن أبي السري : « أن اعمل خانات في بلادك ، فمن مر بك من المسلمين فاقروهم يوماً وليلةً ، **وتعهّدوا دوابهم** ، فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين ، فإن كان منقطعاً به فقوُّوه بما يصل به إلى بلده » .

وهكذا شملت عدالته ورعايته الاجتماعية ورحمته الإنسان والحيوان !

٨ ـ ولا يعني ذلك أنه كان ضعيفاً مسكيناً ، نهاره وليله : صيام وقيام . والعدو يصول ويجول على حدود دولته ! .. لا ، ما فهم رضي الله عنه أن الزهد ترك أسباب الدنيا ، ولكنه فهم الزهد في الإسلام أنه عدم تعلق القلب بما في اليد ، وفهم من الزهد أن يكون مالكاً للدنيا غير مملوك لها بحال .

مدح جرير عمر بن عبد العزيز فقال :

تركت للناس دنياهم ودينهم ... وأنت بالدين عن دنياك مشغول

فقال عمر : لم تزد عليَّ أن جعلتني عجوزاً في عقر بيتها ،هلا قلت :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ... ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله !

□ هذا الرجل الذي فهم عناصر الميزان فهماً صحيحاً سليماً ، فلما أغار الترك في الشرق على أذربيجان ، فقتلوا من المسلمين جماعة ، وجّه عمر إليهم حاتم بن النعمان الباهلي ، فقتل اولئك الترك ، ولم يفلت منهم إلا اليسير .

□ هذا الرجل هو الذي اختار السمح بن مالك الخولاني لما فيه من أمانة وديانة ، عاملا على الأندلس ، وكان السمح قائداً باسلاً حكيماً ، فرتق الفتوق ، ووازن الدخل والخرج ، وأنصف الجند في الأعطيات . وبعد إصلاح الداخل ، أعمل همته في الجهاد ليجدد المسلمون عزائمهم ، ففتح مدينة أربونة ، وحاصر تولوز المدينة الفرنسية المعروفة ، واستشهد على أسوارها ...

ولم يغفل عمر عن تزويد جنده بالنصائح : « إن قوام الإسلام الإيمان بالله ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة ، فإنه من يضيِّع الصلاة فهو لما سواهامن شرائع الإسلام أشد تضييعاً ومُر أهل العلم والفقه من جندك ، فلينشروا ما علمهم الله من ذلك ، واحترس لنفسك ولجيشك من المعاصي احتراسك من العدو ، وارفق بمن معك في سفرهم حتى لا تنقص قوتهم أمام عدو مقيم ، بأن تقيم بمن معك ليلة في كل جمعة راحة لهم ولدوابهم ، وإصلاحاً لأمتعتهم وأسلحتهم ، ونح منزلك عن قرى أهل الصلح ولا يدخلها أحد من أصحابك إلا من تثق بدينه ، فلا تستنصر على أهل أرض الحرب بظلم أهل أرض الصلح » .

☆ ☆ ☆

هذه جوانب من حياة عمر بن عبد العزيز ، ولا أدعي أنها جميع الجوانب المضيئة في حياته ، إنما هي نماذج من سيرته وإصلاحاته ، التي أوصلت المجتمع إلى الأمن والأمان والطمأنينة ، حتى صار ينادى في عهده : هل من فقير لتؤدي الدولة دَيْنَهُ ، هل من أعزب فنزوجه ؟! لقد أثبت عمر في فترة خلافته

أنه إذا طبقت عناصر الميزان بفهمها السليم ، رضي الجميع ، وانتهت الخلافات ، وتوحدت الكلمة : سُنَّة وشيعة وخوارج ... لقد ملأ الأرض عدلا ، فهدأ الجميع ، لذلك ما حدثت أية فتنة في عهده .. وهذا يوضح دون شك ، أن الفتن التي قامت ، والثورات التي حدثت ، كانت بسبب الانحراف عن دعوة عناصر الميزان !

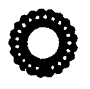
☆ ☆ ☆

وأخيراً ... ذلك هو الرجل الرائعة سيرته ، العطرة مناقبه ، السليمة طويته .

□ مات لعمر بن عبد العزيز ابنٌ ، فجاءته تعزية من أحد عماله ، فقال عمر لكاتبه : أجبه عني ، فأخذ الكاتب يبري القلم ، فقال عمر لكاتبه : أدق القلم ، فإنه أبقى للقرطاس ، وأوجز للحروف ، واكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن هذا الأمر أمرٌ قد كنا وطَّنَّا أنفسنا عليه ، فلما نزل لم ننكره ، والسلام » .

رحم الله عمر ... فقد كانت سيرته التي تغنى بها الناس على مر الزمن ، نابعة من إيمانه العميق بالله ، ومن فهمه السليم لشريعة الله بعناصرها : الكتاب ، والسنة ، والإجماع !





أبو جعفر المنصور

أعظم الخلفاء العباسيين[1] شدة وبأساً ويقظة وحزماً وصلاحاً واهتماماً بمصالح الرعية ، وجداً في بلاطه ، لقد استطاع بما أوتيه من حزم وعزم أن ينتشل بلاده من عبث العابثين ، وخطر الخوارج ، وأن يوطد دعائم ملكه على أسس قوية من النظام .

وصفه الطبري أنه كان ميالا بطبيعته إلى النظام الذي هو أساس نجاح الأعمال ، فكان ينظر في صدر النهار في أمور الدولة وما يعود على الرعية من خير .

فإذا صلى العصر ، جلس مع أهل بيته ، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور ، وشاور وزيره ومن حضر من رجالات دولته فيما أراد من ذلك . فإذا مضى ثلث الليل انصرف سماره ، وقام إلى فراشه ، فنام الثلث الثاني ، ثم يقوم من فراشه فيتوضأ ، ويجلس في محرابه ، حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إيوانه ويبدأ عمله كعادته في كل يوم ..

كما اشتهر بالجد في بلاطه ، فلم يعرف عنه ميل إلى اللهو والعبث ، كما كره سفك الدماء بغير الحق ....

---

(١) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي العباسي ، ولد عام : ١٠١ هـ في الحميمة على مقربة من العقبة . حكم من : ١٣٦ ـ ١٥٨ هـ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م أخذ عليه فقط ، ميله لتوطيد حكمه بسفك الدماء في أول عهده ، ولكنه عاد يحاسب ولاته بعد استتباب حكمه على أي دم يسفك ، كما حدث مع عيسى بن موسى الذي قتل رجلا من ولد نصر بن سيار والي مروان بن محمد الأموي !.

وعرف المنصور بالثبات عند الشدائد ، ولا شك أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي كفلت له النجاح حين كانت تصادفه إحدى الصعوبات .

كما عرف بحرصه في النفقات ، وهذا ليس عيباً به إذا فهم على حقيقته . قال المسعودي : وكان من الحزم وصواب الرأي ، وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وكان يعطي الجزيل والخطير ما كان إعطاؤه حزماً ، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعاً ، وقال المنصور يوماً : لو عندي ألف بعير ، وعندي بعير أجرب ، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره .

وقد وصفه صاحب الفخري في هذه العبارة حيث قال : كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم ، وعقلائهم وعلمائهم ، وذوي الآراء الصائبة منهم ، والتدبيرات السديدة ، وقوراً شديد الوقار ، حسن الخُلق في الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح ، فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام ، تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وانقلبت جميع أوصافه ... وقالوا : كان المنصور يلبس الخشن ، وربما رقع قميصه .

وقد عرف المنصور بسهره على راحة رعيته ، وذلك بتقصي أخبار عماله .

ولى رجلا من العرب على حضرموت ، فكتب إليه والي البريد : أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها ، فعزله وكتب إليه : ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش ؟ ! إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحش ، سلِّم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً[1] .

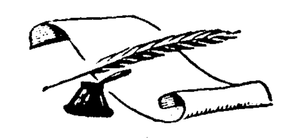
---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، للخضري ، ج ٣ ، ص : ٨٢ ، ط : ٩ / ١٩٥٩ / « المكتبة التجارية الكبرى بمصر » .

وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعف منهم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان المُلْك ، لا يصلح إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، وإن نقصت واحدة وهن ؛ أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غني ، والرابع ... ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة : آه ، آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال صاحب بريد يكتب إليّ بخبر هؤلاء على الصحة[1] » .

على مثل هذا الفهم ، بنى المنصور دولته ، ويكفيه أنه قد جعل القضاء عادلا وأنصف الضعيف ، وما جمع مالاً بظلم ... وراقب القاضي ، وصاحب الشرطة ، وصاحب الخراج ، بصاحب بريد يأتيه بأخبار هؤلاء على الصحة ، كما حدث مع والي حضرموت المعزول ! .

☆ ☆ ☆



(١) المرجع السابق ، ص : ٨١ .

مَحمُود بن زَنكي

« العادل نور الدين » (١)

□ آمن بالإسلام إيماناً عميقاً ، فتمثلت فيه العقيدة الإسلامية تمثلاً غريباً ، فقد أدرك من طبيعة الدين الحنيف ، وخصائصه ومزاياه ، ما لم يدركه الفقهاء والأصوليون ، فاستقرت في نفسه قواعد دين الفطرة ، فأدهش العلماء والفقهاء والقضاة ، ذوي العلم الغزير ، بفهمه السليم للشريعة ومقاصدها ومراميها .

إن إيمانه العميق ، كان محركه في حياته ، لهدف عظيم ، هو جمع كلمة المسلمين ليتمكن من إخراج الصليبيين من الشام . فسار لتحقيق هذا الهدف على نهج سليم متئد ، فحقق بالإسلام ، ما عجز عنه غيره ممن كانت بلادهم وثروتهم تزيد أضعافاً على ما كان له .

لقد امتلأ قلبه بنور الإيمان ، وتمثل ذلك في أعماله ، على نحو لا يكاد المؤرخ يراه ، إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام . وهذا الإيمان ، حوله من أمير إلى مجاهد ، ومن رجل سياسة وحكم إلى زاهد في أموال الأمة .

ما كان إيمانه تعصباً وتشدداً ، بل كان سمحاً ، لذلك حارب الصليبيين

---

(١) محمود بن زنكي « نور الدين » أبو القاسم ، والملقب بالملك العادل ، ولد في حلب عام ٥١١ هـ / ١١١٨ م . وتوفي في دمشق عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م ، انتقلت إليه الإمارة بجدارة بعد وفاة أبيه عام ٥٤١ هـ ، كان معتنياً بمصالح العباد ، مداوماً على الجهاد . يباشر القتال بنفسه ، موفقاً في حروبه ، أحب العلماء والتفقه بالدين ، كان يتمنى أن يموت شهيداً ، فمات بعلة « الخوانيق » في قلعة دمشق . فقيل له الشهيد ، قبره في المدرسة النورية بدمشق . (راجع الأعلام ج ٨ ، ص ٤٦) . وراجع التوسع في معرفة حياة هذا البطل المسلم المثالي : « نور الدين محمود » للدكتور حسين مؤنس ، و « الحركة الصليبية » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، و « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ، ج : ٨ و ٩ .

لا لأنهم نصارى ، بل لأنهم أجانب عن بلاد المسلمين وقد اعتدوا على مقدسات المسلمين ، وانطلاقاً من هذا ، ما مس النصارى من أهل البلاد بسوء ، بل رآهم كما أرادت الشريعة : مواطنين لهم حق الرعاية والذمة ، كما فرض احترامه على أعدائه ، حتى اعتقد الصليبيون ، بأن سراً من أسرار الله عنده ، يستجيب دعاءه ، ويعطيه سؤله ، بهذا السر الإلهي ! .

ومما يذكر ، أن الشيخ عمر الملا ، شيخ جامع الموصل ، وهو مربي نور الدين ومرشده ، كان يمضي رمضان المبارك بجواره ، فكان يتناول معه طعام الإفطار على مأدبة واحدة ، ليكون بعدها التزكية والتربية والتوجيه .

☆ ☆ ☆

لمحات من حياة هذا البطل المسلم المثالي :

١ ـ كان زاهداً بكل ما ملك ، لم يكن له بيت يسكنه ، بل كان مقامه في غرفة قلعة البلد الذي يحل فيه ، ولم يكن له راتب يتقاضاه ، إنما كان يأكل ويلبس وينفق على نفسه من مُلْكٍ له .

حكى رجل من المشتغلين بخدمته ، أن زوجته لم يكفها ما كان قرره لها من النفقة ، فقال : « فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلما قلت له ذلك ، تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ؟ أما يكفيها ما لها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ! إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هو لي ، فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ... وأنا خازنهم عليها ، فلا أخونهم فيها » .

٢ ـ انشاء المدارس : وهـذا من الفهم السليم لشريعـة القرآن ، فبـالعلم تبنى الأمم ، فبلغت المدارس والمساجـد المئـات في عصره ، وكان إذا أنشـأ مـدرسـة ، أوسع النفقة في بنائهـا ، واجتهـد في اختيـاره شيوخهـا ، وأوقف لهـا الأوقـاف الواسعة .

٣ ـ العناية بالصحة العامة : كما أنشـأ رضي الله عنـه المستشفيـات ، حتى لم يخـل بلـد من بـلاد المسلمين من مستشفى ، وقرر أن المستشفى العـام للفقراء ، ومن لا تمكنهم أسبـابهم من الاستعـانـة بـالأطبـاء ، أو الحصـول على الـدواء ، واستثنى من ذلك الدواء النادر ، أو الذي يحتاج تحضيره إلى عناية وضمير ، فقـد أباح للأغنياء الحصول عليه من المستشفى ، وتلك لمحة انسانية لا تقدر .

كما بنى للفقراء قصراً في ربوة دمشق ، لـلاستجمام كالأغنيـاء تمـامـاً ، يمكث به الفقير لا ينفق شيئاً ، فطعامه ومقـامـه على نفقـة الـدولـة ، ثم يكرم بمبلغ قوى به على نفقة عياله ويخرج ليأتي غيره من الفقراء ! .

٤ ـ الطرق والخانات : كما عني بالطرق وبالخـانـات لينزل بهـا المسـافرون ، قـام فيهـا من يحرسهـا ، ويحرس أموال النـاس ، فـإذا كان الطريق مخوفـاً أو قريباً من الأعداء ، أقام على مراحله الأبراج العاليـة المنيعـة ، وجعل فيهـا من يحفظها ومعهم الحمام الزاجل ، فإذا تهـدد البرج خطر أو عـدو ، أطلقت الطيور بالخبر ، فأخذ الناس حذرهم ، وأسرع الأمير إلى إرسال النجدات .

٥ ـ وكان نور الدين جنـديـاً حسن التكوين والتـدريب ، فـارسـاً يحسن الرمي بـالقـوس ، قضى أكثر من ربـع قرن على صهـوة جـواده تحت ظـلال السيوف ، حتى لقد تعب رجاله ، وقعـد بـالكثيرين منهم الإجهـاد عن الخروج بـالجيوش ، وأكلت السيوف معظم البقيـة ، أو أدركتهم الحتـوف ، وخلف هـذا

الجيل من أتراب نور الدين جيل جديد من الشباب ، نشؤوا وكبروا في رعايته ، واعتمد عليهم في جهاده .

٦ ـ يلاحظ المتصفح لسيرة نور الدين ، أنه كان دائم التنقل بين بلاده بحركة متصلة ، وهذا التنقل خطة منه ، ليبقى على اتصال دائم مباشر بالبلاد وجندها وموظفيها وأهلها ، وإلى هذا التجوال الدائم يرجع الفضل في استقرار أمور بلاده وضبط أمورها الادارية .

وكان إذا دخل البلد جلس للناس يسمع ظلاماتهم ، فخشي رجاله الخطأ أو التراخي ، وحرصوا على أن يكونوا عند حسن ظنه .

وكانت تلك سياسته مع قواده أيضاً ، فلا يدع لهم فرصة الراحة ، فما يعود الواحد منهم من بعث حتى يرسله في آخر ، ذلك أن خطته في تأمين بلاده ، كانت مبادأة الأعداء بالهجوم أبداً ، والإسراع إلى الجهة المهددة بمجرد أن يأتيه الخبر ، وكان جنوده دائماً على الأهبة ، فيخرج من ساعته بمن حضره ، ثم يتلاحق القواد بجنودهم بعد ذلك .

رحم الله نور الدين رحمة واسعة ، فقد كانت الشريعة وحدها أساس حكمه ، ومصدر قوته وفهمه ، ويشهد بذلك ما سبق من نقاط ، ويشهد أيضاً بذلك إلغاؤه الضرائب غير الشرعية ، وإقامة : « دار العدل » كمحكمة قاضيها هو نفسه ، يحاكم بها قواده وعماله ، عند شكاية أي مواطن من تظلم ما ، فعف بذلك قواده وعماله .



وأخيراً ... بالنسبة لحياة هذا البطل المجاهد المسلم : أنه ما كان ينخدع بإطراء خطيب ، أو مديح إنسان ، ومن دلائل حرصه على ألا يخدعه مادح ، أنه وجد خطباء المساجد يبالغون في الدعاء له ، ويصفونه بهذه العبارات الرنانة المسجوعة ، فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيسراني أن يوقف ذلك ، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيطة ، ليس فيها إلا ما يطابق الواقع من حاله وأفعاله ، فكتب له خالد صيغة هي : « اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين » .

فقرأ نور الدين نسخة الدعاء ، ورفضه وقال : مقصودي ألا يكذب على المنبر ، أنا بخلاف كل ما يقال . وأمر أن يكون الدعاء على الشكل التالي : اللهم أره الحق حقاً ، اللهم أسعده ، اللهم انصره ، اللهم وفقه ... ومن هذا القبيل .

ومع هذا التواضع ، كان مهيباً وقوراً ، شديداً في غير عنف ، رقيقاً في غير ضعف .

رحم الله نور الدين فقد كان من حفظة القرآن من الضياع .

☆ ☆ ☆

وغيرهم كثير .. ونحن لم نهدف إلى التطويل في الحديث عن هذه النماذج ولا السرد الممل لحياة أصحابها . ولو أردنا أن نضيف إلى هذه النماذج غيرها ، لأضفنا جوانب عديدة من حياة :

عبد الملك بن مروان

الذي وصف أنه آخذ بأربع ، وتارك لأربع : أخذ بأحسن الحديث إذا حدَّث ، وبأحسن الاستماع إذا حُدث ، وبأيسر المؤونة إذا حولف ، وبأحسن البِشر إذا لُقي . وتارك لمحادثة اللئيم ، ومنازعة اللجوج ، ومماراة السفيه ، ومصاحبة المأفون « ضعيف الرأي » .

كان في مجلسه رجل من خصوم الدولة الأموية ، فقال له الرجل : والله إن قلبي لا يحبك أبداً . فقال له عبد الملك : إنما يبكي على الحب النساء ، فليكن ما بيني وبينك العدل والإنصاف .

عرف عبد الملك[1] بالشجاعة والنجدة ، والفصاحة والبلاغة ، وبحرصه على الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم . حفظ الكتاب الكريم ، وقرأ العلوم الدينية من الفقه والتفسير والحديث على مشيخة الحجازيين في المدينة ، سمع من أبي هريرة ، وأبي سعيد الخُدْري وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ .

قيل له : يا أمير المؤمنين ! عجل إليك الشيب ، فقال : وكيف لا وأنا أعرض عقلي على الناس كل جمعة ؟ ! وقال : شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن .

ولكنه أطلق يد الحجاج بن يوسف الثقفي في الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير وفي العراق لحرب الخوارج .. وتنبه فيا بعد لكثرة سفك الدماء ، فكتب إلى الحجاج : « أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء ،

---

(١) حكم ما بين : ٦٥ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م .

وتبـذيرك في الأمـوال ، ولا يحتمـل أمير المـؤمنين هـاتين الخصلتين لأحـد من النـاس ، وقـد حكم عليـك أمير المؤمنين في الـدمـاء والخطـأ الـديـة ، وفي القَوَد « القصاص » ، وفي الأموال ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه ، فـإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسيان عنده منع الحق وإعطـاء بـاطل ، فـإن كنت أردت النـاس لـه فما أغنـاهم عنـك ، وإن كنت أردتهم لنفسـك فما أغنـاك عنهم ، وسيـأتيـك من أمير المـؤمنين أمران : لين وشـدة ، فـلا يـؤنسـك إلا الطـاعـة ولا يـوحشنـك إلا المعصيـة ، وظن بـأمير المـؤمنين كل شيء ، إلا احتمالـك على الخطأ ، وإذا أعطاك الظفر على قوم ، فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً » .

وهذا الكتاب ، كتاب رجل لا تأخذه لومة لائم في الحق ، فمصلحة شعبـه واكتساب محبته هدفه .

☆ ☆ ☆

هارون الرّشيد

يصـوره المستشرقـون صـاحب جـوار وأقيـان ، وترف وبـذخ ، وطرب وغناء ، فكأنه بطل قصص ألف ليلـة وليلـة ، وتصوره مراجعنـا العربيـة الأمير المثـالي ، فـأيها نصـدق : المستشرقـون أم مراجعنـا العربيـة الإسلاميـة ؟ المستشرقـون ينطلقـون من عـداء صليبي ضـد الرشيـد ، فهـو الـذي كتب إلى نقفـور : « من هـارون الرشيـد أمير المـؤمنين إلى نقفـور كلب الروم ، قرأت كتـابـك يـا ابن الكافرة ، والجواب مـا تراه دون مـا تسمعـه والسـلام » ، وكان بينهما ما كان من انتصار الرشيد وخـذلان نقفور . ونقفور هـذا تعتبره أوروبـة

مصلحاً دينياً ، فهم يشوهون حياة الرشيد انتقاماً لنقفور ، وحقداً على الرشيد . إذن ... مراجعنا العربية المختلفة المتعددة هي مصادرنا في حياة الرشيد ، الأمير المسلم ، ليس غير[1] .

قال ابن طباطبا : وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول ، وأكثرها وقارا ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعة مملكة ... ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء ، والفقهاء ، والقراء ، والقضاة ، والكتاب .... ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة ، وكان فاضلاً راوية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق والتمييز ، مهيباً عند الخاصة والعامة .

كما وصفه ابن طباطبا في كتابه الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٧٥ : أنه من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحج سنة ويغزو كذلك سنة ، مدة خلافته إلا سنين قليلة . قالوا : **وكان يصلي كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشياً ، ولم يحج خليفة ماشياً غيره .**

وورد في تاريخ بغداد : قال أبو معاوية الضرير أحد علماء الرشيد : أكلت مع الرشيد يوماً ، فصب على يدي الماء رجل ، فقال لي : يا أبا معاوية ! أتدري من صب الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، فقال : أنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! أنت تفعل هذا إجلالا للعلم ؟ قال : نعم .

---

(١) حكم بين عامي : ١٧٠ ـ ١٩٣ هـ ، أو : ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م .

☆ ـ راجع المصادر التالية : الفخري ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨ . تاريخ بغداد : ج ١٤ ، ص ٥ وما بعدها ، تاريخ الخلفاء : ص ١٩٠ للسيوطي ، الكامل : ج ٥ ، ص ١١٨ وما بعدها .

وبلغت بغداد في عهد الرشيد درجة عالية من الحضارة والعمران .. لذلك كتب السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء : « أيام الرشيد كانت كلها أيام خير ، كأنها في حسنها أعراس » .

★ هذه جوانب من حياة أمير المؤمنين هارون ا لرشيد : المؤمن ، المجاهد ، محب العلم والعلماء ، الأديب ، محب الرعية .. وسيمر معنا في صحائف هذا الكتاب قصته مع العالم الجليل الفضيل بن عياض ، وهي خير شاهد على عمق إيمانه ، وتقديره للعلماء .

☆ ☆ ☆

المأمون

من عقلاء الرجال[1] ، جمع علوم الحكمة والطب والرياضيات ... وأمر بنقلها إلى العربية . تحلى بكثير من الصفات التي امتاز بها عن سائر الخلفاء العباسيين ، من ذلك ميله إلى العفو ، وكراهته للانتقام ، قال المأمون عن الفضل ابن الربيع الذي حرمه من السلاح والعتاد الذي كان أبوه الرشيد قد أوصى بتسليمه إليه بعد وفاته : أما القتل فلا أقتله ، ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يُطَع ، وإذا دعا لم يُجَب .

- وتحلى المأمون بكثيرَ من الصفات التي ترجح كفة الحكم له في نظر المؤرخين .

- وضِع على مائدة المأمون في يوم عيد ، أكثر من ثلاثين لوناً ، فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته ، فقال يحي بن أكثم : يا أمير

(١) حكم ما بين عامي : ١٩٨ ـ ٢١٨ هـ ، أو : ٨١٣ ـ ٨٣٣ م .

المؤمنين ! إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته ، أو في النجوم ، فأنت هرمس في صناعته ، أو في الفقه ، فأنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في علمه ، أو في السخاء ، فأنت حاتم في كرمه ، أو في الحديث فأنت أبو ذَرٍّ في صدق لهجته ، أو في الوفاء فأنت السموءل بن عاديا في وفائه . فسُر المأمون بكلامه وقال : يا أبا محمد : إنما فضل الإنسان على غيره بالعقل ، ولو لا ذلك لكانت الناس والبهائم سواء .

ولكن مما نعيبه على المأمون ، على الرغم من صفات الصلاح والخير التي تجمعت في شخصه ، محاربته لحرية الفكر ، عندما ألزم الناس بأفكار وفلسفة المعتزلة . فكان الأوجب له أن لا يشجع المعتزلة ، ولا يحارب الأفكار المعادية للمعتزلة ، ويدع الفكر في مجال الجدل والمناقشة والمناظرة ، وليكن البقاء للأصلح والأجود .

☆ ☆ ☆

المُعتصِم

وصف المعتصم بسديد الرأي[1] ، والشجاعة ، والعطف وحسن التدبير ، حتى وصفه المسعودي في مروج الذهب : بحسن السيرة ، واستقامة الطريقة .

وكان شفيقاً بالفقراء والضعفاء ؛ رأى شيخاً ضعيفاً في يوم مطير قد غاص حماره في الوحل ، وسقط ما عليه من الشوك الذي يستعمله أهل العراق في التدفئة ، فأخرج الحمار من الطين ، وحمل الشوك فوضعه عليه ، ثم غسل يديه في غدير ، واستوى على دابته ، ولحق به حرسه بخيولهم ، بعد أن أمر بعض خاصته أن يُعطى هذا الشيخ أربعة آلاف درهم .

(١) حكم ما بين عامي : ٢١٨ ـ ٢٢١هـ ، أو : ٨٣٣ ـ ٨٤٢م

في زمن المعتصم ، تفاقم أمر بابك الخُرَّمي ، ودخلت أذربيجان تحت حوزته ، وأعانه ملك أرمينية ، وامبراطور الدولة البيزنطية :« تيوفيل » ، وانتشرت جيوش بابك ، تدخل الرعب في نفوس أهالي البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران .

ومع الدعم الذي لاقاه بابك الخرمي من تيوفيل ، جهز تيوفيل جيشاً وهاجم فيه« حصن زبطرة » ليخفف من ضغط المعتصم على بابك[1] حليفه . وقد أحرق تيوفيل المدينة ومثل بأهلها شر تمثيل ، وعاد إلى عاصمته مسرعاً خوفاً من هجوم عربي معاكس . فلما بلغ المعتصم هذه الأنباء المثيرة ـ وكان قد أخمد ثورة بابك الخُرَّمي وقضى عليها ـ هب من فوره ونادى بالنفير العام ، وسار في جيش هائل ، وهزم تيوفيل هزيمة شنعاء ، ثم هاجم أنقرة ودمرها ، واتجه إلى عمورية فحاصرها حتى سقطت في يده ، فخربها وأحرقها ، ثأراً لحصن زبطرة ، ورداً على دعم تيوفيل لبابك ، وجواباً لتحرشاته على الحصون العربية والدولة في ساعات حرجة ليخفف الضغط عن بابك الخرمي .

وعلق المستشرق ميور : «The Caliphate, P.519» على حكاية المعتصم مع الفقير الذي غاص حماره في الوحل ومساعدته له ، ومع فعل المعتصم في عمورية فقال بهزء :« ولقد رأى المعتصم من الشرف أن يضحي بمدينة زاهرة يبلغ سكانها مائتي ألف نسمة ، وتقدر ثروتها بالملايين ، ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده ، ولوث رداءه ، ليخلص شيخاً ضعيفاً وقع حماره في حفرة من الطين ، وأي هذه الأفعال قد ذكرها بالسرور والغبطة حين ناداه ملك الموت ؟» . وتناسى ميور فعل تيوفيل في زبطرة والدولة العربية

---

(١) البابكية : وصفهم نظام الملك : « أنهم رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر ، ونادوا بإباحة المحرمات ، والاشتراكية في النساء » . وهذه مبادئ مزدك الفارسي .

الإسلامية في ساعات حرجة ، وأن إحراق عمورية ، رد فعل طبيعي على عدو تطاول على حدود الدولة ! .

ولا يلام المعتصم ، إلا بحمل الناس على القول بخلق القرآن ، متبعاً بذلك وصية المأمون له ، فقد كتم وعطل حرية الفكر بسبب هذه الوصية ...وما دون ذلك قد يغفر له ، أمام قضائه على بابك الخُرَّمي ، وإظهاره عزة الإسلام في حروبه مع تيوفيل .

☆ ☆ ☆

نكتفي بهذه النماذج ، دون أن ننسى : صلاح الدين الأيوبي ، قاهر الصليبين ومحرر القدس ، والملك المظفر قُطُز ، قاهر التتار في عين جالوت ، وعبد الرحمن الثالث (الناصر)حيث بلغت قرطبة في عهده مبلغاً وصفت بأنها « جوهرة العالم »، بما حوته من تقدم في كل المجالات ، وبخاصة الثقافية منها . ويوسف بن تاشفين أمير المرابطين في المغرب العربي ، والمنتصر على الأفرنج في معركة « الزلاقة » في الأندلس ، عام ٤٧٩هـ ، فمد بذلك بقاء العرب المسلمين في الأندلس أكثر من أربعة قرون ، كان شعاره على النقود التي ضربها ،الآية الكريمة :« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » .

☆ ☆ ☆

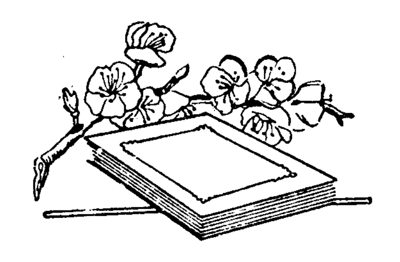
ولن نذكر أمراء انحرفوا عن الشريعة ، وضيعوا الميزان !...

□ فكل أمير في تاريخنا ، ما كانت سيرته كسيرة : أبي بكر ، وعمر ،

وعمر بن عبد العزيز ، والمنصور ، ومحمود بن زنكي ، فقد أضاع عناصر الميزان ، وابتغى غير الإسلام الكامل ديناً .

□ وعلى مقدار الاقتراب من الفهم السليم ، والتطبيق الكامل لميزان الشريعة ، يكون الاقتراب من سيرة أبي بكر وعمر ...حيث قناعة الرعية ، بأن كل ذي حق سيحصل على حقه ، ويعم الرفاه ، ويسود الاستقرار ...





علماء حفظوا القرآن

□فهموا عناصر الميزان ، ومثّلوا الإسلام تمثيلاً سليماً صحيحاً

□ليس هذا البحث ، تحت العنوان السابق ، بحثاً تاريخياً ، لسرد سيرة وترجمة عالم فهم الإسلام فهماً سليماً صحيحاً ، كما يجب أن يفهم .

□ فليس البحث الآن بحثاً في سيرة مَنْ فَهِموا ، بل ذكر ما فهموا .

□ولن استطيع استعراض كل العلماء المخلصين العاملين على مرّ التاريخ الإسلامي ، إنما هي نماذج تبنت الإسلام فتمثل في جميع جوانب حياتهم نوراًوضياء في حوالك الأزمات .

□ فمن الذين تمثل فيهم الإسلام ، وكان« ميزان الشريعة » مقياس حياتهم إلى حد بعيد :

سَعيد بن المسَيّب

كان الفقه لعهد سعيد بن المسيب[1] لا يقتصر على ما هو مصطلح عليه الآن ، من معرفة الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والأحوال

---

(١) البحث بتصرف زائد عن كتاب : « علماء في وجه الطغيان » للدكتور محمد رجب بيومي . سلسلة مذاهب وشخصيات .(الدار القومية للطباعة والنشر) وترجمة سعيد بن المسيب هي : سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي ، أبو محمد ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع ، وكان يعيش من التجارة بالزيت ،وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته . حتى سمي راوية عمر . ولد عام ١٣هـ أو ٦٣٤ م ، توفي بالمدينة عام ٩٤هـ أو ٧١٣م .

الشخصية . بل كان يشمل جميع ما يتصل بـالإسلام من سيرة وتـاريخ وتوحيـد وأخلاق وإرشاد وتربية .

ومع التفـاني في العبـادة ،نقلت عن أبي المسيب أقوال ترسم السبيل السـوي للمؤمن المناضل في الحياة ، فقد قال له مولاه برد : مـا رأيت أحسن ممـا يصنع هؤلاء :

فقال سعيد : وما يصنعون ؟

قال : يصلي أحدهم الظهر ثمَّ لايزال صافاً رجليه يصلي حتى العصر !

فقال سعيد وهو يزن أعمالهم في ميزان الشريعة : ويحك يا برد ...

أما والله ما العبادة هذه ، إنما العبـادة الكف عن محـارم الله ،والتفكير في أمره ، فالعابد التقي هو الذي يسعى إلى رزقه مجتنباً محـارم ربـه ، ولن تنفعـه عبادته وأمعـاؤه تتلوى ، وأطفـالـه يتضورون . فهـذه الخبرة الـدقيقـة بحقـائق العبادة ، وبأوهام الناس جعلته يصدر آراءه عن تجربـة ملموسـة ، وعين ترى ، وأذن تسمع .

□ ومن مواقف سعيـد الرائعـة : رفضـه أن يعطي ابنتـه للوليـد بن عبـد الملك ليتخذ الوليد ووالده من ذلك دعامة تجـذب نحوهمـا الأنصـار والأتبـاع ، فيحتقر سعيد رغائب الدنيا ويستهولها ، لأنه يرفض أن يكون مطية .

ثم يعجل بزفـاف وليـدتـه إلى طـالـب علم فقير لا يملـك غير قوت يومـه ، هو : عبد الله بن وداعة ، فأي ملاك هذا الذي سما بـإنسـانيتـه الرفيعـة ، فوق المقاييس الهابطة ، إلى أوج رحيب تضيئه العزة ويغمره الجلال ، إلا أن يكون عالماً رفعه الإسلام من حضيض البشرية الطامعـة ، إلى سماء المثـاليـة الرائعـة ، ذلكم هو سعيد بن المسيب .

ولما استخلف الوليد بن عبد الملك قدم المدينة ، فدخل المسجد ، فرأى شيخاً قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : سعيد بن المسيب . فلما جلس ، ارسل إليه ، فأتاه الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال سعيد : لعله أرسلك إلى غيري ... فغضب الوليد لما عاد إليه الرسول . وهَمَّ به فقال له جلساؤه : ياأمير المؤمنين ، فقيه المدينة ، وشيخ قريش ، لم يطق أباك من قبلك ...

ففي دولة الإسلام العلم يؤتى ولا يأتي ، ولكن في أحوال الدعوة : الإسلام يقوم للتبليغ كما حدث أيام التتار .

□ صلى الحجاج ذات يوم صلاة عاجلة ، لم يتم ركوعها وسجودها ، كما يجب . فأخذ سعيد كَفًّاً من الحصى ورماه به . فاستخذى في صلاته ، وأخذ يطمئن .

هذا الإيمان القوي ، وهذ الاعتزاز بالحق ، وهذا الورع الرفيع الأخاذ ... قد أضفى على الرجل حلة زاهية من هيبة الإيمان ، وجلال الإسلام وكماله .

☆ ☆ ☆

سعيد بن جبير

(سيّد التابعين) (١)

بلغت قوة الحجاج بن يوسف الثقفي بالعراق مبلغاً أثار النفوس ، وأشعل

---

(١) سعيد بن جبير الأسدي ، بالولاء ، أبو عبد الله ، كان أعلم التابعين على الإطلاق ، حبشي الأصل ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر . ثم كان ابن عباس ، إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه ، قال : أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء ؟ يعني سعيداً .

قال الإمام أحمد بن حنبل : قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه .

ولد سعيد عام /٤٥/ هـ/٦٦٥م ، وقتله الحجاج بواسط عام : ٩٥هـ/٧١٤م .

الصدور ، وطبيعي أن يحدث عدوانه موجة استياء تغمر القلوب . وكان الذين وضعوا ـ الميزان الشرعي ـ مقياساً لأعمالهم ولما يرون ، مستائين ومتذمرين من هذا البغي الصريح . فهم يرون النفوس ترد حتفها بغير حق .

وكان في طليعة المستنكرين ، سيد التابعين سعيد بن جبير .

سعيد صاحب الذخيرة الحافلة في الفقه كما كان يفهم في العهد الأول ، ولو تأخر الزمن بسعيد إلى عهد التدوين والتأليف ، لقرأنا من كتبه ما يعين على تحديد موضعه بين أفذاذ الفقه الإسلامي ، فهو الذي مهّد لظهور أبي حنيفة ومالك ! .

كان شجاع اللسان ، جريءالقلب ، يقول الحق السافر دون أن تأخذه في الله لومة لائم ، وجرأة القلب لم تزل دافعه إلى التحرش بالباطل ومهاجمته ، ولا سيما بعد أن استندت إلى رصيد ذهبي من التبصر والذكاء .

ورغم مظالم الحجاج ، شارك في بعض الوظائف مشاركة فعالة ، ليدرأ بها ما قد يحيق به من كيد وعدوان .

أما منطق عصرنا ، ياغيرة الله : سيد التابعين عند الحجاج ؟

وجوده ، خير من عدمه ، ليدفع ما أمكنه أن يدفع على ضوء « ميزان الشريعة » فإن وجدَ عند الحجاج ، وجد لمصلحة الشريعة ، ولا يعني ذلك مطلقاً ، أنه باع دينه ؟!

ولقد قال بعضهم : أولى به أن يترك الحياة جانباً ، ويتفرغ للفقه في إمارة ظالمة أميرها الحجاج ، ولكن ارجع إلى « الميزان الشرعي » :

كفاح المجاهد المخلص يجلب منافع صائبة ، ويدفع نوائب كارثة ، وإذا

تعاون المصلحون في أوقات الطغيان على الخير ، أسهموا في الكفاح ، وانهم لا بد واصلون إلى بعض ما يبتغون من السداد ، ولئن لم يتمكنوا من إخماد النار المشتعلة ، فهم على الأقل يحصرونها في نطاق أضيق .

وإذا كان الحسن البصري (معاصر سعيد)، وقريعه في الفقه والتقوى ، قد اعتزل وظائف الدولة ، وشاء لنفسه أن يقتصر على النصيحة والتوجيه في رفق وحيطة . فليس لنا أن نجبر سعيداً على ارتسام منهجه ، فالانطوائي في كل عصر لا يساهم في توجيه ، ودرء المفاسد ، كما يقوم به المكافح المجاهد[1] .

ومن يرىء أن موقف الحسن صائب وموقف سعيد خاطئ ، لا يعلم أن الإسلام دين كفاح وعمل ، وليست قيمة الورع أن تعتزل المناصب ، وتترك ميدان العمل لفاسق فاجر ، بل عليك أن تزهد وتتورع والدنيا في يدك ، تصرفها « بميزان العدالة المنصف »، فتدفع شراً يطرأ ، وتجلب خيراً يتاح . ولم يتخلف سعيد بن جبير عن الغزو والجهاد .

فقد خفَّ إلى مقاتلة« رتبيل » (ملك الترك حين تحرش بالمسلمين ، وهاجم سجستان) عندما سار إليه عبد الرحمن بن الأشعث لتأديبه ، ولما فتح عبد الرحمن الثغور والمناطق ووقع هدنة مع الترك ، عنفه الحجاج وعزله ، لذلك ثار عبد الرحمن على الحجاج ، وأيده سعيد بن جبير فحاكمه الحجاج بعد عودته من سجستان .

ومحاكمة سعيد ، حدث رائع يسجل آيات البطولة من مسلم يثق بعدل الله ورحمته ، ويرى من المحتم أن يجابه الطغيان في جبروته ، ولا عليه إذا كانت نتيجة ذلك قاسية أليمة ، فهو يعلم في ميزان الشريعة أن حياة الذل والخنوع

---

(١) « علماء في وجه الطغيان » ، ص : ١٥ وما بعدها .

لا تقاس بمكانة الشهادة العالية . لقد أذل بكبريائه قسوة الحجاج في المحكمة ، وحطم غروره . بل إن سعيداً قد أبى أن يهرب من طريقه إلى المحاكمة ، وقد مَهَّد له الحارس سبيل الفرار . أبى ذلك . ولقد انتفخ الحجاج في جلسته وسأل في استخفاف :

ـ ماااسمك ؟

فسمع سعيداً يجيب في صلابته وعزته :

ـ اسمي سعيد بن جبير .

ولكن الحجاج يتهكم ويقول باستخفاف ثانية :

ـ بل شقي بن كُسير .!!

فيندفع سعيد ليجيبه بقوله : أبي كان أعلم باسمي منك .

وإذ ذاك يتضايق الحجاج ، فيصيح في تبرم وغيظ .

ـ لقد شقيت وشقي أبوك . وظن أنه بذلك قد قطع الرد على غريمه ، ولكنه يسمع سعيداً يجيبه :

ـ الغيب إنما يعلمه غيرك .

فيستشري غيظه ويلجأ إلى الوعيد والتهديد فيصيح : لأبدلنك ناراً تتلظى .

وهنا يرده سعيد إلى الحقيقة فيقول له في بساطة هادئة :

ـ لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت إلهاً غيرك !

طالت الاسئلة ولم يصل الحجاج إلى افحام غريمه ، فسلك مسلك آخر ، فقال :

ـ ماقولك في محمد ؟

ـ فصاح سعيد : نبي الرحمة ، وإمام الهدى بعثه الله رحمة للعالمين .

ـ الحجاج : وما رأيك في علي ؟ أهو في الجنة أم في النار .

ـ سعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها لعرفت أهلها . فأقفل بسداده الحازم باب اللجاجة في وجه أموي حاقد .

ـ الحجاج : مارأيك في الخلفاء ؟

ـ سعيد : لست عليهم بوكيل .

ـ الحجاج : أتريد أن أعفو عنك .

ـ سعيد : إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا تملك عفواً عن إنسان .

ـ الحجاج : اختر أي قتلة تريد أن أقتلك بها .

ـ سعيد : بل اختر يا عدو الله لنفسك ، فوالله ما تقتلني اليوم قتلة ، إلا قتلك اللهفي الآخرة بمثلها .

وكانت آخر دعوة ترددت بها أنفاس سعيد بن جبير الطاهرة : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي ، لعل الله استجاب دعاه كان عالماً عاملاً شهيداً ...

فمات الحجاج بعد مصرع غريمه بخمس عشرة ليلة ، دون أن يريق لإنسان دماً ، وحسم الموت شره عن الناس .

لقد آثر سعيد الشهادة والدار الآخرة ، فهو من ذوي النفوس الرفيعة والمعدن الأصيل ، لقد كان « ميزان الشريعة » مقياسه في أعماله ، ومنطلقه إلى جهاده ، وقناعته وتصرفاته وأحكامه .

لقد كان الحجاج يستيقظ فزعاً ويصيح : يا قوم مالي ولسعيد بن جبير ! كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي ، ومات الحجاج وهو يذكر في احتضاره سعيداً وهذا يذكّر بقول القائل :

اثنان لا يتهادنان دقيقة :
شبح الضحية والضمير المذنب .

☆ ☆ ☆

الحسن البصري

كثرت الاموال في المجتمع الإسلامي ، وكثرت معه أدوات الترف ، واشتدت الاغراءات المادية ، وفعلت فعلها في المجتمع حتى أشرف الإيمان ، والعمل الصالح على الضياع والتلف ، وبها تمتاز هذه الأمة عن غيرها من الأمم ، وفيها سرُّ قوتها وانتصاراتها . وهما تراث النبوة . وأصبحت الأمة تتقدم بخطى واسعة إلى انهيار في الأخلاق والروح .وخمود في العاطفة والشعور الديني وضعف في صلتها بالله[1].

---

(١) راجع رجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي ، صفحة : ٦٦ وما بعدها ، « اصدار دار القلم الكويت ، ط ٣ سنة ١٩٦٩ » . وهو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، تابعي ، إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه . ولد بالمدينة . وشب في كنف علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال الغزالي : كان الحسن البصري ، أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ، وأقربهم هدياً من الصحابة ، وكان غاية في الفصاحة ، تنصب الحكمة من فيه . ولد عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م . وتوفي عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ م .

وكان ذلك نذيراً بكارثة كبرى ، كارثـة أصيبت بهـا الأمم من قبل ، وهي الإفـلاس في الإيمـان والروح والاخـلاق ، وهي خسـارة لا تعـوضهـا الـدول والحكومات والفتوح المادية والسياسية ، ولا بقاء لأمة ـ ذات رسالـة وعقيـدة ـ بعد ذلك .

بدت طلائع هـذه الفـاجعـة في الأفق ، وعلى من يريـد منعهـا أن يملـك المؤهلات التي يستطيع بهـا أن يواجـه مجتمعـاً انحـدرت فيـه القيم . بـل ضعفت صلته بالله ، ضاعت الإنابة ، إلى عزوف عن حقيقة الإيمان واستهانة بـالمظـاهر الإيمانية .

أين الشـوق إلى الشهـادة ، الخشـوع في الصـلاة ، لـذة الـدعـاء ، العطف والمواساة ، الإيثار ؟ إلى غير ذلك مما هو نتيجة الإيمان القوي العميق ؟

في هـذه الحـالـة ، بـدأ الحسن البصري ينتقـد المجتمـع ، نـزل إلى أعمـاقـه ، ووصف مرضه ، انتقده انتقاد الحكيم الرفيق ، الناصح الشفيق ، كان يمس قلب المجتمع ، وينزل في صميم الحياة ويعارض تياره .

ما نجح الحسن البصري لمواعظ وخطب كان يلقيها ، بل كان يعنى بتربيـة من يتصل به ويجـالسـه ، فكان جـامعـاً بين الـدعوة والإرشـاد ، وبين التربيـة العملية والتزكية الخلقيـة والروحيـة ، فـاهتـدى بـه خلائق لا يحصيهم إلا الله ، وذاقوا حلاوة الإيمان ، وتحلوا بحقيقة الإسلام ، وقـد صـدق عوام بن حوشب إذ قال :

« ما أُشَبِّهُ الحسن إلا بنبيٍّ أقام في قومه ستين سنة يدعوهم إلى الله[1]» .

---

(١) دائرة المعارف للبستاني ، ج ٧ ، ص ٤٤ .

فهو أسوة لكل عالم منتج ، ولو اقتدى به الجميع لما حرمت الامة من سعادة تعاليم الإسلام ، وبركات نتائجها في المجتمع ، ولا ندري إلى متى سيكتب لهذه التعاليم أن تبقى ضمن المسجد حركات وفقه وضوء ... وتعيش الجاهلية في البيوت والأسواق ...

☆ ☆ ☆

عمرو بن عبيد

عالم مثالي على الرغم من اعتزاله[1]، حسبه شهادة الحسن البصري فيه :

□ « عمرو ! من عمرو ؟ رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد لأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نَهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه » .

شتمه خصومه وجرحوه ، فقال له تلميذ يوماً : يا أبا عثمان إني لأرحمك مما يقول الناس فيك .

فقال : يا ابن أخي ! سمعتني أقول فيهم شيئاً !

قال : لا .

قال : فإياهم فارحم .

---

(١) عمرو بن عبيد : « ٨٠ ـ ١٤٤ هـ » ، « ٦٩٩ ـ ٧٦١ م » . عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء ، أبو عثمان البصري ، شيخ المعتزلة في زمانه ، ومفتيها ، وأحد الزهاد المشهورين ، اشتهر بعلمه وزهده . له رسائل وخطب وكتب ، منها : « التفسير » و « الرد على القدرية » توفي بمران قرب مكة ، ورثاه المنصور .

وهكذا فقد جعل عمرو بن عبيد « ميزان الشريعة » الدقيق في حديثه السابق :

﴿ وعبادُ الرحمنِ الذين يمشونَ على الأرضِ هوناً ، وإذا خاطبَهُمُ الجاهلونَ قالوا سلاماً ﴾ (الفرقان / ٦٣) .

□ استدعاه أبو جعفر المنصور ، فذهب إليه ، وما قيل : العالم في باب الحاكم أم الحاكم في باب العالم ؟ المهم اللقاء لخير دين الأمة وخير دنياها .

□ وقد أبدى رأيه في ولاية العهد ، لا بل رأي « ميزان الشريعة » واضحاً جليّاً دون خشية بشر ، فقال إنه مفسدة تضر الدولة ، وتقدم الفَشل الكسول لتحيل إليه الأمور ، مكان الحازم الاداري الصبور . فليواجه بها أبا جعفر المنصور ، ليكون على بصيرة مما تحت قدمه من بركان ، أما حاشيته المتملقة ، فلا بد أن ينالها نصيب اللوم والتفريط .

وعند لقاء المنصور ، قرأ عمرو بن عبيد على أبي جعفر : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ... إلى قوله عز وجل ... إن ربك لبالمرصاد » . وكرر الآية الأخيرة بتحد وجرأة عنيدة . ففهم المنصور ، وأخذته رعشة وبكى .

ثم قال عمرو : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ، ثم أفضى إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك . وإني لأحذرك ليلة تتمخَّضُ صبيحتها عن يوم القيامة يا أمير المؤمنين .

□ فقال سليمان بن مجالد ، كبير حاشية المنصور : رفقاً بأمير المؤمنين ، فقد أتعبته منذ اليوم !

فقال عمرو : مَنْ أنت ؟ !

فقال أبو جعفر : أولا تعرفه يا أبا عثمان !

قال : لا ، وما أبالي ألا أعرفه .

فأجاب المنصور : هذا أخوك سليمان بن مجالد ،

فضحك عمرو متهكماً وقال :

هذا أخو الشيطان ، ويلك يا ابن مجالد ! خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين ، ثم أردتَ أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته . ياأمير المؤمنين ، إن هؤلاء اتخذوك سُلَّماً لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين ، وغيرك يحلب ، فاتق الله فانك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ، ومبعوث وحدك ، ولن يغني عنك هؤلاء من ربك شيئاً .

فقال المنصور : يا أبا عثمان أعني بأصحابك ، فاستعين بهم دون هؤلاء .

فرد عمرو بن عبيد في قوة : أظهر الحق يتبعك أهله .

قال أبو جعفر : هذا ابني محمد وهو المهدي ولي عهد المؤمنين .

قال عمرو : والله لقد سميت اسماً ما استحقه بعمل ، وألبستَهُ لبوساً ما هو من الأبرار ، ومهدت له أمراً أمتع ما يكون به ، أشغل ما تكون عنه .

أبو جعفر : هل من حاجة .

عمرو : نعم !

أبو جعفر متعجلاً : وما هي ؟

عمرو : ألا تبعث إليَّ حتى آتيك !

أبو جعفر : اذن لا نلتقي !

عمرو : عن حاجتي سألتني ، ونهض قائماً ، فودَّعه الخليفة ، ومكث حائراً لا يدري ما يصنع .

□ كان أبو جعفر يردد :

كلكم طالب صيد ، كلكم يمشي رويداً ، غير عمرو بن عبيد .

فأيٌّ عالم ذلك الذي رَنَّح أوتار الخليفة ، حتى دفعه إلى مديحه بشطرات من الشعر ؟ !

□ فكيف ذهب عمرو بن عبيد إلى أبي جعفر المنصور ؟ أين « ميزان الشريعة » من ذهابه ؟ !

ـ لقد ذهب النبي إلى الطائف ، وعرض صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل ، فمن لا يأتي ليبلَّغ ، يُذهب إليه للتبليغ فالتبليغ هو الهدف ولا يهمنا كان هنا أو هناك ، ولقد أمر الله موسى وهو نبي من أولي العزم أن يذهب إلى أكبر طاغية :

□﴿ **اذهَبْ أنت وأخوك بآياتي ولا تنِيا في ذكري ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى** ﴾ (طه / ٤٣) .

ليس هذا فحسب ، بل أمرهم الله بمخاطبته باللين والرفق لعل مغاليق نفسه تتفتح ، فبالشتائم والسباب والسلبية لا يتحقق معروف وخير :

□ ﴿ فَقولا لَهُ قولاً ليِّناً لَعلَّه يتذكَّر أو يخشى ﴾ . (طه / ٤٤) .

فهم « ميزان الشريعة » واجب ، وواضح لا لبس فيه ، أما أن نصدر أحكاماً ونفتي بما لا نعلم ، فخطر على الإسلام والمسلمين ، الغلطة دقيقة في حياتنا ، عثرة واحدة ، غلطة واحدة ، كافية لقطع صلتنا بالإسلام . غلطة ،

لا حكمة ، لا تفكر ، لا تريُّث ، تُعَرِّض للخسارة ، وتفرض على الأجيال القادمة ، أن تعيش حياة ليس للإسلام فيها نصيب من قريب أو بعيد ...

فلنكن على حذر فيما نقول ونفكر ، لأن الوزر كما أسلفنا عظيم وكبير .

☆ ☆ ☆

أبو حنيفة

« التشريع لمصلحة المسلمين »[1].

□ يقوم المذهب الحنفي على ثلاثة أصول هي « عناصر الميزان » :

١ ـ القرآن : وهو المأخذ الثابت للشريعة .

٢ ـ ثم الحديث .

٣ ـ ثم القياس ، الذي أدخل فيه عنصراً جديداً سماه « الاستحسان » ، بحيث يرجع فيه إلى حكم العقل والأخذ بما هو حق وعدل ، والعدول عما يتضح أنه جائر أو مناف لصالح المجتمع ، غير أن هذا الاتجاه بما تَضَمَّن من حرية الرأي ، عاد من بعد أبي حنيفة فجمد إلى فكرة الأخذ بالسوابق ، التي جرى عليها المتقدمون من الفقهاء خوفاً من الاستشاطة .

□ كان أبو حنيفة النعمان غنياً يتجر بالحرير ، فأَهَّلَهُ غناه إلى أن ينصرف إلى التأدب والتفقه في الدين .

بينما اليوم ، ولا ندري لماذا ، إلا أن يكون اتباعاً ، يعابُ على العالِم الغني

---

(١) راجع « سير ملهمة » ، صفحة ١٦ . وهو أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، التيمي بالولاء الفقيه المجتهد المحقق ، أحد الأئمة الأربعة ، كان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه ، ثم انقطع للتدريس والافتاء . امتنع عن القضاء ورعاً . ولد بالكوفة عام ٨٠ هـ / ٦٩٩ م . توفي ببغداد ودفن بشرقيها عام : ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م .

غناه ، لهوى النفس لا لشريعتنا الغراء . وأغرب من هذا أن يقال « وَلِي » ، لهَرِم لا علم في عقله ، فقير مدقع ، يهذي بما لا يفهم .

من قال إن العالم يجب أن يموت من جوعه كي يكون ورعاً زاهداً عليماً مخلصاً ؟

إن الزهد عمل قلبي فكثيراً ما نلاحظ ، هنالك فاقداً للمال وهو معلق بكل جوارحه بالدنيا .

وهنالك مالك للمال ، وهو زاهد القلب به ، والشريعة تقول :

﴿ ... اسْتغْفِروا ربَّكم إنَّهُ كانَ غَفَّارا ، يُرسِلِ السماءَ عليكم مِدْرارا ، ويمددكم بأموالٍ وبنينَ ويجعل لكم جَنَّاتٍ ويجعل لكم أنهارا ﴾ . (نوح/ ١٠/ ١١/ ١٢) .

الزكاة فريضة ، ركن ... فرضت على المسلمين ، ولكي يدفعها المؤمن المسلم ينظر في حاله إن كان غنياً أو فقيراً ؟ ! فالمؤمن غني ، لأن الغنى قوة ، والمؤمن قوي عزيز كريم ، والكرامة ثوب رقيق يمزقه الفقر .

والأحاديث الشريفة تثبت أن على المؤمن أن يكون غنياً قوياً :

□« ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا من ترك آخرته لدنياه ، ولكن يصيب منهما جميعاً ، ولا يكون كلاًّ على الناس[١]» .

□ « لاتسبوا الدنيا ، فنعمت المطية للمؤمن ، عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر[٢] » .

---

(١) الحاكم عن أنس .

(٢) الديلمي عن ابن مسعود .

أبو حنيفة : بما ملك من عظمة شخصيته ، وعزة نفسه ، ورصانة خلقه ، وشدة احساسه بالكرامة ... كان قمة شماء بين المجاهدين الأماثل ، كانت الشريعة بميزانها منهجه في كل أعماله ومواقفه ، ونذكر من مواقفه التي جعل فيها « ميزان الشريعة » نصب عينيه .

□ جمع المنصور العلماء ليأخذ رأيهم في أهل الموصل حين اشترط عليهم أن يستحل دماءهم إذا انقضوا على حكمه ، ثم ما لبثوا أن خالفوا الشرط ، فهبوا ثائرين . وقال أبو جعفر : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون عند شروطهم » .

فرد أحد الحاضرين : يدك يا أمير المؤمنين مبسوطة عليهم ، وقولك مقبول فيهم ، فإن عفوت فأنت أهل العفو ، وإن عاقبت فبما يستحقون .

فنظر الخليفة إلى أبي حنيفة : وماذا تقول أنت ؟

فرفع أبو حنيفة وجهه - نضر الله ذلك الوجه - وقال : إنهم اشترطوا لك ما لا يملكونه ، وشرطت عليهم ما ليس لك . لأن دم المسلم لا يحل إلا في ثلاث ، وشروط الله أحق ما توفي به . وهنا تتجلى روعة ميزان الشريعة عند أبي حنيفة حيث لا يقتل مسلم إلا في ثلاث كما أوضح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (رواه البخاري ومسلم) .

□ تذكر المنصور أن يزيد بن هبيرة ، قد عرض عليه القضاء أيام الأمويين ، فرفض ، فكان نصيبه السجن والضرب بالسياط : (والله لو أراد ابن هبيرة أن أعُدَّ له أبواب (واسط[1]) ، لم أدخل في ذلك . فكيف وهو يريد

---

(١) واسط : بلد سمي بالقصر الذي بناه الحجاج بين الكوفة والبصرة ، وهو مذكَّر مصروف لأن أسماء البلدان الغالب عليها التأنيث وترك الصرف ... « راجع مختار الصحاح : ص ٦١٩ » .

أن يكتب بضرب عنق رجل مؤمن وأختم أنا على ذلك الكتـاب ، والله لاأدخل في ذلك أبداً) .

فعرض المنصـور عليـه القضـاء ، فرفض وأصر . حلف أبـو جعفر ليفعلن ، فحلف أبو حنيفـة ألا يفعل ، وقـال : إني لا أصلح للقضـاء . فقـال الربيـع بن يـونس وزير أبي جعفر : ألا ترى أمير المـؤمنين يحلف ! فرد أبـو حنيفـة في صراحة عنيدة : أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه مني .

فأمر به أبو جعفر فقيد إلى السجن ، واستدعاه بعد أيام وسأله :

- أترغب عما نحن فيه ؟

فأجاب : أصلح الله أمير المؤمنين ، لا أصلح للقضاء .

فصاح المنصور منفعلاً : كذبت .

أبو حنيفة : لقد حكم علي أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء ، لأنه ينسبني إلى الكذب ، فإن كنت كذاباً فلا أصلح ، وإن كنت صادقـاً فقـد أخبرت أمير المؤمنين بعدم صلاحيتي للقضاء .

□ جُلد أبو حنيفة مـائـة وثلاثين سوطـاً ، فخرج عبـد الرحمن بن علي بن عباس عم الخليفة فصاح به : لقد سللت على نفسك مائة ألف سيف ، هذا فقيه أهل المشرق يضرب بالسياط في غير جرم ، دون أن تخشى انتقام السماء ؟

فأطلق المنصور سراحه ، وأرسل إليه ثلاثين ألف درهم ، فردها فقيل لـه : لو تصدقت بهـا على المحتـاجين ، فقـال : ومن يضمن لي أنهـا جمعت من طريق حلال .

ثم جـاءتـه الأخبـار تنبيء وفـاة أبي حنيفـة ، متـأثراً بجراحــه ، فـأطرق المنصور ، يستعرض عجائب بطولته .

مَالك بن أنس

« إمام دار الهجرة(١) »

« أيفتى ومالك في المدينة ؟ »

□ نشأ في البيئة التي نزلت فيها الرسالة الإسلامية ، ورأى بعضا من صحابة الرسول ﷺ ، ممن كانوا أحياء حين حياته ، فكان الحجة في فقه الدين وتفسير النصوص على المبادىء التي أخذت عن النبي .

وكتابه « الموطأ » هو أول كتاب ألِّف في الفقه الإسلامي ، اتخذ فيه « القرآن » وجملة من الأحاديث الصحيحة أساساً في إخراجه ، معتمداً في انتقاء الأحاديث على رواة ثقات ، سمع منهم مباشرة ، بعد شهرتهم بالصدق والأمانة والتقوى .

لقد بنى أحكام الموطأ على ميزان شرعي دقيق : على القرآن : وعلى جملة من الأحاديث النبوية ، وقال : بأن أصول الفقه تقوم على الإجماع ، وقصد به إجماع فقهاء المدينة بوصفها مركز الفقه الإسلامي في عصره ، ومبعث نوره ومأوى رجاله وثقاته . « ولقد خالفه أبو حنيفة النعمان لاستئثاره بالرأي لفقهاء المدينة في غير صالح المسلمين ، وإيصاده باب الاجتهاد عند فقهاء غيرها من الأمصار الإسلامية » .

أما « السُّنة » التي اتبعها في إقامة مذهبه فترجع إلى أصلين : « الإجماع » و « القياس » .

---

(١) (سير ملهمة) ، ص : ٤٦ . وهو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري ، أبو عبد الله ، مولده ووفاته بالمدينة المنورة (٩٣ ـ ١٧٩هـ / ٧١٢ ـ ٧٩٥ م) . كان صلباً في دينه . كتابه الموطأ أول كتاب ألف في الفقه الإسلامي ، وعقّب على الموطأ بما سماه « المدونة الكبرى » . انتشر مذهبه في صعيد مصر ، وشمالي إفريقيا ، وعُمان والبحرين والكويت . دفن بالبقيع .

الإجماع : وكانَ عنده قائماً على ما يُجمِع عليه فقهاء المدينة وكانت في ذلك العصر مرتع فقهاء الإسلام . أما القياس : فقيَّده بما سماه « الاستصلاح » ، وقصد به عدم الأخذ به إذا كان في ذلك ما يضر بمصالح المسلمين .

□ عاصر مالك أبا حنيفة ، واشتركا في محنة واحدة ، حين اشتركا في الإفتاء ضد أبي جعفر المنصور . والفرق بينهما أن أبا حنيفة مجانب لايقرب السلطان ، ومالك يرى المنفعة في زيارة أولي الأمر ، ومع ذلك لم يعترض أحدهما على الآخر ، ما أجمل الأدب ، واحترام رأي الآخرين ؟ !

□ قال مالك رضي الله عنه : حقّ على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل إلى ذي سلطان ، فيأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره ، فإن وعظه ونهاه فهو الفضل الذي ليس بعده فضل .

بئس العالم على باب الأمير : إذا دخل للمداهنة ، أو الإقرار على ظلم ، أو للتمجيد والدسيسة ، إن دخل للمراءاة والمطالبة بباطل .

أما إن دخل على الأمير : لما قاله الإمام مالك ، فهو فرض على العالم ، ولكن لسوء ظن المسلمين بعلمائهم يشوهون دخولهم وأهدافهم من الدخول على السلطان !

□ سُئل الإمام مالك : لماذا تدخل على السلاطين ؟ وهم يجورون ويظلمون ! فقال للسائل : رحمك الله ، وأين التكلم بالحق ؟ !

□ ورغم موقف مالك ، وهو بلا شك موقف سليم ، بقي جلال العلم ، ووقار الإيمان يلفانه بهالة وضاءة ذات تقدير وإكبار ، فإن لم يسع إليه الحاكم سعى إليه هو .

واختلاف الإمامين « أبي حنيفة ، ومالك » في هذه الناحية ، مما غرسه الله في قلوب البشر ، إذ لو شاء سبحانه ، لجعل النـاس أمـة واحـدة ، ولكل وجهـة هو موليِّها .

ومع ما سبق ... لقد سعى إليه الخليفة المهـدي إلى منزلـه ، ووراءه حشـد من الأتباع والأجناد ، وظن الناس أن مالكاً رضي الله عنه سيسرع بالاستقبـال على عجلة واندفاع ، ولكن الوقت يطول داخل منزله لا يبرحه والخليفـة حرج لايدري ماذا يصنع أمام رعاياه ، وبعد صبر ، خرج الإمـام متئـد الخطو يقول في صراحة بريئة : كنا نصلح منزلنا دون عجلة ليرى الناس لدينـا ستر السماء ، ونعمة الله .

وألح عليه المهدي أن يسعى إلى قصره ليعلِّم ابنيه موسى وهارون ، فقال : لا يـاأمير المؤمنين ، العلم يؤتى ولا يـأتي ، واضطر الخليفـة أن يبعث ولـديـه ، فكانا يقفان على المنزل فيدقان الباب والريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق[1] ، حتى يأتي الإذن ، فيسرعان بالدخول .

□ فكيف كان يدخل على ذي السلطان ، وهنا يرفض إلحـاح المهـدي أن يسعى إلى قصره ليعلِّم ابنيه ؟ الأمر واضح بسيط :

١ ـ الموقف الأول : ذهب للتكلم بـالحق ، ذهب لمصلحـة المسلمين عـامـة ، ذهب ليأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ذهب للنصح .

٢ ـ وفي الموقف الثـاني : تعليم ، طلب للعلم ... فليـأتيـا إن أرادا التـأدب والتعلم والتفقه . فليس بين الأمرين تناقض .

□ زاره الرشيـد في المـدينـة ، وجلس بين يـديـه وسمع منـه ، ودخل مرة

---

(١) العقيق : واد بظاهر المدينة . (مختار الصحاح : ص : ٣٨٢) .

فقال له مالك : من تواضع إلى الله رفعه ، ومن تكبر وضعه ، فقال الرشيد : ماذا صنعت ؟ « وكان قد دخل مجلس الحديث ، وأخذ مكانه إلى جوار مالك » .

فيقول مالك : إن من إجلال الله ، إجلال ذي الشيبة المسلم في مجلس علمه ، فقم واقعد بين يدي ، فأسرع الرشيد ممتثلاً .

ألم نقل إن جلال العلم ، ووقار العلماء يلفانه بهالة وضاءة ذات تقدير وإكبار ...

□ لقد احتفظ مالك بتوازنه بعد محنة المنصور ، على حين مات أبو حنيفة متأثراً بسياطه ، فسعى المنصور إليه بعد أن جلده عامله على المدينة ، معتذراً متندماً . وأخذ يحلف أن عامله على المدينة ، هو الذي قام بجلده دون مشورته ، وأتقن الدور ، فعزل العامل وعذَّبه ، وبالغ في احترام مالك وتوقيره مبالغة ورثها عنه ولده المهدي ، ثم حفيداه : موسى وهارون .

لقد جعلت عظمة الإيمان ، وجلال العلم ، وثبات اليقين متجمعة في مالك ، أن يقول أبو جعفر :

ـ « والله الذي لاإله إلا هو ، ما أَمَرتُ بالذي كان ، ولا علمته ، وإنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإني أخالك أماناً لهم من عذاب الله » .

رحم الله مالكاً ، فقد كان قدوة وأسوة في جهاده ، وتعليمه ، وورعه ، ومذهبه ، كيف لايكون ، وهو الذي شب في بيئة نزل فيها الوحي ، وأخذ من صحابة رسول الله ﷺ .

☆ ☆ ☆

عبد الله بن المبارك

أخَذَ الكتاب بقوةٍ من جميع جوانبه ،
فهو الإمام القدوة[1] .

□ ولد ابن المبارك بمدينة كثر فيها العلماء ، وحوت مكتباتها من نفائس الكتب . نشأ وترعرع ببيت مسلم ، من أبوين تقيين صالحين . فتمثلت به عندما شب ، المفاهيم الصحيحة للشريعة والميزان الدقيق للاستيعاب السليم لمقاصدها ، فزهد بالدنيا ، رغم إقبالها عليه ، وعمل بالدعوة ونشر العلم ، والنصح لله ، والجهاد ، والتجارة ...

قال أبو داود الطيالسي : ما رأيت أجمع من عبد الله بن المبارك ، فقد كان محدثاً ، فقيهاً ، أديباً ، شاعراً لغوياً ... يقصده المتعلمون فيجدون عنده ما لا يجدون عند غيره .

وقال المعتمر بن سليمان :ما رأيت مثل ابن المبارك ، نصيب عنده الشيء الذي لا يصاب عند غيره .

اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك ، فقالوا : عدوا خصال ابن المبارك من أبواب الخير . فقالوا : جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة ، والزهد والشجاعة ، والشعر والفصاحة ، والورع والإنصاف ، وقيام الليل والعبادة ،

---

(١) عبد الله بن المبارك : ١١٨ ـ ١٨١ هـ . ولد في مرو أشهر مدن خراسان . أدرك العهد الأموي ، وعاش حتى أيام هارون الرشيد . هو عالم المشرق والمغرب وما بينهما لما جمع في أعماله من فهم رائع سليم للشريعة . مات وهو عائد من إحدى غزواته ، ودفن في (هيت) على الفرات ، وقبره معروف هناك . يراجع لهذه الترجمة كتاب : عبد الله بن المبارك لمحمد عثمان جمال ، طبع دار القلم .

والحج والغزو والفروسية ، وترك الكلام فيما لا يعنيه ، والشدة في رأيه ، وقلة الخلاف على أصحابه[1] .

لما قدم ابن المبارك مكة ، وزار سفيان بن عُيَيْنَة ، والفضيل بن عياض ، ودعاه عند خروجه ، فقال أحدهما : هذا فقيه أهل المشرق ، فقال الآخر : وفقيه أهل المغرب[2] .

وهكذا فإن تنوع علمه وفهمه الصحيح لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، كانا السبب لرفعة شأنه وعلو منزلته .

١ ـ **ابن المبارك المُحَدِّث :** اتفق الأئمة على توثيقه وإمامته . وقوله في الحديث مُقَدَّم على ما سواه . فكان نقاداً ، ذا نظر ثاقب ، وصيرفياً ماهراً ذا ميزان دقيق بين صحيح الحديث وسقيمه ، ويفرق بين غثه وسمينه ، قيل له مرة : هذه الأحاديث الموضوعة ؟ ! فقال : تعيش لها الجهابذة[3] . وهو يعني نفسه ، فقد عاش لحديث رسول الله ، يميز صحيحه وموضوعه ، وقوية وضعيفة

أخرج ابن عساكر عن ابن علية قال : أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه فقال له الزنديق :

ـ لم تضرب عنقي ؟

ـ قال له الرشيد : أريح العباد منك .

ـ قال الزنديق : فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله كلها ، ما فيها حرف نطق به ؟

---

(١) تذكرة الحفاظ ، ج ١ ، ص ٢٥٤ . وتهذيب الأسماء واللغات ، ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) تذكرة الحفاظ ، ج ١ ص ٢٥٦ .

(٣) الآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

ـ قال الرشيد له :فأين أنت يا عدو الله من أبي اسحاق الفزاري ، وعبد الله بن المبارك فينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً[1] .

وسبب هذه المهارة النادرة ، أن ابن المبارك ، كان عارفاً برواة الآثار ، ونقله الأخبار ، وما أصبح طبيباً للحديث وصيرفياً ماهراً فيه ، إلا بذلك العلم الغزير ، والنظر الثاقب ، والبصيرة النافذة ، مما جعل الأئمة يعتمدون على جرحه وتعديله وتصحيحه وتضعيفه[2] .

٢ ـ ابن المبارك الفقيه :

ـ قال الحافظ بن حجر : عبد الله بن المبارك ، ثقة ثبت فقيه[3] .

ـ وقال سفيان بن عيينه ، لقد كان فقيهاً عالماً[4] .

استقى الفقه من : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأبي حنيفة . لذلك ذكره ابن النديم في الفهرست بين فقهاء المحدثين .

ويكفي ابن المبارك شهادة سفيان الثوري فيه ، وهي شهادة أستاذ لتلميذ ، عندما وصفه بأنه عالم المشرق والمغرب .

حدث محمد بن المعتمر بن سليمان قال : قلت لأبي : يـاأبت من فقيه العرب ؟

قال : سفيان الثوري ، فلما مات سفيان ، قلت : يـاأبت من فقيه العرب ؟

---

(١) تذكرة الحفاظ (ج ١ ، ص ٢٥٢) . وتاريخ الخلفاء للسيوطي : (ص ٢٩٣) .
(٢) أمثلة ذلك ، يراجع كتاب عبد الله بن المبارك : الإمام القدوة لمحمد عثمان جمال ، ص ٧٦ وما بعدها .
(٣) تقريب التهذيب ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .
(٤) تهذيب التهذيب ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ .

قال : عبد الله بن المبارك[1] .

وقيل في حقه : لاأعلم أحداً من الفقهاء سلم أن يقال فيه شيء إلا عبد الله بن المبارك[2] .

ولابن المبارك ، آراء في الفقه ، يطول الحديث بنا ، إن ذكرناها[3] .

٣ ـ ابن المبارك الورع التقي :

قال يوماً : لأن أرد درهماً في شبهة ، أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ... حتى بلغ ستمائة ألف[4] .

وأمثلة ورعه كثيرة منها : خرج إلى العراء ، فنزل عند نهر ، ونصب رمحه وربط فرسه ، فتوضأ وشرع في الصلاة ، فلما سلم رأى فرسه انفلت يأكل الزرع ، فقال إنه أكل حراماً ، فلا ينبغي أن يغزى عليه ، وتركه لصاحب الزرع ، واشترى فرساً أخرى ومضى لسبيله .

ومثال تقواه : أنه كان يتكلم (في أحاديثه ودروسه ونشره للعلم) ودموعه تقطر[5] .

ـ وكان يذكر الله من بعد صلاة العصر ، لايكلم أحدا ، حتى تغرب الشمس[6] .

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ، ص ١٦٢ . وحلية الأولياء ، ج ٨ ، ص ١٦٣ . « أبو نعيم الأصفهاني » .

(٢) الجواهر المضيَّة ، ج ١ ص ٢٨٢ .

(٣) راجع بعض آرائه في الفقه من ص ١٠٨ إلى ص ١٢٤ في كتاب : عبد الله بن المبارك ، الإمام القدوة .

(٤) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي ، ص ٨٣ .

(٥) خلاصة تهذيب الكمال ، ص : ٣٦٠ ، للخزرجي .

(٦) تقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ، ص ٢٦٩ .

ـ قال له رجل : قرأت القرآن في ركعة ، فقال ابن المبارك ، لكني أعرف رجلا ، لم يزل البارحة يكرر « الهاكم التكاثر » إلى الصباح ، ما قدر أن يتجاوزها[1] . وذلك لأنه كان يتدبر معاني الآية ويتفهمها .

ـ وكان يصوم النهار في الحر الشديد ، سواء في السفر والحضر ، وحتى لو كان في الثغور للحرب والجهاد . وكان يُسِرُّ العبادة ، ويكره أن يطلع عليها الناس ، ولو كانوا أصحابه وذويه . قال قطن بن سعيد : ما أفطر ابن المبارك قط ، ولا رئي صائماً قط[2] .

ـ وكان يكثر الجلوس في بيته ، فقيل له ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه ؟ ![3]

٤ ـ تصوف وزهد ابن المبارك :

ـ وكان لابن المبارك أموال وفيرة ، وتجارة واسعة ، فهو غني ، رأسماله أربعمائة ألف ، يكسب منه كل سنة مائة ألف ينفقها على أهل العبادة والعلم ، وقد ينفق من رأس ماله[4] .

ـ وكانت سُفْرَتُه تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكولات من اللحم والدجاج والحلوى ، ثم يطعم الناس ، وهو صائم الدهر في الحر الشديد[5] ، « وهذا هو الزهد الحقيقي ، زهد الاختيار لا زهد الاضطرار ، وزهد الغنى ، لازهد الفاقة والحرمان ، ولرُب غني واسع الغنى كعثمان والزبير

---

(١) سير أعلام النبلاء : (ج ٦ ، ص ٢٥١) .

(٢) حلية الأولياء ، ج ٨ ، ص١٦٧ .

(٣) تاريخ بغداد ، ج ١٠ ، ص١٥٤ .

(٤) البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٧٧ .

(٥) البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص١٧٨ .

وابن عوف ، كان أزهد في الدنيا من كثير ممن يلبسون مرقعات الصوف[1] ، ويكتفون بالخبز والملح ، وينامون على التراب ، وقلوبهم متعلقة بالدنيا ، وأنظارهم شرهة إلى ما في أيدي الأغنياء » . (وكم من دعي الزهد والطمع يملك قلبه) .

لقد فهم ابن المبارك معنى الزهد الصحيح ، مع إخلاص وتقوى ، فهو ما كان يدعي الزهد ، ولا يحب أن يعرف الناس فيه ذلك ، ويرى نفسه أقل من أن يكون زاهدا ، فقد قيل له مرة : يازاهد . فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز ، إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففي ماذا زهدت[2] ؟ ! وكان يقول : أفضل الزهد إخفاء الزهد[3] .

□ كما فهم التصوف بمعناه الحق ، النابع من الكتاب والسنة ، فخلا قلبه مما سوى الله من شواغل الدنيا ، والتعلق بالأغيار ، أعرض عن الدنيا بقلبه ، وأقبل على الآخرة كل الإقبال ، فهو رجل رباني محمدي ، يتبع شريعة القرآن ، وسنة محمد بن عبد الله ، نصاً وروحاً ، فهو إمام بالتصوف ، ازداد به ورعاً وتقوى وخشية وذكراً لله . فهم التصوف جهاداً وعملاً ، لاقعودا وتواكلاً .

□ كان يقول : أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يطعموا أطيب ما فيها ، قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل[4] .

---

(١) القول للأستاذ محمد عثمان جمال في « عبد الله بن المبارك الإمام القدوة » ، فإن كان يعني بمن يلبسون مرقعات الصوف ، أهل التصوف ، فنحن نخالفه بذلك ، المتقاعسون عن العمل والسعي باسم التصوف ، والتصوف منهم براء . التصوف الإيجابي الحقيقي يتمثل بالعالم الإمام القدوة « ابن المبارك » ، فهل من موضوعي ينكر تصوفه وصلاحه وورعه وجهاده ... ومثالية هذا الإمام ، وانطباق أعماله ومعتقده مع الشريعة كلياً ؟ !

(٢) إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، ص ٢١٧ .

(٣) أدب الدنيا والدين ، للماوردي ، ص ٩٥ .

(٤) حلية الأولياء ، ج :٨ ، ص١٦٧ .

□ خرج يوماً على أصحابه فقال : إني اجترأت البارحة على الله ... سألته الجنة[1] .

فما أشد معرفة ابن المبارك بالله ، وشدة حيائه منه . وهذا التصوف الحقيقي الإيجابي ، لقد صُدِّرت تراجم الصوفية باسم ابن المبارك ، لكمال تصوفه وبعده عن التواكل والبطالة والسلبية والقعود . ان تصوفه ، تصوف العالم بأحكام الشرع ، العامل بها ، والدال عليها ، فالتصوف كما قال الشعراني : « إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة ، إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس[2] .وقال الشعراني : « لقد أجمع القوم على أنه لايصلح للتصدر في طريق الله عز وجل ، إلا من تبحر في علم الشريعة ، وعلم منطوقها ومفهومها ، وخاصها وعامها ، وناسخها ومنسوخها ، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفي فقيه ، ولا عكس[3] » .

ولهذا الفقيه المتصوف كرامات عديدة جداً ، من كراماته ، كرامة لا نذكر غيرها في هذا الصدد ، وهي تدل على قربه من الله عز وجل وعلى مكانته عند ربه ، فقد كان عبد الله بن المبارك **مجاب الدعوة**[4] . وهذه أكبر الكرامات .

ابن المبارك المجاهد :

□ ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾ (الحجرات / ١٥) .

---

(١) إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

(٢) طبقات الشعراني ، ج ١ ، ص ٤ .

(٣) طبقات الشعراني ، ج ١ ، ص ٤ .

(٤) تهذيب التهذيب ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ .

□ لايكمل إيمان مسلم وهو قاعد عن الجهاد في سبيل الله ، خوفاً على حياته أو ماله ، مستكيناً إلى الراحة والدعة . فالمؤمن مكتمل الإيمان حسب ميزان الشريعة ، باع نفسه لله ، وهو يعلم أن كل نفس ذائقة الموت ، سواء قعدت أم جاهدت : « **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** » (النساء / ٧٨) فلا يبالي المؤمن إذن أوقع الموت عليه ، أم على الموت وقع ، لأن الأجل والموت بيد الله عز وجل .

لقد كان ابن المبارك إماماً في محراب المسجد ، وإماماً في ساحة الجهاد ، فهو راهب في الليل ، فارس في النهار ، ما قعد بسبب العبادة في زاوية وترك الجهاد ، بل لم يجد لنفسه مبرراً واحداً للقعود عن الجهاد .

ـ قال ابن كثير عنه : كان كثير الغزو والحج[1] .

ـ وقال الذهبي عنه : فخر المجاهدين .

ـ وفي العبر : كان رأساً في الشجاعة ... وكان يحج سنة ، ويغزو مرابطاً في سبيل الله في الثغور سنة . فمرة يرابط في طرسوس ، وأخرى في المصيصة[2] .. وغير ذلك من الثغور الإسلامية .

وفي رباطه كان لاينسى أن يعلم الناس ، فيجتمع حوله المجاهدون ، ويكتبون عنه الحديث ، كما يتعلمون منه الشجاعة . وقد أرسل من الثغر مرة مع محمد بن إبراهيم إلى صديقه الفضيل بن عياض قال له فيها :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٧٧ .

(٢) طرسوس : مدينة بين إنطاكيا وحلب وبلاد الروم ، بها توفي المأمون عندما جاءها غازياً . كانت موطئاً للصالحين والزهاد ويقصدونها للرباط والجهاد . و « المصِّيصة » مدينة على شاطىء نهر جيحان ، تقارب طرسوس .

أو كان يتعب خيله في باطلٍ	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيحٌ صادق لا يكذب
لايلتقي غبار خيل الله في	أنف امرىء ، ودخان نارٍ تلهب

ولما قرأ الفضيل هذه الأبيات ، بكى ، وذرفت عيناه بالدمع ، وقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح . وما كان ابن المبارك في الثغر وراء الصفوف يُحمِّس من خلفها . حدَّث عبدة المروزي قال : كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو . فلما التقى الصفان ، خرج رجل من العدو ، فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه رجل ، فقتله الرومي ، ثم آخر فقتله ، فتأخر عنه المسلمون فصال وجال بين الصفين ، ودعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل فطارده ساعة ، ثم طعنه فقتله ، فازدحم إليه الناس ، فكنت فيمن ازدحم إليه ، فإذا هو يلثِّم وجهه بكمه حتى لايعرفه الناس ، فأخذت بطرف كمه فمددته وأزحته عن وجهه ، فإذا هو عبد الله بن المبارك . فقال : وأنت يا أبا عمرو ممن يشنِّع علينا[1] ، (أي تنشر خبرنا) .

وعن عبيد الله بن سنان قال : كنت مع ابن المبارك ومع المعتمر بن سليمان بطرسوس ، فصاح الناس : النفير ، فلما اصطف الناس ، خرج علج رومي يطلب المبارزة ، فخرج إليه مسلم ، فقتله الرومي ثم ... وثم ... حتى قتل ستة من المسلمين ، ثم لم يخرج إليه أحد ، فلما رأى ابن المبارك ذلك ، أوصى إليَّ وقال : إن قتلت فافعل كذا وكذا ، ثم خرج من الصف فقتله وقتل ستة من الكافرين ، ثم امتنعوا عنه ، فغاب ، ثم نظرته فإذا هو بالمكان الذي كان فيه .

---

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ، ص١٦٧ .

رضي الله عنه وأرضاه ، كان يحضر القتال ، ويبلي بلاء حسناً ، فإذا كان وقت القسمة غاب ، فقيل له في ذلك ، فقال : يعرفني الذي أقاتل له .

وحدَّث عبدة بن سليمان قال : كنا مع ابن المبارك في أرض الروم ، فبينما نحن نسير ذات ليلة والسماء - يعني المطر - من فوقنا ، والبلة من تحتنا ، قال ابن المبارك ، ياأبا محمد ، أفنينا أيامنا في الإيلاء والظهار عن مثل هذه الليالي ... فهو يندم - رضي الله عنه - على أيام قضاها في الفقه الكثير ، لأنه شغل عن جهاد الروم ، فغاية الفقه ، العمل ، وهل من عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله ! بعد إرضاء الوالدين وخدمتها ؟ وقد كسب الرضاء وبقي الجهاد ، فكسبه أيضاً .

☆ ☆ ☆

وفي عام ١٨١هـ حضره الموت ، وهو عائد من غزواته من بعض الثغور . فتح عبد الله عينه عند احتضاره وقال : « **لمثل هذا فليعمل العاملون** » وسلم روحه إلى بارئها ، وتنتهي رحلة حياة كلها : علم وتقوى وزهد ، وورع ، وبذل ، وجهاد ، ودعوة ، وصفاء روح ، ونشر علم . ولما بلغ الرشيد خبر وفاته قال : مات سيد العلماء ، ثم جلس للعزاء ، وأمر الأعيان أن يعزوه في ابن المبارك .

رحم الله ابن المبارك ، لقد مثل الشريعة أدق تمثيل ، فهو المثال الأسوة « **أولئكَ الذينَ هَدى اللهُ فبهداهُمُ اقْتَدِه** » .

☆ ☆ ☆

أسد بن الفرات

« الفقيه المجاهد » (١)

□ ترعرع في القيروان ، وفيها أخذ يخطو خطواته الاولى نحو المعرفة ، وأخذ في حفظ القرآن ، وتطلع الى حياة العلماء ورجال الفكر ، واستكمل دراسته في مدينة تونس على يد علي بن زياد العبسي ، ومما يؤثر عنه قوله : اني لادعو الله لعلي بن زياد مع والدي ، لانه اول من تعلمت العلم عليه .

ثم رحل الى المشرق عام ١٧٢ هـ ، فاتصل بمركز الثقافة العلمية في الحجاز ، والعراق ، ومصر ، مما أثر في تفكيره ، ومجرى حياته .

في الحجاز قابل إمام دار الهجرة ، مالك بن انس ، وكان شيخاً شارف الثانين ، تحيط به هالة من المجد العلمي ، فأمضى ابن الفرات فترة غير قصيرة من الزمن يجلس الى مالك ويشهد حلقاته ، ويكتب عنه ، ويتحدث اليه .. فيتشرب في خلال ذلك روحه ومذهبه .

ماراه ابن الفرات في الحجاز ، حفز تطلعه العلمي ، وأثار رغبته في أن يمضي الى العراق ، قبل عودته الى أفريقية ، وفي العراق ، وجد في أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني من العناية به والرعاية لشأنه ، والتفقد لحاجاته في عيشه ودرسه ، ماسدد خطاه ، ومضى به نحو غايته .

---

(١) أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم ، أبو عبد الله (١٤٢ ـ ٢١٣ هـ / ٧٥٩ ـ ٨٢٨ م) : قاضي القيروان ، وأحد القادة الفاتحين ، ولد بحران بأرض الجزيرة رحل به أبوه وهو طفل مع جيش محمد بن الأشعث الخزاعي . ولي القضاء سنة ٢٠٤ هـ وبالحاح منه استعمله زيادة الله الأغلبي على جيشه وأسطوله ، ووجهه لفتح جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، فهاجمها بعشرة آلاف ، ودخلها فاتحاً ، وتوفي من جراحات أصابته وهو محاصر سرقوسة « أو سيراكوزا » براً وبحراً . راجع الأعلام : جـ ١ ، ص ٢٩١ ، والعربي العدد ٥٤ ، صفحة ٥٠ ، مقال الدكتور الحاجري .

وهكذا قُدِّر لابن الفرات ، أن يدرس المذهبين الكبيرين السائدين في العالم الاسلامي إذ ذاك : مذهب أهل الحديث في المدينة المنورة ، ومذهب أهل الرأي في بغداد .

وفي طريق عودته ، قابل في مصر ، أئمة الفقه من أصحاب مالك ، كعبد الله بن وهب ، وعبد الله بن الحكم ، وعبد الرحمن بن القاسم ، فعقد بهم صلة ، وكان أكبر صلة مع ابن القاسم ، وكان ابن القاسم رجلا واسع العلم ، شديد الورع ، نافذ البصيرة ، فأثار في نفس ابن الفرات ذكرى مالك ـ وكان مالك قد توفي أثناء مقام ابن الفرات في العراق ـ فرأى في ابن القاسم صورة من مالك ، جذبته اليه ، حتى قال للناس في المسجد : « معاشر الناس : إن كان مالك بن أنس قد مات ، فهذا مالك بن أنس » .

وقد انتجت هذه الصلة الوثيقة بين أسد بن الفرات واستاذه ابن القاسم ، أثراً من الآثار الخالدة في تاريخ المذهب المالكي ، هو ذلك الكتاب الذي تلقاه عنه ، وحمله معه الى القيروان ، ونسب اليه فسمي « الاسدية » .

اتخذ القيروان مقراً له بعد عودته ، فأقبل الناس يتلمسون حصيلة الرحلة العلمية الطويلة . فكان يجلس اليه أتباع مذهب مالك ، وأصحاب المذهب العراقي ، فيأخذ في عرض مذهب أبي حنيفة ، وشرح أقوال العراقيين ، فاذا فرغ منها صاح صائح من جانب المجلس : « أوقد المصباح الثاني يا أباعبد الله » ، فيأخذ في ايراد مذهب مالك وشرح أقوال المدنيين . وهذا نهج جديد في دراسة الفقه المقارن اتسعت دراسته في القيروان .

عرف قدره ، وقدر ما يحمل في فكره ، وتبحره في الفقه ، علي بن حميد وزير الأمير زيادة الله الاغلبي ، فولاه زيادة الله بدافع من ابن حميد منصب

القضـاء ، الى جـانب أبي محرز الكتـاني . وكان من الطبيعي أن ينشـأ عن مشـاركـة الرجلين في القضـاء ، خلافـات ومشـادات ومخـاصمـة ، ولكنهـا كانت خصومة في الرأي ، لا تتجاوز حدودها . فقد كان يعصمها من ذلك دين يكف الرجلين . **ومـا أحـوجنـا الى دين يعصم الجميـع من تجـاوز الحـدود ، ومروءة ترتفع بكل خصـام عن سفـاسف الأمور ، فلا يستحل أحـد من صاحبه مانهاه الله عنه !؟**

وفي عام ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ، وجد ابن الفرات في نفسه رغبـة تسيطر عليـه ، يتقرب بهـا الى الله ، بـاعـزاز دينـه ، وجهـاد أعـدائـه ، فرفض الامير الاغلبي طلبه ، ولكنه ألح في التماس تحقيق رغبته ، وكان يقول : « وجدوني رخيصاً ، فلم يقبلوني . لانه تجاوز السبعين من عمره » ، « **وقد أصابوا من يُجري لهم مراكبهم من النـوتيـة ، فمـا أحـوجهـا الى من يجريهـا لهم بـالكتـاب والسنـة** » . فهو يريـد أن الحرب ليس أمراً مـادياً فحسب ، بل أمر روحي فكري أيضاً ، يشـد العزائم ، ويثير النفوس ويشـوقهـا الى الجهـاد . وهـذا مـا يسمى اليوم « التوجيه المعنوي في الجيوش » .

ويستجيب الأمير زيـادة الله لـه ، ويوليـه صقليـة ، فقـال ابن الفرات : أصلح الله الأمير ! من بعد القضاء والنظر في حلال الله تعالى وحرامـه ، تعزلني وتـوليني الإمـارة . لقـد رأى ابن الفرات النظر في حـلال الله وحرامـه ، فـوق الإمارة ، وأسمى منها ، وأعلى منهـا مرتبـة ، فقـال زيـادة الله : إني لم أعزلـك عن القضاء ، بل وليتك الإمارة ، وأبقيت لك اسم القضاء ، فأنت قاض أمير .

وعنـد الوداع في مينـاء « سوسـة » ، وقف المشيعون من العلمـاء والـوجـوه ورجال الدولة ، وعامـة النـاس ، فكان مشهـداً أثـار نفس ابن الفرات ، فوقف في الناس وقـال : « لا إلـه إلا الله وحـده لاشريـك لـه ، والله يـامعشر النـاس

ما وَلِيَ لي أبٌ ولا جد ولاية قط ، وما رأى أحد من سلفي مثل هذا قـط ، ومـا رأيت مـا ترون إلا بـالاقـلام ، فـأجهـدوا أنفسكم ، وأتعبـوا أبـدانكم في طلب العلم وتـدوينـه ، وكاثروا عليـه ، واصبروا على شـدتـه ، فـانكم تنـالـون بـه الـدنيـا والآخرة » .

ولما بلغ صقلية ، قاد الجيش الى النصر ، وأبلى في الحرب بلاء مذكوراً ، ومكن للمسلمين من هذه الجزيرة بحسن تدبيره ، وصدق ايمانه ، وقوة ارادته ، ووقوفه في وجه دعاة الهزيمة ، موقفاً حازماً حاسما ، لم تأخذه فيه هوادة ، ولم يرقب فيه الا وجه الله ، وعزة المسلمين ، وذلك حين أضر بالناس الجوع ، وداخلتهم بعض الوساوس .

ثم توفي رحمه الله ، متأثراً بجراحه التي أصابته وهو محاصر لسرقوسة ، في شهر ربيع الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين للهجرة .

وبذلك ختمت هذه الصفحة المشرقة ، الجديرة بأن نفخر بها ، ونطيل تأملها ، **فهذا هو فقه الدين الحق ، مع الأحكام الفقهية ، وهي جانب من الشريعة ، جهاد عملي بالروح والنفس والجسد ، وهذا جانب آخر من الشريعة .**

رحم الله أسد بن الفرات فقد جمع الفقه والجهاد في شخصه ، رحمه الله : ما جلس لمسائل فقهية يكررها على الناس ، وما جلس يتحذلق بترف فقهي يعرضه كل يوم بشكل جديد ليكسب مديح الناس ، وليقال عنه : انه عالم ! ما جلس وقال : الفقه هو الدين كله ، هو الشرع بأجمعه . بل قام يطلب الجهاد ، لنشر كلمة الله عز وجل ، وتطبيقاً لفقه آيات الجهاد في القرآن الكريم .

☆ ☆ ☆

أبو حامد الغزالي

« حجّةُ الإسلام » (١)

□ ترجمة حياة الغزالي كتاريخ ، دونتها في هامش الصفحة ، أما الذي يهمنا هنا مباشرة ، فهو فهم الغزالي « للشريعة وميزانها الدقيق » وحفظه للقرآن من الضياع .

□ يمتاز الغزالي عن كل من سبقه في محاربة الفلسفة ، أنهم اتخذوا موقف الدفاع عن الإسلام وعقائده ، والاعتذار عن الدين الإسلامي ، فكانت الفلسفة تهاجم ، وهؤلاء يدافعون عن الاسلام ، وينفون عنه التهم الموجهة اليه . ويحاولون أن يبرروا موقفه ، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته . فكأن علم الكلام كان جنة تتلقى هجمات الفلسفة ، وتحصن العقيدة الاسلامية . ولم يجترئ أحد من المتكلمين أن يهاجم الفلسفة ويغزوها في عقر دارها ، لعدم تعمقهم في الفلسفة وتضلعهم في أصولها وفروعها . ولعدم تسلحهم بالاسلحة التي يواجهون بها الفلسفة ويوسعونها جرحاً ونقداً ، فكان موقفهم موقف الدفاع عن قضية ، وموقف الدفاع دائما قد لا يخلو من ضعف ، فغايته أن يسامح المتهم ويُعفى عنه .

□ أما الغزالي

فقد هاجم الفلسفة وتناولها بالفحص والنقد ، هاجمها هجوما عنيفا مبنياً

---

(١) « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » ط٣ ، ١٩٦٩ الكويت ، صفحة ٢٠٦ وما بعدها .

□ أبو حامد محمد الغزالي الطوسي : (من ٤٥٠هـ ـ ١٠٥٨م/الى : ٥٠٥هـ ـ ١١١١م) ، مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس ، بخراسان) رحل الى نيسابور ، ثم الى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر ، وعاد الى بلدته . نسبته الى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو الى غزاله (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف . له نحو مئتي مصنف ، أشهرها : احياء علوم الدين ، تهافت الفلاسفة ، المنقذ من الضلال ...

على الدراسة والبحث العلمي ، وحجة بحجه ، وعقل مثل عقل الفلاسفة الكبار ومدوني الفلسفة ، وألجأ الفلسفة الى أن تقف موقف المتهم ، وألجأ ممثليها الى أن يقفوا موقف المدافعين ، فكان تطوراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة ، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الاسلامية عادت به الثقة الى نفوس اتباعها والمؤمنين بها ، وزالت عنهم مهابة الفلسفة وسيطرتها العلمية .

□ كان يؤمن بأنه « لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعمالهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته . فجد واجتهد في دراستها ، ومعرفة حقيقتها وأغوارها ، حتى اطلع على منتهى علومهم ، ثم لم يستعجل كذلك ، ولم يبدأ بالهجوم ، بل رأى أن المباحث الفلسفية لا تزال غامضة قد ألفت بلغة رمزية ، وبأسلوب غير واضح ، وكان مؤلفوها قد تعمدوا ذلك ، ليقيموا سياجاً حول الفلسفة يحوطها من تناول العامة ، أو لم يكونوا يحسنون التأليف ، فرأى أن يؤلف كتاباً يذكر فيه المباحث الفلسفية ، ونظرياتها ومسائلها بلغة سهلة واضحة ، وأسلوب مشرق » .

وقد رزق الغزالي قدرة عجيبة في تبسيط المسائل العلمية وايضاحها ، فكسر ذلك السياج ، ورفع الاحتكار العلمي ، وألف كتاب : « مقاصد الفلاسفة » ، ذكر فيه المصطلحات والمباحث الفلسفية من غير تعليق و لا نقد ، وعرض الفلسفة كأحسن ما يعرضها رجال الفلسفة .

وفي عمله الثاني ، بدأ الهجوم على الفلسفة ، وأخذ ينقد الفلاسفة ، ومن روعته أنه تكلم عن صديق الاسلام « الجاهل » ، وما أكثرهم في أيامنا هذه ، انتقد أولئك الذين يرون أن انكار هذه العلوم وهذه الحقائق العلمية ، خدمة

دينيـة ، ونصرة لـلاسـلام ، ومحـاربـة للكفر والضـلال ، فكأن جهـادهم من غير عدو ، وكانت جناية على الدين .

يقول في كتابـه « المنقـذ من الضلال » صفحـة ٩٠ ومـا بعـدهـا : « الآفـة الثـانيـة نشـأت من صـديق للاسلام جـاهـل ، ظن ان الـدين ينبغي أن ينصر بانكار كل علم منسوب ، فانكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيهـا ، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن مـاقـالوه على خلاف الشرع ، فلمـا قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشـك في برهـانـه ، لكن اعتقـد أن الاسلام مبني على الجهل ، وانكار البرهان القـاطع ، فـازداد للفلسفـة حبـاً ، ولـلاسـلام بغضـاً ، ولقـد عظم على الـدين جنـايـة من ظن أن الاسـلام يُنْصَر بانكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والاثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية » .

□ ومن مؤلفـات الغزالي بعـد ذلـك « تهـافت الفلاسفـة »[1] : وهو في أربع مقدمات ، ذكر فيها منهاجه في البحث ، وشرح حال الفلاسفة ، وفرق علومهم التي تصادم الشريعة والتي لا تصادمها ، وناقش الفلاسفة في شرائعهم ومقدمـاتهم للبحوث الإلهيـة ، بعـد هـذا كلـه ، يشرع الغزالي في بيـان مسـائـل الفـلاسفـة ومناقشتهم في ذلك ، في ضوء البحث العلمي والحجة العقلية ، وهي ست عشرة مسألة في الإلهيات ، ومابعد الطبيعيـات ، وأربع في الطبيعيـات ، ويبين فيهـا ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم وتهافت عقيدتهم .

---

(١) لقد ألف ابن رشد فيما بعد كتابه « تهافت التهافت » ولم يكن مخلصا في وضع تسمية هذا الكتـاب ، ولا مبرأ من حب التحـذق ، واظهـار الفضـل والسبـق في مضمار الفلسفـة ، فنـاقش الامـام في كل مـا ردَّ بـه على الفـلاسفـة من المسائل ، مناقشة لم يقصد بها ابطال الحقائق التي دافع عنها الامام ، بل أراد بها اظهار خطئـه في طريقـة الاستـدلال ، وكان رحمه الله في غنى عن هذا اللّمز والتفيهُق ...

ويتسم الكتاب بقوة التعبير ، وسلامة العبارة ، وسهولة الاسلوب ... ويدل على أن مؤلفه ممتلئ بالايمان والثقة بدينه والاعتداد بشخصيته وتفكيره . كما تهكم ونقد نقداً لاذعا في أسلوب رائع ، ليقمع غرور الذين أصيبوا بمركب النقص وخضعوا للفلاسفة ...

لقد أعاد الغزالي إلى القرآن والشريعة كل هيبتهما في النفوس ، وحفظ القرآن من الضياع فقد فهم زمانه ، فهم حاجة زمانه ، وعقل المسلمين في زمانه ، وعرف حاجتهم ، فجاء : « تهافت الفلاسفة » في أوانه ، وقضى حاجة زمانه ، وكان في زمانه « باطنية » تذرعت بالفلسفة ، وظهرت بمظهر ديني - سياسي الف للرد عليهم[1]: المستظهري ، حجة الحق ، مفصل الخلاف ، قاصم الباطنية ...

□ أما إحياء علوم الدين :

فقد ألفه الغزالي بعد أن أكرمه الله بالسعادة الروحية ، والمعرفة الحقيقية ، وانكشفت له حقائق العلم ...

□ تقييم الاحياء :

- قال عنه الحافظ الإمام زين الدين أبو الفضل المعروف بالعراقي ، صاحب الألفية في مصطلح الحديث : إنه من أجل كتب الاسلام[2].

- وكان الامام النووي شديد الاعجاب بالإحياء ، عظيم الشغف به .

- أما ابن الجوزي فقد انتقده في مواضع ، ورأى أن الاحياء قد اشتمل على

---

(١) لم يطبع من كتبه في الرد على الباطنية . وفضائل المستظهرية ، وهو المعروف بالمستظهري ، نشر منه (كولد تسيهر) قسما كبيرا ، وبحث فيه بحثا طويلا باللغة الالمانية ، طبع في ليدن ١٩١٦ مع المتن العربي ، أما الاخيرة ففقودة ، كما يظهر من مقدمات « المنقذ من الضلال للاستاذين جميل صليبا ، وكامل عياد . (راجع رجال الفكر والدعوة في الاسلام ص٢١٧) .

(٢) تعريف الاحياء بفضائل الاحياء للشيخ عبد القادر بن شيخ للعيدروس ، ص : ١٤ .

أحاديث غير ثابتة عن طريق المحدثين ، غير أنه اعترف بتأثيره ، واختصره في كتاب سماه « منهاج القاصدين » .

وملاحظة نعرضها : مما يلاحظ أن كثيرا ممن يقتصر على مطالعة هذا الكتاب ـ الاحياء ـ أو يكثر من قراءته ويشغف به ، ينشأ عنده غلو في الزهد والتقشف ، ومخالفة النفس في المباحات ، والكراهة للحياة ، والاكثار من الرياضات والمجاهدات . وقد يكون مَرجع ذلك أن الغزالي عند تصنيفه « الاحياء » كان في حالة قد غلبت عليه فيها الخوف والهيبة ـ وكان متأثرا شديد التأثر ـ فجاء كلامه صورة صادقة لنفسه المتأثِّرة .

وعلى ما فيه من أحاديث ضعيفة ، وغلو صوفي ، وهضم للنفس وترك المباحات ، الى غير ذلك من مآخذ تعقبها العلامة الحافظ ابن الجوزي[1] . وابن تيمية مع اعترافها بفضل الكتاب ، فهو في مقدمة الكتب الاسلامية التي انتفع بها خلائق لا تحصى في كل عصر وجيل .

☆ ☆ ☆

□ اعتبر الغزالي أن التبعة الكبرى في هذا الفساد الشامل ، والضعف في الدين ، والانحلال في الاخلاق ، الذي حدث في القرن الخامس الهجري ، تقع على العلماء ورجال الدين . وهم السبب الاول في فساد هذه الاوضاع ، لانهم ملح الامة ، وإذا فسد الملح فما الذي يصلحه ، ويتمثل الغزالي ببيت خوطب فيه العلماء :

يامعشر القراء ياملح البلد … مايصلح الملح إذا الملح فسد ؟!

□ **والغزالي محق في نقده ، ما انتقد العالم العامل ، فهو عاش في**

---

(١) انظر ـ المنتظم ـ لابن الجوزي ، جـ٩ ، ص : ١٦٩/١٧٠ طبع دائرة المعارف ، حيدر أباد ، وشيخ الاسلام ابن تيمية (الفتاوى) جـ٢ ، ص : ١٩٤ .

عصر انتقد علماءه ، علماءه القراء ، لا الذين قرؤوا وتمثلت المعاني فيهم فقاموا للعمل في مجتمع فسدت أوضاعه . ونحن إذ ننتقد ، ننتقد (معشر القراء) الذين انتقدهم الغزالي ليس غير . وهم الذين « أضاعوا القرآن » .

ويذكر الغزالي كيف مرضت قلوب الناس ، واشتدت الغفلة عن المعاد ، ويذكر أسباب ذلك ، فيذكر منها : مرض العلماء واعتلالهم ، وهم أطباء القلوب .

ويقول : والداء العضال ، فَقْدُ الطبيب ، فإن الاطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الاعصار مرضاً شديداً ، وعجزوا عن علاجه ، وما أشبه اليوم بالبارحة !

□ ويقول في موضع آخر : « فان الاطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهم المرض ، فالطبيب المريض قلما يلتفت الى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالا ، والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب ، وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءاة[1] .

ومن روائعه :

□ « انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم لغلوهم في الاكثار من الجزئيات الفقهية ، والخلافات ، والكلام ، والجدل ، والتعمق في العلوم الآلية : كالنحو ، واللغة ، والشعر ، والغريب ، والانهماك به . وانتقد الصوفية لاكتفائها بحفظ أقوال المشايخ وأخبارهم ، ولاحظ أن هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع

---

(١) احياء علوم الدين ، جـ [illegible] ، ص [illegible] .

اغتربها أربابها ، فَأمَّا علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث أنها علوم ، فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع[1] » .

والغزالي ينبه الى أهمية العلوم كلها ، فعليها بناء المجتمع ، « ولا ينبغي أن يفتر رأيك في طلب العلوم الدنيوية بما حكيناه عن طرق الصوفية ، فانهم لا يعتقدون حقارة العلوم ، بل يعتقد كل مسلم حرمتها وعظمتها ، وما ذكروه إنما أوردوه بالاضافة الى مرتبة الانبياء والاولياء . ومن قصد التقرب الى الله بالعلوم نفعه الله ورفعه لا محالة » .

وفي كتابه « جواهر القرآن » ، يدل دلالة واضحة على ايمانه العميق بطلب العلوم ودراستها ، كعلم البدن والطبيعيات ، والفلكيات والنباتات ، بل وعلوم الآلات بسائر فروعها . فإذا قال القرآن مثلا : ﴿ ياأيها الإنسان ما غَرَّك بربك الكريم ، الذي خلقك فسَّواك فَعَدَلك ، في أيّ صورةٍ ماشاء ركَّبك[2] ﴾ . فلا يفسر هذه الآية التفسير الكامل المراد منها ، إلا من عرف تشريح الاعضاء ، ظاهرا أو باطنا وعددها وأنواعها وكلمتها ومنافعها ... !

وإذا قال القرآن : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾[3] ، و﴿ وخسف القمر وجمع الشمس والقمر ﴾[4] ، و ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾[5] .

فلا يعرف حقيقة الشمس وسيرها وأبراجها ومنازلها ، وكيفية تكور

---

(١) الاحياء ... جـ٣ ، ص٣٤٣ .

(٢) الانفطار ، الآية الكريمة : ٦ ـ ٧ ـ ٨ .

(٣) سورة الرحمن ، الآية الكريمة : ٥ .

(٤) سورة القيامة ، الآية الكريمة : ٩ .

(٥) سورة يس ، الآية الكريمة : ٣٨ .

احدهما على الآخر ، إلا من عرف هيئات تركيب السموات والارض ، وهو علم تتفرع منه علوم .

هذا هو الفهم السليم « للشريعة وميزانها الدقيق » .

□ رحم الله أبا حامد الغزالي الذي كان موضوعيا في نقده ، وفاهماً متطلبات عصره فهما سليما ، **لقد انتقد أهل الفقه الذين تكلموا وأطالوا بطهور الجسد والثياب والمكان ونسوا طهور القلب والنفس والروح ، فكم من طاهر الثياب والجسد ، وروحه غارقة في انتانات حب الشهوات والغدر والخيانة .**

انتقد الفقهاء الذين تكلموا عن وجهة الجسد الى القبلة ، وهذا ماأسهله من أمر ، ونسوا توجه القلب الى الله : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض ... » .

كما انتقد غلاة المتصوفة الذين صرفوا الناس عن العلوم الدنيوية ، أما ماسموه علوما دنيوية ، ففي اعتقادنا كل العلوم علوم تطلب لله وللدين ورفعته ، انتقدهم انتقادا صحيحا ، لانهم زهدوا الناس بالدنيا ، فنعم بها الكافر ، وخلقها الله للمؤمن ، فالزهد عمل من أعمال القلب .

□ ما أروع فهم الغزالي للزهد ، (لقد وُصِفَ الليثُ بن سعد الذي كان يقارع في الغنى غنى ابي حنيفة ، وصفه الشافعي بالزهد والورع) وهذا ما أراد فهمه الغزالي . امتلاك المال ويبقى القلب مع الله . المال في اليد ، والقلب مع الله ، هذا هو الزهد كما فهمه الشافعي ، وفهمه كذلك الغزالي .

رحم الله الغزالي فقد كان من حفظة القرآن ، ومن أصحاب الميزان الحقيقيين .

☆ ☆ ☆

العز بن عبد السلام

« سلطانُ العلماء (١) »

□أجمع فقهاء عصره على أنه سلطان العلماء ، إذ كان الشيخ من العلوم على اختلاف فروعها واتساع جوانبها بمنزلة رفيعة ، فقد كتب المؤلفات الكثيرة في الفقه والأصول والتوحيد والتفسير والحديث والبلاغة . كما شارك في التصوف مشاركة علمية وعملية .

أخذ التصوف عن الشيخ شهاب الدين السهرودي ، وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، وله فهم رائع لحقيقة التصوف سنعرضه في حينه .

لقد تنسك وكتب في المواجد والمقامات ، والحق أن العز لم يكن سلطان العلماء وحدهم ، فقد كان سلطان الدولة بما فيها من ملوك وأمراء .وعرفانا بالواقع واذعاناً له : عزل كثير من الفقهاء أنفسهم عن الفتوى ، كالحافظ المندري ، مكتفين بما يصدر عنه من أحكام .

□ آلى العز على نفسه أن يتعقب الفساد في كل مكان ، فلا يقطع لسانه عن باطل مهما جل ذووه ، وقد نزلت بدمشق نكبة فادحة حين ملكها الصالح اسماعيل ، ودبَّ بينه وبين نجم الدين أيوب خلاف شديد ، لقد خاف الملك الصالح على ملكه ، فصالح الفرنجة من الصليبيين على أن ينقذوه من ملك مصر ، مقابل أن يسلم إليهم صيدا والشقيف وغيرهما من بلاد المسلمين ، ولم يلبث

---

(١) (علماء في وجه الطغيان) ، ص ٦٤ وما بعدها . وهو : عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي ، عز الدين الملقب بسلطان العلماء . فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد . لما سلم الصالح إسماعيل ابن العادل قلعة صفد اختياراً ، أنكر عليه العز ولم يدع له في الخطبة ، فغضب وحبسه ، ثم أطلقه فخرج من دمشق إلى مصر . ولد بدمشق عام : ٥٧٧هـ/١١٨١م ، وتوفي بالقاهرة : ٦٦٠هـ/١٢٦٢م .

الصليبيـون أن دخلـوا دمشـق بمقتضى المعـاهـدة ، وأخـذوا يبحثـون عن السـلاح يشترونه ويعدون أنفسهم لمحاربة المسلمين .

عرض العـز هـذا على « ميزان الشريعـة » ، فعظم ذلـك عليـه ، وافتى بتحريم بيع السـلاح ، مـاأروع فهمـه السليم واجتهـاده الصـائب ، فبمنـع البيـع مصلحـة المسلمين ، وحيث تكون المصلحـة فثم شرع الله . بيع السلاح فيـه ضرر للمسلمين ، النتيجة في ميزان العالم الفاهم للشرع : بيعه حرام .

ليس هذا فقط .. بل نَدَّد بـالصـالح اسماعيل في مجـالسـه . وكان تنـديـده منطلقاً من حكم الشريعة ، ثم اعتلى المنبر ليعلن تَبَرمـهُ وسخطـه على السلطـان الغادر ، دون أن يعبأ بإرهاب يتهدده .

وانتشرت ثورة العز بالمدينة ، فانزعج لها الصالح إسماعيل انزعاجاً شديداً وأصدر أمراً بعزله وحبسه ، فما زادت الثورة إلا استفحالاً .فـاطلقـه الملـك على أن يغـادر دمشق . وخرج العز إلى كنـانـة الله ، وقلـوب أهـل الشـام تتبعـه . فاتخذ منبره بالفسطاط مذياعاً جديداً يرسل به النذر ، ويقيم الحجج :« ليهلك من هلك عن بَيِّنَة ، ويحيا من حي عن بَيِّنَة » .

□ مَرَّ ذات صباح على صـديقـه الصـالح أيوب في يوم عيـد ، وقـد أخـذ السلطان زينتـه ، وخرج على قومـه ، والجنود مصطفون بين يـديـه ، والأمراء يقبلون الأرض بين يـديـه ، فـالتفت الشيخ إلى السلطـان في أبهتـه الأخـاذة ، وتيهه المتعاظم ، وصاح بـه : يـاأيوب مـا حجتـك عنـد الله ، إذا قـال لـك ألم أبوئك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟!

فاندهش الملك وقال : هل حصل ذلك !

فقال الشيخ : نعم . حانة فلان وحانة فلان .

فقال السلطان : هذا من زمان أبي وما صنعت شيئاً .

فقال الشيخ : ماهذا ! أنت من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة !

لقد كان جواب العز جواب« ميزان الشرع » ، لذلك ... أصدر السلطان أمراً بإغلاق الحانات فوراً . ورجع الشيخ إلى درسه ، فسأله تلميذ عن موقفه ، لنسمع الجواب الدقيق ، الذي زينَ « بميزان الشريعة » . قال العز : يابني لقد رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه ، فتؤذيه ، ولقد استحضرت هيبة الله تعالى إذ أخاطبه ، فصار السلطان عندي أقل من القط . إن موقف السلطان يذكرنا بالآية الكريمة :

﴿ ولا تمش في الأرضِ مَرحَاً ، إنَّك لن تخرق الأرضَ ولن تبلغَ الجبال طولا ، كُلٌّ ذلك كان سيئةُ عندَ ربك مكروهاً ﴾ . (الإسراء/٣٨) .

□ ورث العز النبي ﷺ في علمه وسيفه ، كما جاهد بلسانه . إحياء السُنَّة ليس بالأشياء السهلة : سواك ، وحركة أصبع في التشهد ،

بل إن إحياء السنة الشريفة بالجهاد حين ينادي منادي الجهاد .

ولما هاجم الصليبيون دمياط ، كان العزُّ من بين الجند المسلم هناك ، يجاهد بسيفه ، ويحمس الجند بكلمته . ويروي المؤرخون أن الريح قد لفحت السفن الإسلامية المصرية بادئ ذي بدء ، فكأنها تحاربها من الوصول إلى ما تريد . فوقف العز ينادي بأعلى صوته : اللهم حول الريح عن عبادك المسلمين . ويلوِّح بيده إلى ناحية الصليبيين ، فتغير الوضع ، وانكفأت الريح إلى سفن الفرنجة ، وكان موقف العز مصدر يُمْنٍ وإقبال ، وكانت كرامة لمؤمن ينهج سبيل رسول الله ، ويضع« ميزان الشريعة » نصب عينيه . وتم ببركته واخلاصه النصر ، وانطلقت الأغاريد .

وَبالمناسَبَةِ

كان بعض العلماء يقرؤون صحيح البخاري ، إذا داهم عدو البلاد ، بنية صد العدو ودحره ! ولا شك أن هذا مميت للإسلام ، فهو دليل التواكل ، والقيام بالأعمال السهلة ، دون القيام بالجهاد ومقارعة العدو ، الحقيقة قراءة صحيح البخاري ، ليست لكل فصوله وأبوابه .

كان العلماء يتواجدون في أرض المعركة ، يقرؤون من البخاري أبواب الجهاد والرباط والغزو ونحوه فقط ، وفيها بلاغات النبوة ، ومنشورات الرسالة في الترغيب المطلق في فريضة الجهاد ، وبذل الدم والمال في سبيل الله .

كان العالم هو المجاهد في الخط الأول ، وهو المحرض للمؤمنين ، وقدوتهم وهو باعث الهمم في نفوسهم ، كان يعلن للجند ، جند الله ، أحاديث الجهاد في البخاري لتطبق لا ليتبارك بها فقط ، كان يقرؤها في ميدان المعركة ، لا في صومعة تبعد عن أرض الجهاد آلاف الكيلومترات .

كان يذكرهم بقول رسول الله : من مات ولم يغز ولم ينو الغزو ، مات ميتة جاهلية ، ومات على شعبة من النفاق ، ومات في دينه ثلمة ، كان يعلن لجند الله : بأن رباط ساعة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ويعلن أن من يَفِرُّ من الزحف يقع في الكبائر الموبقة ، وبأن الشهيد يتمنى لو أحياه الله فقتل ، ثم أحياه فقتل ، لما يجده من عظيم ثواب الله ، ومقامات الشهداء عند الله . كان يعلن في جند الله إذا وطئ المستعمر أرض الوطن وجب أن يخرج إليه الجميع ، حتى المرأة من غير إذن زوجها ...ومن تأخر عن هذا النفير ،فقد خلع ربقة الإسلام .

فكان العالم يبعث في نفوسهم طاقة الإيمان الكبرى ، ويدفعهم إلى الكفاح

والجهاد بالقوة الذاتية ، والصدق في حب الله والثقة به ، كأنهم يشمون ريح الجنة دون عدوهم .

لقد خرج الإمام أبو الحسن الشاذلي (وهو كفيف يقاد) إلى الجهاد في واقعة المنصورة ضد الصليبيين ، ومن حوله العلماء من أمثال من نتكلم عن فهمه السليم للإسلام« وميزان الشريعة » : العز بن عبد السلام ، فبث التضحية والفدائية والصبر والقوة والبذل في نفوس الجند ، فيفيضون إلى الصفوف زحفاً زحفا .

وينادي الإمام العز ، وقد حمل عمامته طرباً ، وتأثراً ، على كفه : **(من كان يريد الكلام القريب العهد من الله ، فليأت ، ليسمع أبا الحسن)** ، نعم قرأ أبو الحسن الشاذلي باب الجهاد في البخاري ، فزحف الناس ، وكانت الغلبة لأهل الذين تمثلوا البخاري ، وأسر ملك فرنسا (لويس) ، وهل وضع في بيت ابن لقمان أسيراً ، ببركة القراءة ؟ لا ... ببركة تطبيق القراءة مباشرة على الطبيعة ، على أرض المعركة .

صدق رسول الله ﷺ : « تعلموا ماشئتم ، فإن الله تعالى لن ينفعكم به حتى تعملوا » فكان العلماء يعملون بما علموا ، وعمل جند الله بما علموا . وهذا هو « ميزان الشريعة » .

☆ ☆ ☆

والشيءُ بالشيءِ يُذْكَرُ :

□ زمن الخديوي إسماعيل[1] ، وقعت الحرب بين مصر والحبشة ، فتوالت

---

(١) حكم مصر بعد عمه سعيد عام ١٨٦٣ ، عزل عام ١٨٧٩ لإسرافه وتبذيره وعين السلطان العثماني ابنه توفيقاً خلفا له

الهزائم أيام الخديوي على مصر لوقوع الخلاف بين قواد جيوشها . فضاق صدر الخديوي لذلك ، فركب مع شريف باشا وهو محرج[1] ، فأراد أن يفرِّج عن نفسه ، فقال لشريف باشا : ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة تريد أن تدفعها ؟!

فقال : يا أفندينا ، إن الله عودني إذا حاق بي شيء من هذا ، أن ألجأ إلى صحيح البخاري ، يقرأه لي علماء أطهار الأنفاس ، فيفرج الله عني .

(هذا فهم سقيم ورخيص للإسلام ، والذي استغربه رغم خطأ التصرف ، لماذا يقرؤون صحيح البخاري ولا يقرؤون القرآن وهو أفضل ؟!) .

والذي حدث ، أن جمع شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ العروسي[2] نخبة من العلماء ، وأخذ جميعهم يتلون البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر ، ومع ذلك ظلت أخبار الهزائم تتوالى ....

فذهب الخديوي إسماعيل ومعه شريف باشا إلى العلماء المجتمعين ، وقال لهم محنقاً :

□ إما أن هذا الذي تقرؤونه ليس صحيح البخاري ، أو أنكم لستم العلماء الذين نعرفهم من رجال السلف الصالح ، فإن الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئاً .

فوجم العلماء لذلك . وابتدره شيخ من آخر الصف ، وضع الحادثة والتلاوة وحديثه على « ميزان الشريعة » يقول له : منك ياإسماعيل ، فإنا

(١) وصل شريف باشا إلى رئاسة الوزراء بعد ثورة عرابي عام ١٨٨١ .

(٢) العروسي :« ١٢١٣ ـ ١٢٩٣هـ/١٧٩٩ ـ ١٨٧٦م » وهو مصطفى بن محمد بن أحمد بن موسى العروسي ، فقيه شافعي مصري ، ممن ولي مشيخة الأزهر عام ١٢٨١هـ . وكان مشغوفاً بابطال البدع ، فأبطل الشحاذة بالقرآن في الطرق ، وعزم على امتحان المدرسين في الأزهر ، فخافته المشايخ والطلبة ، فعزل سنة ١٢٨٧هـ . له مؤلفات منها :« نتائج الأفكار القدسية » في التصوف ، أربعة أجزاء . و« كشف الغمة في تقييد معاني أوعية سيد الأمة » و« العقود الفرائدفي بيان معاني العقائد » و« أحكام المفاكهات في أنواع الفنون المتفرقات » ...

روينا عن النبي ﷺ أنه قال : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهونّ عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

فزاد وجوم المشايخ ، وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا ولم ينبسا بكلمة ، واخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه ، فبينما هم كذلك ، إذا بشريف باشا قد عاد يسأل : أين الشيخ القائل لاخديوي ما قال ؟ فقال : أنا ، فأخذه وقام .

وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ ، يودعونه وداع من لا يأملون أن يرجع ، وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديوي في قصره ، فإذا به قاعد في البهو وجلس الشيخ على كرسي أمام الخديوي فقال الخديوي : أعد ياأستاذ ما قلته لي في الأزهر ...

إن كلمة الناقد المخلص البناء ، التي يقولها بغيرة من دينه ، لا من هواه للتجريح والتخريب والدس ، تستقر في القلب ، وتجد لها في نفوس الخلائق مستقراً .

فأعاد الشيخ كلمته وردد الحديث وشرحه ، فقال له الخديوي : ماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟

قال له : ياأفندينا أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا ، أليس الزنى برخصة ؟ أليس الخمر مباحاً ؟... أليس ... أليس .. وعدد له منكرات تجري بلا إنكار ، وقال : فكيف تنتظر النصر من السماء ؟

فقال الخديوي : وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب وهذه مدنيتهم ؟

فقال الشيخ : فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء !

ففكر الخديوي ملياً وأطرق طويلاً ثم قال لـه : صـدقت ، وأمر فرتب لـه ثلاثون جنيهـاً ، وعـاد الشيخ بعـد هـذا إلى الأزهر وإخوانـه قـد يئسوا منـه ، فكأنما قد ولد من جديد .

☆ ☆ ☆

نعود إلى العز بن عبد السلام ، الذي جَّرنا فهمه السليم « لميزان الشريعة » إلى حديث الخديوي إسماعيل .

□ لقد استأنف العز جهاده ، فدعا إلى محاربة أعـداء الإسلام« التتـار » ، ولما رأى أن تجمع الأموال من الرعيـة ليستعين بهـا الجيش في نضـالـه الرهيب ، ووافق الحاضرون على الاقتراح كأمر مسلم به لا يقبل الاعتراض ، ولكن صيحـة الشيخ تعلو بكلمة الميزان ، بكلمـة الحق ، فيقول :لكم أن تفرضوا على الرعيـة كما تريدون في مثل هذه الأحوال العصيبـة ، إذا لم يبق في بيت المـال شيء ، وإذا باع المماليك جواهرهم النفيسة ، وأدواتهم المذهبـة ، وذخـائرهم الثمينـة ، ولم يبق لهم شيء غير مـا للعـامـة ، فيتسـاوى الجميع ، وتفرض الضرائب على الرؤوس . وقـد أذعن الحضور لأمر الشيخ ، ثم توجـه الجيش المـؤمن بقيـادة الملـك المظفر قُطز[1] . فكتب الله النصر للإسلام خالداً ، بهزيمة التتـار ، لأول مرة في موقعـة عين جالوت .

ولما اغتيل قطز ، أراد الملك بيبرس أن يـأخـذ لنفسـه البيعـة بعـد مؤامرة دبَّرها . وكان له من الجبروت والبطش ، مـاأرهب وأفزع ! ولكن العز لم يعبـأ

(١) المظفر قطـز بن عبـد الله المعـزى ، سيف الـدين : ثـالث ملـوك المماليـك بمصر والشـام ، كان مملـوكاً للمعز« أيبك » التركماني . وترقى إلى أن كان في دولة المنصور « أتابك » العساكر ، ثم خلع المنصور وتسلطن مكانـه سنـة ٦٥٧هـ ، نهض لقتـال التتـار فهزمهم وظفر بهم في عين جـالوت ٦٥٨هـ . ودخـل دمشـق في مـوكب عظيم مهيب . وفي طريق عودته إلى مصر اغتاله « بيبرس » عام : ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م ، دفن في القصير ثم نقل إلى القاهرة .

به ، فامتنع عن مبايعته ، وقال له في صراحة عالية جهيرة : ياركن الدين ، أنا أعرفك مملوك البندقداري ولم يثبت لدي عتقك الآن ، فكيف أبايعك ، فاستحضر الظاهر بيبرس شهوداً يعترفون بخروجه من ملكِ سيده واسترداد حريته ، فبايعه الشيخ ، وبايع خلفه الجميع .

□ بلغ العز مرة ، أن الأمير فخر الدين عثمان قد جعل من سطح مسجد بمصر مكاناً للزمر والطبل ، فبنى به ما كان يُسمّى« طبلخانة » فقام العز بنفسه ، وصحب جماعة من تلاميذه ، وهدم البناء ، فأزال المنكر بيده ليحقق الشريعة :

كانوا أجل من الملوك جلالة   وأعز سلطانا وأفخم مظهرا

ليس ذلك بلاغة شعرية ، إن حقيقة البيت جلية في حياة العز ، وفي مواقفه السابقة ..

□ ولما توفي العز ، تنفس الظاهر بيبرس الصعداء حين رأى جنازته تمر تحت القلعة ، ووراءها آلاف وآلاف ممن لا يحصون ، حتى قال بيبرس قولته الشهيرة : « اليوم قد استقر أمري... »

رحم الله العز الذي باع أمراء المماليك ، ونادى عليهم . وقبض ثمنهم وأودعه بيت المال ، لقد صاح المنادي : (أمراء للبيع ، أمراء للبيع) . وبعد ...

قال له نجله عبد اللطيف : لقد خفت عليك خوفاً شديداً من بأس الأمير .

فصاح العز بابنه : لا تقل ذلك يابني ، فأبوك أهون من أن يقتل في سبيل الله .

مُحيي الدِّين النّووي

□ الفقيه العلامة[1] ، ألّف كتباً عديدة ، وطارت شهرته في فقه المذهب الشافعي ، فتجد آراءه الدقيقة ، يتناقلها المؤلفون ـ حتى في غير كتبه ـ لتكون أداة ترجيح بين رأي ورأي ، وتلمس نور قلبه في كثير من مؤلفاته مثل : رياض الصالحين ، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ، وبستان العارفين في التصوف .. إذ أن أمثال هذه الكتب تفيض بضياء مشرق ، يستمد شعاعه من التقوى الخاشعة واليقين الصريح ، أما دقته العلمية فتتضح في كتب أخرى مثل التحرير في الفقه ، وروضة الطالبين ، والمنهاج ، والمجدع ... وغيرها .

لذلك نرى شيخاً جليلاً كتقي الدين السبكي ، ينزل إلى قاعة الحديث الأشرفية حيث كان يجلس النووي ، فيمرغ وجهه على بساطه ويقول لمن حوله :

وَفي دارِ الحديثِ لطيفُ معنى ... أُطوّفُ في ثناياهُ وآوي
عسى أني أمس بحر وجهي ... مكاناً مَسَّهُ قدم النواوي

هذا الصوفي الفقيه ، الذي جمع : تربيةٍ وأخلاقاً وأحكاماً وعبادات ... قد أخذ الشريعة من كل جوانبها وعلى حقيقتها ، وهذا هو التصوف السليم الذي هو تزكية ، وصلة بالله ، وورع ، وخلق ... ومهما أسميت هذه الصفات ،

---

(١) النووي : (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ / ١٢٣٣ ـ ١٢٧٧ م) : يحي بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني ، الشافعي ، أبو زكريا ، محي الدين . مولده ووفاته في « نوى » من قرى حوران . تعلم في دمشق . من كتبه : تهذيب الأسماء واللغات ـ منهاج الطالبين ـ الدقائق ـ تصحيح التنبيه ـ المنهاج في شرح صحيح مسلم ـ التقريب والتيسير ـ حلية الأبرار ـ رياض الصالحين ـ بستان العارفين ـ الإيضاح ـ خلاصة الأحكام في مهات السنن وقواعد الإسلام ـ شرح المهذب للشيرازي ـ روضة الطالبين ـ التبيان في آداب حملة القرآن ـ المقاصد ـ مختصر طبقات الشافعية ـ مناقب الشافعي ـ وغيرها ... (راجع الأعلام ، ج ٩ ، ص ١٨٥) .

فسيبقى الاسم يدل على جوهرها . وقف هذا العالم في وجه بيبرس الصارم العنيف ، ذلك لما رآه يجمع الأموال من التجار ، بطائفة من غلاظ الجباة ، يغتصبون ويسلبون ، فكتب إلى السلطان يلفت نظره ، ولما وصله الخطاب ، رأى أن العز بن عبد السلام ، قد رجع في صورة عالم جديد هو محيي الدين النووي .

فواجه بيبرس الإمام بعنف ووعيد ، ورمى الرعية بالبخل والشغب ، وأعلن أن أمر الجباة يطبق مها غلوا في المكوس ، وتهجّموا بالسب والضرب ، إذ هم أعوان الدولة ورسلها لدى الناس ، وظن الظاهر بذلك أنه قد أطفأ الثائرة وَكَمَّ الأفواه ، ولما قرأ الإمام الرد ، دعاه الحق ، دعاه (ميزان الشريعة) ، أن ينقض الباطل ، ويحق الحق ، فكتب إلى الظاهر بيبرس :

□ أما تهديد الرعيّة بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأي حيلة لضعفاء المسلمين في الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه ، وأما أنا في نفسي فلا يضيرني التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإني أعتقد أن ذلك واجب علي وعلى غيري ، وما يترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى : ﴿ إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإنَّ الآخرة هي دار القرار[1] ﴾ ، ﴿ وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد[2] ﴾ ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا ، وألا نخشى في الله لومة لائم .

فجمع الظاهر الجباة ، وأمرهم بالرفق والملاينة ، وحذرهم غضب العلماء

---

(١) سورة غافر ، الآية الكريمة : ٣٩ .

(٢) سورة غافر ، الآية الكريمة : ٤٤ .

من الخاصة ، والجمهور من العامة ، وجنح للتهاون أمام عزيمة النووي ، فقد فعلت نصيحة الشيخ فعلتها في نفس السلطان .

□ أعقبت هذه الحادثة حادثة أخرى أعنف وأشد منها عنفاً وإيجاعاً .

لما تهيأ الظاهر لبعض حروبه ، أراد أن يأخذ من أموال الرعية ، واستفتى العلماء فأفتوه بالجواز . ولكن الشيخ النووي امتنع عن الفتوى ، فسأله الظاهر : لماذا لا تجيز أن تُجمع الأموال من المسلمين ، لننفقها في الجهاد كما أفتى زملاؤك من الفقهاء ؟

(أولئك تركوا الميزان ، أو زانوا به ويدهم تضغط على إحدى كفتيه خوفاً ، أو طمعاً ، أو حظ نفس ... وأمثال هؤلاء أضاعوا القرآن بين الأمراء والعلماء) .

فرد الشيخ في حَزْمٍ أخّاذ : كلنا يعلم أن لديك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية نصيب من الحلي ، فإذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود والصوف بدلاً من الحوائص ، وبقيت الجواري بثيابهن دون حلي ، أفتيتك بأخذ مال الرعية .

إنها صورة العز في وجه الملك المظفر قطز حين همّ بجمع المال من الرعية قبل موقعة عين جالوت ، تذكر الظاهر بيبرس تلك الصورة جديدة في صورة الشيخ النووي ، فعض على شفتيه ، ودمدم يقول :

ذرية بعضها من بعض ، ما أشبه الليلة بالبارحة فيما كان .

☆ ☆ ☆

ابن تيميَّة

« شيخ الإسلام (١) »

□ حارب ابن تيمية في ميدانين ، ميدان داخلي ضد من يسوق العامة سوقاً إلى المبتدعات الضالة ، وانحرافات مريضة ، ومن أدعياء تصوف ، قليلي الفهم والهدف من التصوف ، حيث كان التصوف في واد وهم في واد غيره .. كما جابه الأشاعرة والمعتزلة والجهمية والحنابلة ... وما في أفكارهم من تحدٍّ وتناحر حول العقيدة بالله تعالى وماهيته وما ثبت له من الصفات ...

ولما بحث العالم الإسلامي في هذه الأمور الجزئية ، وهذه الأمور الفلسفية ضاع ، وأضاع العالم كله .

□ نظر ابن تيميَّة إلى أدعياء التصوف وقد ساروا بالعامة إلى أمور دخيلة بعيدة عن « ميزان الشريعة » ، بعيدة عن الفكر الإسلامي والعقيدة المحمَّدية ، فهناك أنصار الاتحاد ، ووحدة الوجود ، والحلول ... فوقف في وجه هذه المعاني الدخيلة .

أما جوهر التصوف أخلاقاً وتربية وتزكية نفس ، فلا يقف في وجهها منصف ، لأنها هي ضالة المجتمع .

ولما نصر ابن تيميَّة أهل السلف معتمداً على « ميزان الشريعة » بعيداً عن

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ... أبو العباس ، تقي الدين ابن تيمية « ٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م » : ولد في حَرَّان وتحول به أبوه إلى دمشق ، فنبغ واشتهر ، طلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها ، فقصدها ، فتعصب عليه جماعة من أهلها ، فسجن مدة ، ونقل إلى الاسكندرية ، ثم أطلق ، فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ ، واعتقل بها بعد جهاد كبير سنة ٧٢٠ وأطلق ، ثم أعيد ، ومات معتقلاً بقلعة دمشق . « راجع الأعلام ج ١ ، ص ١٤٠ / ١٤١ » لمعرفة إنتاجه الفكري الغزير .

التأويل . لجأ المعارضون إلى السلطان في دمشق والقاهرة ، فهوّلوا الأمر . وضللوا لبعدهم عن « الميزان » وألحّوا في سجنه ، فكان لهم مَا أرادوا .

□ ومن مواقف ابن تيمية الشرعية المنبثقة من الميزان :

وقف في وجه من يتخذ قبور الأولياء وسيلة توبة ، ولتحقيق الرغائب وإجابة الطلب ، ومن يعتقد أن ساكن الضريح ينفع ويضر ... فهاجم هؤلاء وهو على حق . فالولي الصالح يستفيد منه ومن تربيته وتزكيته من في عصره ، ولكل عصر مصلحون مربون . فمن أراد التقرب إلى الله بالعمل الخالص ... فليتعلم الشريعة كما نزلت على ابن عبد الله سيدنا محمد ﷺ ، يسارع هو بعدها إلى الخيرات ، يتخلق بأخلاق القرآن ، يعبد الله في مقام الإحسان ...

أما أن يزهد المسلم بعالم زمانه ، ويلازم الأضرحة والمزارات ويطلب من الله بواسطتها ، فهذا بعد عن الميزان ، قال عز وجل :

□ ﴿ وإذا سألكَ عبادي عني فإني قريبٌ أجيبُ دَعوةَ الدَّاعِ إذا دعانِ ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلَّهُم يَرْشُدون ﴾ . (البقرة / ١٨٦) .

هذا ... ولا يعني ذلك كره ومسبَّة مَنْ سبقنا من الصالحين ، ولكن السعيد من انتفع بعلم وتزكية علماء زمانه .

□ وتظهر روعة ابن تيميَّة لما تغير السلطان ، وجاء سلطان يُقَدِّر الشيخ ، ويصدر عن رأيه ، فعرض عليه أن ينكل بخصومه المتشددين جزاء ما أنزلوه به من أهوال . ولكن ابن تيميَّة ، رجع إلى « الميزان » فوجد التسامح هو المثل الرفيع في الخُلُق . حتى قال عنه غريمه الأول ، قاضي المالكية بمصر قولته العجيبة : « ما رأينا أعفى من ابن تيميَّة ، لم نبق ممكناً في السعي عليه ، وحين

قدر علينا بادر بالعفو[1]» . وابن تيمية بهذا الموقف ، يذكرنا برسول الله ﷺ بعد فتح مكة وقولته المشهورة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ...

□ وموقفه رهيب من (فازان) ملك التتار ، وذلك عام ٦٩٩ هـ ، عندما أراد أن يثأر ممن أذاق قومه الهزيمة لأول مرة في عين جالوت . فتظاهر (فازان) بالإسلام ، وصحب معه المؤذن والقاضي والإمام ، ولكنه سلط سيفه على الرقاب المسالمة ، فقطعها في غير إيمان . ولما وصل قرب دمشق ، مال إلى المهادنة ، وقدم طعاماً إلى الوفد الذي تشكل برئاسة الشيخ ابن تيميَّة ، وفريق من أعيان الدمشقيين ، ويمتنع الشيخ عن الطعام ، فيسأله (فازان) لماذا لا تأكل أيها الشيخ ؟

فيرد الشيخ في عناد : « كيف آكل طعامكم وقد طهيتموه من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ، ولا ملك لأحد لكم فيه ؟ » .. وهنا يتجلى ميزان الشريعة بالطعام الحلال .

فرد فازان مضطرباً مأخوذاً : ولكني مسلم أيها الشيخ .

ويجيب ابن تيمية : لقد سلطت مَلِكَ الكرج الصليبي على المسلمين ، ودفعت له السلاح والجند ليقاتل بني الإسلام ، فأين كان دينك حين ذاك !؟

فبهت الطاغية ، وبحث عن رد ينقذه ، فلم يجد غير أن يقول : أنا مسلم ومعي مؤذن وقاض وإمام .

فعاجله ابن تيمية : وماذا تفعل بإسلامك وقد كان أبوك وجدك كافرين ، ولم يفعلا ما فعلت ، لقد عاهدا فَوَفَّيا ، وأنت عاهدت فغدرت .

فنكَّسَ (فازان) رأسه واندفع يطلب من ابن تيمية الدعاء .

---

(١) « علماء في وجه الطغيان » ، صفحة : ٨٢ .

فقال ابن تيمية بسياسة وكياسة : اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيِّدْهُ ، وملكه البلاد والعباد ، وإن قام رياء وسمعة طلباً للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره . ثم خرج مرفوع الرأس ، وأصحابه يقولون له في إشفاق : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك بعد هذا .

□ وعاد ابن تيميَّة إلى دمشق ، فشجع الناس على القتال **وقاد الفقهاء في ميدان التدريب** ، وهنا يتجلى الفهم الصحيح « للميزان » في حياة ابن تيمية ، يدرب الفقهاء على أعمال الفروسية والجهاد ، ثم تمضي الأيام فيعود العدو من جديد ، فيهب ابن تيمية للنضال ، ويتقدم الصفوف طالباً الشهادة كما تطلب « الشريعة وميزانها » في مثل هذا الموقف .

ويخرج السلطان الملك الناصر للحرب ، ويشعل ابن تيمية الحماس في نفوس جند الله وهو بينهم ، ويندحر التتار . وهذا يذكرنا بحالنا اليوم ، يقف الخطيب في نهاية كل خطبة جمعة : اللهم انصر الإسلام والمسلمين ، اللَّهم ادحر أعداءهم ونكّس راياتهم وشَتِّت شملهم فإنهم لا يعجزونك ... هذا الكلام بعيد عن ميزان الشريعة إذا لم يسبقه الإعداد لأن النبي ﷺ ما دعا إلا بعد الإعداد والاستعداد ، الدعاء وحده لا يكفي ،اللهم انصر الإسلام . الدعاء وحده هيِّن على كل إنسان ، المهم أن يقتدي الخطيب ، أي خطيب ، بابن تيمية ، يشعل الحماس في النفوس ، ويكون بين الجند ... ثم يطلب النصر من الله ، النبي هيأ الجيش في بدر ، واستشار أصحابه وكان بينهم في القتال ، ثم دعا الله قائلاً : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد في الأرض ، اللهم نصرك الذي

وعـدتني » . فمع وعـد الله لـه بـالنصر ، هيـا الجنـد ورتب الأمر ثم رفع يـديـه بالدعاء .

□ وموقف ابن تيميـة في الجهـاد يـذكرنـا أيضـاً بموقفـه من أهـل كسروان بـالشـام حين استبـاحوا الحرمـات ، وحـالفـوا الأعـداء ، وتعرضـوا إلى الحُجَّـاج يقتلون ويـذبحـون ويسلبـون . فتـوجـه الشيـخ إلى قتـالهم ، وأفتى بكفرهم لمـا عملوا ، وثبت للهول في محن خطيرة حتى أراح المسلمين وأمَّن الطريق .

لقد اعتصم الإمام بالحق وبشريعة الله ، فعصمه الله من كل الطغـاة ، وإن كان سجن فشرف له في سبيل الحق وإصلاحه في الدين .

ولما توفي ، خرجت دمشق كلها في جنازته . عرفـانـا بـالجميل ، ومحبـة بمن حارب الخرافات وسعى لتحقيق (ميزان الشريعة) الصحيح .

☆ ☆ ☆

ابن قيِّـم الجوزيَّـة

(متصوف حارب بدع التصوف) (١)

□ شهادة العلماء فيه :

ـ الذهبي : « عني بالحديث وفنونه وبعض رجاله ، وكان يشتغل في الفقـه ويجيد تقريره ، وفي النحو ويدريه » .

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعـد الزُّرْعي الـدمشقي ، أبو عبـد الله ، شمس الـدين : من أركان الإصلاح الإسلامي ، مولـده ووفـاتـه في دمشق ٦٩١ ـ ٧٥١ هـ / ١٢٩٢ ـ ١٣٥٦ م ، تتلمـذ على شيـخ الإسـلام ابن تيميـة ، ينتصر له ، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه ، وسجن معه في قلعة دمشق . كان حسن الخلق محبوباً عند النـاس ، أغرى بجب الكتب ، فجمع منها عـدداً عظيماً ، مؤلفـاتـه كثيرة ، يمكن الرجوع إليهـا في « الأعلام : ج ٦ ، ص : ٢٨٠ / ٢٨١ » .

ـ برهان الدين الزرعي : « ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه » .

ـ ابن حجر : « كان جريء الجنان ، واسع العلم عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف ، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى لا يخرج عن شيء من أقواله ، بل ينتصر له في جميع ذلك ، وقد هذب كتبه[1] » . وقال : « وكان إذا صلى الصبح ، جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ، ويقول : هذه غدوتي ، لو لم أقعدها سقطت قواي ، وكان يقول بالصبر والفقر تنال الإمامة في الدين ، وكان يقول : لا بد للسالك من همة تسيِّره وترقيه ، وعلم يبصره ويهديه » .

ـ وقال الشيخ محمد الزفزاف : « امتاز بنفاذ الذهن ، وبعد الغور ، ووفرة المحفوظ ، والتحرر من ربقة التقليد الأعمى الذي يطمس معالم الحق ، ويقف حجر عثرة في سبيل الوصول إلى الصواب » ، وتوافرت فيه كثير من أخلاق العلماء : « أمانة في العلم ، وإنصاف للخصم ، وهدوء في النقاش ، وتعمق في البحث[2] » .

□ جاء ابن القيم وأستاذه ابن تيمية ، في عصر مليء بالخلافات المذهبية ، فحارباها ، ودعوا إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف من تحكيم الكتاب والسنة ، دون تعطيل أو تشبيه ، والفرق بينهما : ثورة ابن تيمية وحدّته في المعارضة ، وهدوء ابن القيم وعدم تعصبه لمذهب الحنابلة ، بل كان يسير مع الحق أين سارت ركائبه ، دون نظر إلى رجاله . فقام بجرأة يدعو إلى تحرر

= أشهرها : أعلام الموقعين ، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، وزاد المعاد ، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، والتبيان في آداب حملة القرآن .

(١) راجع شهادة العلماء به في كتاب « ابن قيم الجوزية ، عصره ومنهجه ، وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف » للدكتور عبد العظيم شرف الدين ، ط ٢ ، عام ١٩٦٧ م ، وذلك في ص : ٧١/٧٠ . وأكثر ما في هذا البحث مدين للكتاب المذكور .

(٢) الشيخ محمد الزفزاف : أستاذ الشريعة الإسلامية ، ووكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة (سابقاً) .

العقول من ربقة التقليد ، والتمسك بالكتاب والسنة ما أمكن ، وإلا فالاجتهاد[1] ، وأخذ بالمصلحة المرسلة حيث لا نص .

□ وجوانب حياة ابن القيم الجوزية عامرة جداً وحافلة بالأحداث التي تستحق الذكر ، ولكننا ولما يناسب الموضوع نكتفي بناحيتين متميزتين عما سواهما :

١ ـ التحرر الفكري ، ومحاربة التقليد .

٢ ـ موقفه من التصوف .

١ ـ كره ابن القيم التقليد والانصراف عن الكتاب والسنة : فدعا إلى التحرر الفكري ، وعدم الجمود . ولتحقيق غرضه ، حارب التقليد ، ودعا إلى الاجتهاد .

لقد انتشر التقليد منذ القرن الرابع الهجري ، حيث استقرت المذاهب الأربعة في البلاد المختلفة ، وكان لكل مذهب أنصار وأتباع ، حرصوا على نشر مذهب إمامهم ، ولما جاء ابن القيم ، وجد ظاهرة التقليد قد تحكمت في العقول ، واستولت على الأفكار ، وقصر العلماء فهمهم ومهمتهم على ترديد فتاوى الأئمة السابقين ، والتشبث بآرائهم ، ولو خالفت فتاوى الصحابة . وقد تغالوا فيما ذهبوا إليه من تقليدهم ، إذ جعلوا فتاوى أئمتهم معياراً يعرضون عليه الكتاب والسنة وفتاوى الصحابة ، فما وافقها قبلوه ، وما خالفها ردوه .

لما سبق ، قام بجرأة يدعو إلى تحرر العقول من ربقة التقليد ، وإلى التمسك بالكتاب والسنة ما أمكن ، وإلا فالاجتهاد .

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري ، ص : ٣٢٥ ، وروح المعاني للآلوسي « ج ٢ / ص ١٣١ / ١٣٢ » . وأعلام الموقعين « ج : ٢ / ص : ٢٣٦ » .

ولكنه مدح نوعاً من التقليد ، أسماه التقليد المحمود ، وهو بذل الجهد في اتباع ما أنزل الله ، وما خفي عليه بعضه ، قلد فيه من هو أعلم منه ، فهذا تقليد محمود[1] .

ولا يتبادر إلى الذهن ، أن ابن القيم ما دام يحرم التقليد ، يرى أن الواجب على كل فرد أن يعرف كل مسألة بدليلها ، وقد أجاب على ذلك بقوله : « ولا ندعي أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله في كل مسألة من مسائل الدين » . وإنما أنكر ما أنكره الأئمة ، ومن تقدمهم من الصحابة والتابعين ، وما حدث في الإسلام بعد انقضاء القرون الفاضلة في القرن الرابع[2] .

فهو يذم من أخذ فتاوى رجل واحد وجعلها بمنزلة نصوص الشرع من آيات وأحاديث صحيحة ، بل وقدَّمها على نصوص الشرع ، واكتفى بالتقليد ، بدلاً من تلقي الأحكام من كتاب الله ، وسنة رسوله ، وأقوال الصحابة !

وابن القيم يذكر أن هناك تقليداً واجباً ، وتقليداً مباحاً ، وتقليداً محرماً . أما المباح فهو تقليد مَنْ هو أعلم ، والمحرم : من يجعل نفسه متعلقاً بفتاوى وإن خالفت ميزان الشريعة ـ أما التقليد الواجب : فهو تقليد آراء الصحابة إذا لم يظفر المرء بنص من الكتاب أو السنة ، كالذي نقل عن الشافعي في عدة مواضع : « قلته تقليداً لعمر » .. أو « قلته تقليداً لعثمان » ، و « قلته تقليداً لعطاء » ...

وقال الشافعي في الصحابة : « رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا[3] » .

---

(١) راجع « ابن قيم الجوزية » للدكتور عبد العظيم شرف الدين ، ص ١٠٤ وما بعدها ، وأعلام الموقعين ج : / ٢٨٢ » .

(٢) أعلام الموقعين ، « ج ٢ ، ص : ٣٤٧ » .

(٣) أعلام الموقعين ، « ج ٢ ، ص : ٣٠٤ » .

□ والتقليد غير الاتباع :

ـ التقليد : الرجوع إلى قول لا حجة لقائِلِه عليه ، أو قبول رأي من لا تقوم به الحجة بلا حجة[1] .

ـ أما الاتباع : فالعمل بقول تثبت له الحجة ، واقتنع به القائل ، والاتباع سائغ في الشريعة ، والتقليد ممنوع .

□ ويستدل ابن القيم على صحة رأيه في منع التقليد : فالصحابة ، لم يعرف التقليد إلى نفوسهم سبيلاً ، وأوضح دليل على ذلك ما قام بينهم من خلاف فيما لم يُنَصّ عليه ، فلو كانوا مقلدين لاتبعوا رأياً قال به أحدهم ، فاختلافهم دليل على إعمال الفكر فيما لم ينص عليه ، كرأي عمر في أراضي سواد العراق ، ورأيه في المفاضلة في العطاء ، بينما رأى الصدِّيق التسويَة . رأى عمر المفاضلة لمن له فضل السبق والقدم في الإسلام ، وقال : لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ ، كمن قاتل معه[2] » .

« وقد يدهش المرء إذا علم أن الأئمة تبرؤوا من المقلدين ، ونهوا عن التقليد ، قال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة ، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حَطَب ، وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري » . وقال : « أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس » ، وقال : « إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط[3] » .

---

(١) إرشاد الفحول ، للشوكاني ، ص : ٢٤٧ .

(٢) أعلام الموقعين : « ج : ٢ ، ص : ٣٦١ » .

(٣) أعلام الموقعين : « ج : ٢ ، ص : ٣٢٦ » .

وقال مالك : « أنا بشر ، أخطىء وأصيب ، فانظروا في رأيي ، فما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وما لم يوافق فاتركوه » .

ومضى ابن القيم في تفنيد مزاعم المقلدين في أناة لا تعرف الملل ، مع علم وفير ، وعقل ناضج ، يسد كل طريق على المقلدين . علماً أنه لا يحارب « المذاهب » ، فاتباع مذهب مستند إلى القرآن والسنة ، لا غبار عليه ، يقول الشاطبي : « إذا كان الحق هو المعتبر دون الرجال ، فالحق أيضاً لا يعرف دون وسائطهم ، بل بهم يُتوصل إليه ، وهم الأدلاء عليه » .

ولكن دعوة ابن القيم : دعوة التحرر الفكري ، والرجوع إلى الدين بنقائه وخلوِّه من آراء الفرق المنحرفة ، فهو يحارب الانحراف في استنباط الأحكام هذا الانحراف الذي ظهر في التقليد ، والوقوف عند ما يراه رجل معين ، وتحكيم أقواله في النصوص ، فتقدم عليها عند التعارض ، وتحمل النصوص عليها ، كما حارب التلاعب بأحكام الدين ، في الحيل التي لجأوا إليها لتحليل الحرام للوصول إلى غرض ممنوع ، وإحلال الحرام .

□ هذا هو الجانب الأول لما يناسب ما نحن بصدده من حياة ابن قيم الجوزية ، وحضرني أثناء كتابه هذه الأسطر نقاش ذكر فيه أحدهم رأياً مستنداً إلى كتاب الله عز وجل ، وقول رسول الله ﷺ ، فكان من المفروض أن ينتهي النقاش بالرجوع إلى الحقيقة ، كما أرادها الله ورسوله ، ولكن الطرف الآخر لم يرضَ بها وقال : ولكن شيخي قال كذا .... بما يخالف رأي ميزان الشريعة . فأنهيت بين الطرفين النقاش ... وقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أين أنت يا ابن القيم ؟! أين أنت لتشهد مَن يقدم قول شيخه على قول الله ورسوله ، ولو تعارضا !! والله عز وجل يقول :

﴿ وما كانَ لمؤمن ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أن يكونَ لَهُم الخيرةُ مِنْ أمرِهِمْ ، ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسُولَهُ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبيناً[1] ﴾ .

٢ ـ ابن القيِّم والتصوُّف :

□ درس ابن القيم التصوف ، وترك من المؤلفات الصوفية ما يدل على مبلغ علمه بالتصوف ، وما يكشف النقاب عن موقفه منه ، مستمداً تصوفه وعلمه به ، من مصادر ثلاثة :

١ ـ القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وما أثر عن الصحابة من أقوال وأفعال تدعو إلى الزهد في الدنيا « قلبياً » ، والترغيب في الآخرة .

٢ ـ ما سمعه من شيخه ابن تيمية ، الذي وقف سداً في وجه الصوفية السلبية المنحرفة . فتحدث ابن القيم عن السرور الذي يحصل للمرء نتيجة القرب من الله ، وبيَّن أن السرور يبعث على العمل ، واستدل بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث ذكر فيها ذوق طعم الإيمان ، ووجد حلاوته ، فذكر عليه الصلاة والسلام : الذوق والوجد وعلقه بالإيمان .

٣ ـ وأخذ عمن سبقه من الصوفية : كالجنيد ، وذي النون ، وسفيان الثوري ... فكان ابن القيم يفهم الصوفية كما فهمها الجنيد ، وكان يقول ابن القيم : « قال سيد الطائفة الجنيدُ بنُ محمد رضي الله عنه لما قيل له : أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات من باب السير والتقرب إلى الله ، فقال الجنيد : إن هذاكلام قوم تكلموا بإسقاط الأعمال عن الجوارح ، وهو عندي عظيمة ، والذي يزني ويسرق ، أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، وقال

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية الكريمة : ٣٦ .

الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن طريقنا وعلمنا مقيد بالكتاب والسنة » .

وكان يورد قول الإمام أحمد ، عندما سئل عن رجل يكون معه ألف دينار « هل يكون زاهداً ؟ » فقال نعم ، على شريطة ، ألا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت .

واستدل ابن القيم بأقوال الصوفية على وجوب اتباع الشريعة ، قال أبو يزيد البسطامي : « لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات ، حتى يرتفع في الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود والشريعة » .

هذه بعض النصوص التي كان يعتمدها ابن القيم ويعتد بها[1] .

وكل ما سبق ، ما منع ابن القيم من نقد التصوف المنحرف . كما حدث مع الصوفي المجاهد عبد الكريم الخطابي صاحب ثورة الريف في المغرب ، فقد خاصم وهو الصوفي المؤمن المجاهد ، رجالَ الطرق السلبية[2]، فأيهما على صواب ؟ حتماً ، المتبع لشريعة القرآن وسنة رسول الله . وابن الجوزي[3]، عندما هاجم في كتابه : « تلبيس ابليس » ، الباب العاشر ، هاجم التصوف المنحرف السلبي ، وهو محق كل الحق ، فكل عمل ، يرتكب ويعمل باسم أي فئة ، إن لم يطابق الشرع ويَسْتَمَد منه ، يستنكره الجميع ويرفضونه ، سواء عَمِلَهُ أهلُ الفقهِ ، أو التصوفِ ، أو السلفِ ...

فكيف يقبل تصرف بعضهم المخالف للشريعة مثل :

---

(١) راجع (ابن قيم الجوزية) ، صفحة : ٣٩٢ ، وما بعدها .

(٢) « المغرب العربي » د . صلاح عقاد ، ص : ٢٨٧ .

(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي ، ولد عام : ٥٠٨ هـ ، وتوفي عام : ٥٩٦ هـ .

المريد ، ينفق كل ماله ويفتقر كيلا يتعلق قلبه بالدنيا ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح[1]» ، وقال صلى الله عليه وسلم لأبي لبابة عندما تاب وأراد أن ينخلع عن كل ماله لتتم توبته : « أمسك بعض مالك ، فهو خير لك[2]» ، وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس[3]» .

وقد كانت لبعضهم بضاعة فأنفقها ، وقال : ما أريد أن تكون ثقتي إلا بالله ، وهذا قلة فهم ، لأنه يظن أن من التوكل قطع الأسباب واخراج المال كله[4].

تجويد اللباس ، يقولون : هوى للنفس ، وقد أمرنا بمجاهدتها ، وتزين للخلق ، وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله ، لا للخلق .

ليس كل ما تهواه النفس يذم ، ولا كل التزين للناس يكره ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم ، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس[5] » .

وقال أبو ريحانة : يا رسول الله ، إني لأُحب الجمال حتى في نعلي وعلاقة سوطي ، أفمن الكبر ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميل يحب الجمال ، ونظيف يحب النظافة ، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها ،

---

(١) رواه أحمد ، واسناده صحيح .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) تلبيس ابليس ، صفحة ٢٠٥ وما بعدها . طبعة : دار الوعي العربي (بيروت) .

(٥) رواه الحكم عن سهل بن الحنظلية .

ويحب أن يُرى أثر نعمته على عبده ، ويبغض البؤس والتباؤس ، الكِبر مَن سَفَّه الحق ، وغمط الناس حقهم[1] » .

وهكذا ... كان اعتراض ابن الجوزي وغيره لمخالفات مدعي التصوف ، ولا يستطيع ابن الجوزي ولا يستطيع غيره أن يمسَّ تصوف الفضيل بن عياض أو تصوف عبد الله بن المبارك ، أو الحسن البصري ، أو العز بن عبد السلام ، أو سعيد بن المسيب ... بكلمة واحدة ، فقد تمثلت فيهم الشريعة الحقَّة ، ونبع تصوفُهمُ من القرآن والسنَّة ! ولذلك أقول : رجوعاً إلى ينابيع الشريعة : القرآن والسنة ، ولنكتف بلقب : مسلم ومسلمة ، مؤمن ومؤمنة .

وقد انتقد ابن القيم وعاب على المتصوفة المنحرفين : وحدة الوجود ، وسقوط التكاليف ، والتفرقة بين الحقيقة والشريعة ، وتحكم الذوق ورفض العلم ، والتعبد بما لم يشرع الله .

وقال : كلما ازداد العبد قرباً من الله ، كان أكثر عبادة لله وشكراً له . واستدل على ذلك بالرسول الأعظم ، قالت له عائشة : هوِّن على نفسك ، فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال صلى الله عليه وسلم : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ ! . واستدل بالجنيد : ظل يعبد الله حتى آخر لحظة في حياته ، فقد روي أنه دخل عليه شاب وهو في مرضه الذي مات فيه ، وقد تورم وجهه ، وبين يديه مخدة يصلي إليها ، فقال : وفي هذه الساعة لا تترك الصلاة ! ؟ فلما سَلَّمَ دعاه وقال : شيء وصلت به إلى الله . فلا أدعه ، ومات بعد ساعة رحمه الله .

□ ابن القيم صوفي ذائق حلاوة التصوف وسروره ، ولكنه وضعه في ميزان

---

(١) رواه ابن عساكر عن ابن عمر .

الشريعة ، وحدد معانيه ، وفهمه فهماً سليماً : كسهل بن عبد الله التستري ، وأبي طالب المكي ، وأبي عثمان النيسابوري ، ويحيى بن معاذ الرازي ... فكلهم فتشوا عن اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة القلب ، وزكاة النفس ، وتصحيح المعاملة[1] .

□ ورفض ابن القيم كلمات الشكر والتكلم بما يخالف الشريعة ، واعتبر درجة الصحو درجة الكمال من المحبين[2]. واستدل على الصحو برسول الله ، فقد أسري به ، ورأى ما رأى ، وهو ثابت الجأش ، رابط الجنان : « **ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى**[3]» . ولو كان الفناء خيراً من الصحو لفني الرسول في هذا الحال ، ولهذا كان الرسول أفضل من موسى عليه السلام إذ خرَّ صعقاً لما تجلى الله للجبل .

□ وصوفية ابن القيم تهتم بالقلب . ففي كتابه « إغاثة اللهفان » اثنا عشر باباً في صدره ، يتكلم فيها عن القلوب ، وما يتعلق بها ، تكلم الطبيب الماهر ، يشخص أمراضها ، ويصف علاجها ، وينهي بحثه بنظرية في المعرفة ، ونظرية في السعادة وتتلخص هاتان النظريتان بـ :

١ ـ حياة القلوب بإدراك الحق .

٢ ـ سعادة القلوب بعبادة الله تعالى . « ورأى تقديم المعرفة على المحبة كما رأى الغزالي » .

ـ كما وضع مبادىء خلقية للمتصوف :

١ ـ المروءة مع النفس ، ترك ما يدنسها ويشينها .

---

(١) مدارج السالكين ، ج : ١ ، ص : ٧٥ .

(٢) إغاثة اللهفان ، ص : ٣٣١ .

(٣) سورة النجم ، الآية الكريمة : ١٧ و ١٨ .

٢ ـ المروءة مع الخَلْق : الأدب والحياء والخُلُق الجميل معهم .

٣ ـ المروءة مع الحق سبحانه : الاستحياء من نظر الله إليه في كل لحظة ، واصلاح العيوب ما أمكنه .

هذا هو ابن القيم :

ـ العالم بأحكام الشريعة ، الباحث الحر ، يعمل فكره ، ويجتهد باتزان وهدوء ، الداعي لنبذ الخلافات المذهبية والتعصب الذميم ، السلفي في العقائد ، المتصوف في النفس والقلب ، والمصفيه مما شابه من انصراف عن الشريعة .

وفي نهاية هذا البحث أدعو كل محب للحقيقة ، أن يتخذ موقفاً موضوعياً من التصوف فيدرسه من منابعه الصافية ، من حياة رجال تبنوه فأحسنوا في تبنيه والتخلق به ، وليكن ابن القيم أسوة لهم ، فما رآه من انحراف بعضهم ، لم يدفعه إلى أن يهاجم التصوف ككل . بل سعى لتصفيته والعودة به إلى ينابيعه الأولى ، وما أنكر التربية الروحية والتزكية لأن أسانيدها من الشريعة .

☆ ☆ ☆

جمال الدين الأفغاني

□ نشأ الأفغاني في عهد يائس حزين[1] ، الشرق خامد ، أراد أن يزلزله بصيحة عالية ، الممالك الإسلامية بلا استثناء ، أشبه بالمريض المنهوك الذي سرى الداء في كل عضو من أعضاء جسمه ، وطغت دول الاستعمار بما

---

(١) جمال الدين محمد بن صفدر الحسيني (« صف » و « در » : ومعناها بالفارسية مخترق الصفوف) . ولد عام ١٢٥٤ هـ ـ ١٨٣٨ م / وتوفي عام ١٣١٥ هـ ـ ١٨٩٧ ، . باعث الشرق ونهضته الحاضرة . ولد في أسعد أباد بأفغانستان . ونشأ بكابل ، تلقى العلوم العقلية والنقلية ، وبرع في الرياضيات . أتقن : العربية والأفغانية والفارسية والسنسكريتية والتركية . وتعلم الفرنسية والانكليزية والروسية .

ملكت من القوة والعلم طغياناً مكنها من الشر والبغي والاستغلال ، واتجهت بمعاولها الهادمة إلى الدين تصمه بالرجعية والتزمت والضيق ، وتنسب إلى تعاليمه أسباب التأخر والانحطاط ، ثم تعرض مفاتن أوروبة ، وما ابتدعته في عصور النهضة من فنون ، وما وصل إليه العصر من مستحدثات علمية ، متخذة من ذلك كله دلائل ساطعة على انحطاط المسلمين بوقوفهم عند دينهم البدوي المتأخر كما تصوره هؤلاء !

□ وكان الجهل المطبق يدفع الكثير من المسلمين إلى القنوط واليأس ، ويشككهم في القيمة الحقيقية للشريعة الإسلامية وبقائها الحي على تعاقب الأجيال ، حتى وجد جمال الدين ، فدرس عصره ، وألم بمعضلات العالم الإسلامي ، ورأى أن الدين براء مما ينسب إليه ، وأن المسلمين لم يتقهقروا في مضمار الحضارة والعلم ، إلا لأنهم تركوا الدين وراءهم ظهرياً ، فظلموه ظلماً فادحاً ، حين انتسبوا إليه ، بالقول ، ثم خالفوا جميع أوامره ونواهيه ، فحقَّت عليهم كلمة الله ! !

بلاد الأفغان موطن آبائه ، وأول موطن تنسم به ريح الحياة ، دخل المعترك السياسي على حداثة سِنِّه ، ثم اضطر إلى الفرار إلى الهند ، وهناك قال قولته الشهيرة : « يا أهل الهند ، وعزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين وقد مسخكم الله ذباباً ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ، ولو كنتم وأنتم مئات الملايين وقد مسخكم الله وجعل كلاً منكم سلحفاة ، وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى بلدكم أحراراً » .

ثم ارتحل إلى مصر ، تاركاً وراءه من كل حرف من هذه الحروف جمرة تشتعل ، ولهيباً يتطاير ليلتهم أوكار البغي والاستبداد ، فتصدر المجالس ليعلن

آراءه في الحكام وبرامجه في الاصلاح ، ودفع صفوة تلاميذه إلى الكتابة في الصحف ، ليصوروا الفساد الداخلي ، ويفضحوا الطغيان الداخلي ، ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام ، وإقامة حكومة دستورية ، تخضع لبرلمان متيقظ ، يحاسب على التبذير والرشوة والتقصير .

وصاحب ثورة كهذه الثورة ، لا بد أن يحارب بعنف ، فتعاون الاستعمار الخارجي والطغيان الداخلي على ابعاده ، فغادر مصر ، ولكن بعد أن أعد الموقد واشعل الثقاب .

وفي الغرب اتخذ صحفه منبراً ، وانديته مجلساً تكفل لآرائه الذيوع ، فأصدر في باريس جريدة « العروة الوثقى » مع تلميذه الشيخ محمد عبده لكنها حوربت لما فيها من أفكار الإيقاظ والاصلاح ، وصودرت في مختلف مصارف البريد ، ثم اضطرت إلى التوقف بعد نضال حميد .

□ حاولت بريطانيا أن تستغله في ثورة المهدي التي قامت في السودان عام ١٨٨٢ م ، لما عجز الأسد البريطاني عن مواجهتها بأسلحة وعتاد ،فرأى أن يبعث الأفغاني إلى السودان ملكاً رسمياً تلتف حوله الجموع ليستطيع بمكانته وعلمه أن يجمع حوله المسلمين قاطبة ، فتخبو نار الثورة ، ويصبح السودان لقمة سائغة في فم بريطانيا ، يقدمها السيد الأفغاني لها طواعية ، وأي وهم تمكن في نفس المستر سالسبري رئيس وزراء بريطانيا إذ ذاك ؟ !

كان جواب الأفغاني : هذا تكليف غريب ، وسفه في السياسة ما بعده من سفه ، هل تملكون السودان حتى تتوجوا عليه ملكاً يخضع لآرائكم كما تشاؤون ؟ .

□ وفي فرنسة ، نظر في الصحف الباريسية فرأى الفيلسوف

الفرنسي « رينان » يشن حرباً طاحنة على الإسلام ، فأخذ يهرف بما لا يعرف ، وينسب إلى تعاليمه من الجمود والتزمت ما هو عنها بعيد ، بعد الأرض عن السماء . فحمل جمال الدين يراعه القوي ليقذف الحق على الباطل فيدمغه ، وطارت ردود الأفغاني كل مطار ، فقرأها « رينان » في دقة ، وعقب عليها بما ينبيء عن تراجعه حيناً وتخبطه حيناً آخر .

وعرف الأوروبيون عن طريق هذه المناظرة الجهيرة كثيراً من الحقائق الإسلامية الصريحة رائعة باهرة بعد أن ملأ المستشرقون أذهانهم بالفاسد من الآراء عن عمد أثيم . وما كاد المسيو « هانوتو[1] » بعد ذلك بأعوام يعيد الكرة الظالمة في حرب الإسلام حتى انبرى له تلميذ الأفغاني الشيخ محمد عبده ، فبلغ مبلغ أستاذه من التوفيق والسداد ، وهكذا يجد الحق نصيره في كل زمان ومكان .

□ مات في الأستانة ، وله فيها مواقف عز وكرامة أمام عبد الحميد حين عاتبه بعضهم : « إن اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب بالسبحة في حضرته » ، فرد الأفغاني محتداً : « سبحان الله ، إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه ، ولا يعترضه منهم أحد . أفلا يكون لجمال الدين الأفغاني حق أن يلعب بسبحته كما يشاء ؟ ! » .

ودَّع الحياة بعد أن أيقظ الهمم ، وأقام الثورات ، وأحيا من موات القلوب ... فتزلزل العالم الإسلامي لرحيله ... فما هي أفكاره في خطوطها العريضة ؟ :

---

(١) وزير خارجية فرنسي ، تصدى له الشيخ محمد عبده في كتابه : « الإسلام بين العلم والمدنية » .

□ حدد الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده أيضاً ، سياسته واضحة في « العروة الوثقى »[1] ، كانا يريدان أن يكون لهؤلاء الضعفاء ، وهم المسلمون ، دول قوية آخذة بأسباب المدنية والعمران الموصلة إلى العزة والاستقلال مع مراعاة تعاليم الإسلام الأساسية .

ـ ويرى الأفغاني في القرآن أكبر الوسائل في لفت الأفرنج إلى حسن الإسلام ، فهو يدعوهم بلسان حاله إليه ، لكنهم يرون حالة المسلمين في واقعهم ، فيقعدون عن اتباعه والإيمان به . فإذا أردنا اليوم أن نحمل غيرنا على الدخول في ديننا وجب علينا قبل كل شيء أن نقيم لهم البرهان على أننا لسنا متمسكين بخصال الإسلام .

ـ ومن مزايا القرآن أن العرب كانوا قبل إنزال القرآن عليهم في حالة همجية لا توصف ، فلم يمض عليهم قرن ونصف قرن حتى ملكوا عالم زمانهم ، وفاقوا أمم الأرض سياسة وعلماً وفلسفة وصناعة وتجارة ، وكل هذا لعمري لم ينتج إلا عن هدى القرآن وارشاد القرآن ، فالقرآن وحده الذي كان كافياً في اجتذاب الأمم القديمة وهدايتها ، جدير أن يكون كافياً اليوم أيضاً في اجتذاب الأمم الحديثة وهدايتها .

ـ وقال : لولانا ... لولانا ... القصور منا والتبعة علينا ، انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه ، إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه والوقوف عند بابه ، دون التخطي إلى محرابه ...

وهذه هي مصيبة المسلمين منذ قرون ، الانصراف عن الأخذ بروح القرآن ، والعمل بمعانيه ومضامينه ، إلى الاشتغال بألفاظه واعرابه والوقوف

---

(١) صدر العدد الأول من « العروة الوثقى » يوم الخميس في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ . راجع « جمال الدين الأفغاني » لعبد القادر المغربي ، سلسلة اقرأ ط ٢ دار المعارف بمصر .

عند بابه ، دون التخطي إلى محرابه .. « فإن كنا نبحث عن النكات البلاغية رجعنا إلى الزمخشري ، وإذا التمسنا المباحث الكلامية رجعنا إلى الرازي ، وإذا أردنا إعراب القرآن فعلينا بالبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ففيه كثير من المباحث النحوية ، والمسائل المتعلقة بالقراءات ... » .

يا للعجب هذه هي « علوم القرآن » !

وما خطر بفكر قائل القول أن يقول إذا أردنا : حث القرآن على العلوم التي تنهض بحال المسلمين فعلينا بتفسير الجواهر لطنطاوي جوهري .

لقد حصروا علوم القرآن بأشياء لغوية ، وصدوا عن تفسير يناسب ، العصر وقد عرضنا في غير هذا الموضع نماذج من رأي الشيخ طنطاوي جوهري تغمده الله برحمته .



محمد عبده

وارتفع صوت محمد عبده التلميذ الأمين بالدعوة إلى أمرين عظيمين[1].

□ الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى واعتباره ـ الدين ـ ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ... وقد خالف في الدعوة هذه رأي الفئتين العظيمتين ، اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هم في ناحيتهم .

(١) « الفكر الإسلامي الحديث » د . محمد البهي ، الناشر : مكتبة وهبة ، ط ٤ صفحة ١٠٣ ، وما بعدها .

□ الثاني : هو اصلاح اللغة العربيـة ليبقى الفرد والمجتمع على احتكاك دائم مـع القرآن الكريم ، فضعيف اللغـة لن يتـذوق إعجـاز القرآن ومراميـه ومضامينه ، فكان احياء العربية احياء لكتاب الله ضمناً .

□ لقد تكونت عند الشيخ محمد عبده بما أخذه عن طريق الأزهر ، أو بما كان عن طريق الزاوية السنوسية : معرفة عقلية للإسلام ، ومباشرة عملية لتهذيب النفس ، تهذيب صوفي متزن ، ثم تقديره للثقافة الإسلامية القائمة في الأزهر إذ ذاك ، وقد عرف السنوسية عن طريق خال والده الشيخ درويش خضر الذي اتصل « بالزاوية السنوسية » وتعلم فيها وسيلة صفاء القلب ، وعرف عن طريقها ما يجب أن يتبع في فهم الإسلام : وذلك بالاحتكام إلى القرآن والسنة الصحيحة ، وعدم التعصب لما سواهما من أقوال أرباب المدارس والشروح والمؤلفين المسلمين ، وهذا الذي كان يمارسه الشيخ درويش خضر من الإسلام العملي ، الفكري الإسلامي « للسنوسي الكبير » وهو نظام يهدف إلى سمو الروح ، وتهذيب النفس ، وتوكيد أواصر الأخوة الإسلامية ، وإجادة فهم الإسلام .

وأباح الشيخ محمد عبده الاجتهاد ونبذ التقليد[1] ! !

وسبب الدعوة إلى الاجتهاد عنده هو طبيعة الحياة ، وضرورات المجتمع الإنساني ، فالحياة الإنسانية صائرة ومتطورة ، ويجد فيها من الأحداث والمشكلات اليوم ، ما لا يعرفه أمس هذه الجماعة ، والاجتهاد هو الوسيلة العلمية ، والنظرية المشروعة ، للملاءمة بين أحداث الحياة المتجددة ، وتعاليم الإسلام العامة ، ولو وقف الأمر بتعاليم الإسلام عند حد تفقه الأئمة السابقين ،

---

(١) « الفكر الإسلامي الحديث » صفحة ١٤٨ / ١٥٠

لسارت الحياة الإنسانية في الجماعة الإسلامية في عزلة عن التوجيه الإسلامي ، وبقيت أحداث هذه الحياة في بعد عن تحديد الإسلام لها ، وتكييفها بالكيفية الإسلامية ، وهذا وضع سيحرج المسلمين : في اسلامهم وفي حياتهم معاً ! ! فإما أن تخف قيمة الإسلام في نفوسهم ، فيصيروا في عزلة عن الحياة نفسها ، وضد الحياة وقانونها كذلك .

ومع أن الاجتهاد هو الوسيلة المشروعة والحتمية لامتداد الصبغة الإسلامية لأحداث المجتمع الانساني في الجماعة الإسلامية ، إلا أنه من جانب آخر لا يجوز أن يمارسه إلا من كان على الصفات العلمية التي كان عليها المجتهد الأول في القرون الثلاثة الأولى ، ومن أجل ذلك قرن الشيخ محمد عبده جوازه في عصره وبعد عصره ، بالشروط التي جاز بها فيما مضى ، واحتاط في هذه الشروط احتياطاً ، لا يقل عن احتياط الأوائل فيها .

وكان من الضروري أن يجوِّز الاجتهاد ، وأن ينعي على التقليد ، لأنه وقف بالعقل الانساني عند حد معين لا يتجاوزه :

□ وذلك يتنافى مع طبيعة العقل ذاته ، لأن العقل وجد للملاءمة بين الإنسان وظروف الحياة التي يعيش فيها ،ولذلك كان هذا العقل مصدر هداية وتوجيه له في حياته ، فإن قضى عليه في عصر أن يقف عند حد أنواع الملاءمة التي استنبطت في عصر سابق ، كان ذلك خروجاً به عن طبيعته ،وشلاً لحركته الذاتية في سيره .

ويتنافى الوقوف به عند زمن معين مع طبيعة الحياة ، لأن أحداثها ليست أزلية غير متغيِّرة ، بل صفاتها التغير والتجدد ، واذن ... قد يكون ما ناسب أحداثها الماضية من علاج اقترح من قبل غير مناسب لعلاج الأحداث

الجديدة ! ! والحكم بإخضاع هذه الأحداث الجديدة لتكييف الماضي وعلاجه قد يؤدي إلى تعسف ومشقة ، نتيجة التنافر بين خصائص الأحداث الجديدة والعلاج الذي أخذ لأحداث سابقة فيما مضى .

- ويتنافى أيضاً مع طبيعة المبادىء الإسلامية وخصائصها : لأن هذه المبادىء ليست لها طبيعة التوقيت ، ولا الخصوص المكاني أو الزماني ، فهي للناس كافة ، وللانسانية في أزمنتها المتتابعة ، وفي جميع بقاعها ، ومقتضى ذلك : أنها صالحة لتناول أحداث الحياة ، وقادرة على صبغها بالصبغة الإسلامية ، وأنها صالحة كذلك لتوجيه الإنسان في الحياة ، في ظروفها المختلفة .

□ كما نعى محمد عبده على التطويل في بحوث العبادة ، وعلى ترك التطور والتفصيل في باب المعاملات ، حيث يقول : « إن الناس تحدث لهم باختلاف الزمان ، أمور ووقائع لم ينص عليها في هذا الكتاب ، فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم ؟ ! هذا لا يستطاع ! ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية ولجأوا إلى غيرها ... والفقهاء هم المسؤولون عند الله عن هذا ، وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة ، لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن للناس اتباعها ، كأحكام الضرورات ، لا لأنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ، ويتركون لأجلها كل شيء ! ![1] » .

□ يقرؤون « الأصول » ، ولا يخطر ببال واحد منهم أن يُرْجِع فرعاً من هذه الكتب إلى أصله ، أو يبحث عن دليلة ، بل لم يخجلوا أن يقولوا : نحن

---

(١) « الفكر الإسلامي الحديث » صفحة ١٥٣ .

مقلـــدون ، لا يلــزمنـــا النظر في الكتـــاب والسنـــة ! ! دانـوا لكتب المتقدمين (عليهم مباشرة) على تعارضها وتناقضها ، الذي تشتت به شمل الأمة ، ويكتفون بقولهم : وكلهم من رسول الله ملتمس !

« ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ، ويتفقهون على الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العمل ، وإذا كان بعض المسائل رجح لأسباب تَخْتصُّ بمكان أو زمان ، ينبغي لهم التنبيه على ذلك ،وعلى أن هذا الحكم ليس عاماً ، وإنما سببه كذا ... لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زمان ومكان[1] » .

□ ويقوم منهجه في تفسير القرآن الكريم على أسس أولاها : اخضاع حوادث الحياة القائمة في وقته لنصوص القرآن الكريم : إما بالتوسع في معنى النص ، أو بحمل الشبيه على الشبيه .

رسم في منهجه دائرة تستطيع أن تحيط بالحياة الإنسانية في حاضر الانسان المسلم ، كما أحاطت في الماضي البعيد بحياة المسلم في عهد الدعوة ، وفي العهد القريب منها بعد ذلك .

كما دعا الأزهريين إلى فهم كتاب الله ... إلى نبذ التقليد ... إلى الرجوع إلى كتب المتقدمين ... إلى فهم الحياة الواقعية ، إلى السير مع السائرين فيها ... إلى عرض الإسلام بعقلية العصر ... وأسلوب العصر ...

وقال : « إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر ، إلا إذا كان متقناً للغة من لغات العلم الأوربية ، تمكنه من

---

(١) تاريخ الإمام ، ج ١ ، ص ٩٤٣ / ٩٤٥ .

الاطلاع على ما كتب أهلها في الإسلام وأهله ، من مدح وذم[1] » . كما حث على طلب العلم من أوربة وعلومها الحية[2] .

وفي شرح الإسلام (لرينان) الفيلسوف الفرنسي من قبل جمال الدين ومحمد عبده ، اضطرا أن يفرقا في غير لبس : بين الإسلام ديناً مصدره القرآن ، والسنّة الشريفة الصحيحة ، وبين عمل المسلمين وأفهامهم في القرآن والسنة في فترات متتابعة ، كصورة تبعد وتقترب من مصدري الإسلام ، « أي الإسلام شيء وواقع المسلمين شيء آخر » .

ونلخّص رأي الشيخ محمد عبده في الاصلاح وعودة عزة الأمة إليها ، بأمور ثلاثة :

١ ـ **رجوع إلى القرآن :** حيث يصبح أساساً في معاملاتنا وتصرفاتنا وأحكامنا وتقييمنا للأمور جميعها .

٢ ـ **اصلاح الأزهر :** لا جدرانه وقاعاته ، بل علماؤه . بحيث يخرج الأزهر عالماً عاملاً ، ولا يكون ذلك إلا بادخال التربية الروحية مع العلوم الدينية فيه .

٣ ـ **العلم الحديث :** ستبقى أمة الإسلام عالة على العالم ما لم تنهض وبدافع من اسلامها بأخذ علوم العصر كلها ، فتنتج اسلحتها ومصانعها وما تحتاجه بيدها ، ثم تتابع الدراسة والتطوير بشكل لا يسبقها أحد .

☆ ☆ ☆

---

(١) تاريخ الإمام ، ج ١ ص ٩٢٧ .

(٢) تاريخ الإمام ، ج ١ ، ص ٥٤٣ .

هٰؤلآء شوّهُوا الشّريعَـة

﴿ ومـا أرسلنـا من رسول إلا بلسـان قومـه
لِيُبَيِّن لهم ﴾ .

(ابراهيم / ٤)

□ الإسلام ، دين يشمل الحياة بأسرها ، إنـه يهتم اهتماماً واحـداً بـالـدنيـا والآخرة ، وبالنفس والجسد ، والفرد والمجتمع ، إنه لا يهتم فقـط بمـا في الطبيعـة الإنسـانيـة من وجـوه الإمكان إلى السمـو ، بـل يهتم أيضـاً بمـا فيهـا من قيـود طبيعية[1] ، إنه لا يطلب من أتباعـه المحـال ، ولكنـه يهـديهم إلى أن يستفيـدوا أحسن الاستفـادة ممـا فيهم من استعـداد ، وإلى أن يصلوا إلى مستوى أسمى من الحقيقة ، حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل .

□ فكل من لم يفهم الإسلام كما فهمه الصحابة رضي الله عنهم ، أو كما فهمه الذين أوردنـا نمـاذج منهم كأسوة في الفهم الصحيح ، وكل من فرق بين الإسلام دين دنيـا وآخرة ، أو قصره على زاويـة صغيرة من مضمونـه الشـامـل ، أو بـدأ بالتأويل والتحريف ... كل من لم يأخذ الإسلام بمفهومه الذي بيَّنه نبيُّ الإسلام ﷺ ، فهو محرِّف نبذ الميزان ، وألقى بـالشريعـة جـانبـاً ، فشوه الإسلام بقـدر ابتعاده عنه ، حتى وصل بعضهم إلى لا إسلام ، بل إلى محـاربـة شنيعـة للإسلام والمسلمين .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، محمد أسد ، صفحة ١٠٨ .

استخدم هؤلاء الفلسفة لتقويض أسس جميع الأديان ، بعكس المعتزلة الذين لجأوا إلى العقل والفلسفة للدفاع عن الدين .

وضعوا رسائل في العلوم ، وتحفظوا في إظهار آرائهم جهاراً ، فاستعملوا الرموز وحشروا آراءهم بين السطور ، وأكثروا الوصيَّة لأتباعهم بالتشدد في صيانة رسائلهم وتعاليمهم .

وضع الرسائل نخبة منهم مثل : زيد بن رفاعة ، محمد بن نصر المقدسي ، أبو الحسن علي بن هارون ، أبو أحمد النهر جوري ... ، وعدد الرسائل « إحدى وخمسون » رسالة ، مقسمة إلى أربعة أقسام :

١ ـ الرسائل الرياضية التعليمية وهي ١٤ .

٢ ـ الرسائل النفسانية العقلية وهي ١٠ .

٣ ـ الرسائل الجسمانية الطبيعية وهي ١٧ .

٤ ـ الرسائل الناموسية الإلهية والتشريعية الدينية وهي ١١ ، ويلي ذلك ، « الرسالة الجامعة » .

□ لقد كان لفكرة الباطن والظاهر أثر واسع في مذهبهم ، فقد وجدوا فيها بابا للتأويل ، وأسلوبا لكتابة جعلوا ظاهرها غير باطنها ، فخرجت معانيهم عن معاني الدين الإسلامي ، ولكي يسهل انتشارها فقد غلفوها بالعلم وصبغوها بصبغة المعرفة .

قالوا : الدين قسمان : باطن وظاهر ، والحقيقة في الباطن ، ومن وجد الباطن ، فهو ليس بحاجة إلى الظاهر من صلاة وصوم ...

كما قالوا : إن عالم الأفلاك هو عالم الملائكة ، والنبوة هي من تأثيرات عطارد ، وقالوا بالتناسخ في الرسالة « ١٣ » ، ولا غرابة في ذلك ، فهم فيثاغورسيون ، والتناسخ من معتقداتهم .

لقد كرّس إخوان الصفاء حياتهم وجهودهم لنسف بنيان الإسلام وتقويضه في الداخل ، فقد عزَّ عليهم أن يروا رجلا يقوم في جزيرة العرب وحيدافقيرا أعزل ، ويدعو إلى عقيدة وشريعة ، فلا يلبث أن يكوِّن أمة ، ويكوِّن دولة ، ويكون حضارة . ويرغم التاريخ على أن ينحو نحوا جديدا ، فغرت هؤلاء نفوسهم الطامحة ، وأَغْرَتْهُمْ بأن يجربوا هذه التجربة ، وعندهم الذكاء والدهاء وقوة التنظيم والعلوم والأتباع عسى أن يكونوا أمة ودولة وحضارة ، ولماذا لا تثمر الجهود ؟ ولماذا لا تتكرر المعجزة ، والفطرة البشرية لا تزال هي الفطرة ، ولا يزال الناس أشباها ؟

لن تثمر الجهود في تحطيم الإسلام ، وإقامة عقيدة شبيهة ، لأن الجيد يفرض نفسه ، والبقاء للأصلح ، والباطل يذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

« لقد كانت الباطنية بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطرا على روح الإسلام النقية ، وعقائده الصافية الواضحة ، تتهدد وضع الإسلام الحقيقي ، وكذلك كانت الغارة الصليبية ، ثم هجوم التتار ـ ذلك الجراد المنتشر ـ صاعقة نزلت على الإسلام والأمة الإسلامية ، وكانت جديرة بأن تقضي على الإسلام وتقصيه من ميدان الحياة ، ومصاف الأمم الحية ، فلو كان غير الإسلام من الديانات ، للفظ نفسه الأخير ، وأصبح أسطورة من الأساطير[1] » .

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، ص : / ١٧ / .

رغم ذلك كله شق الإسلام وكتاب الله طريقهما إلى الأمام ، وفتحا فتوحا جديدة ، في ميدان الانتشار ـ كما حدث بين التتار وفي إفريقية ـ وفي ميادين العقل والعلم والسياسة .

☆ ☆ ☆

البابيّة أو البهائيّة

ـ البابية[1] : نسبة إلى الباب وهو علي محمد رضا الشيرازي ، ولد سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م (وفي رواية ١٨١٩) ، وأعلن نفسه عام : ١٨٤٤ م باب المعرفة إلى الحق الإلهي ، ومن أجل هذا لقب بـ « الباب » .

ـ والبهائية : نسبة إلى بهاء الله وهو ميرزا حسين علي ، خليفة « الباب » على حركته التي يعتبرها أتباعه إصلاحاً إسلامياً ، وتعاليمه كما يلي :

ـ الله واحد ، و (علي) مرآته التي ينعكس عليها ، والتي يمكن لكل واحد أن يراه .

ـ الله خلق الخلق بسبع صفات تسمى حروف الصدق والحق ، وهي : القدر ، القضاء ، الإرادة ، المشيئة ، الإذن ، الأجل ، الكتاب .

ـ السَّنَةُ : تنقسم إلى تسعة عشر شهرا ، وكل شهر ينقسم إلى تسعة عشر يوماً ، فالسَّنَة ٣٦١ يوما .

ـ كل الحدود ألغيت عدا حدي السرقة والزنا .

ـ الحرية المطلقة في التجارة والعقد .

---

(١) راجع الملل والنحل للشهرستاني طبعة البابي الحلبي : ١٩٦١ ، ذيل الكتاب بقلم محمد سعيد كيلاني . ص : ٤١ وما بعدها .

ـ دفع « الفائدة » مباح ، سواء على البضائع المباعة ، أو على الحسابات المصرفية .

ـ فريضة الصوم لمدة شهر بهائي ، أي تسعة عشر يوما من طلوع الشمس إلى غروبها ، وعلى من بلغ الحادية عشرة إلى الثانية والأربعين .

ـ يُنصح بالطهارة بالماء ولكنها ليست فريضة مكتوبة.

ـ يجوز للمرأة السفور .

ـ صلاة الجماعة أبطلت ، عدا الصلاة على الميت ، ومع ذلك الاجتماع للوعظ أمر لا بأس به .

والمطلع على هذه الحقائق يرى أن الميزان ، ميزان الشريعة معطل ، بل غير معترف عليه مطلقا .

□ تحول البهائيون إلى حزب سياسي ، ومن دعاتهم ميرزا فضل الله ، ولقد اتخذت هذه الحركة مدينة عكا في الأرض المحتلة مقرا لها ، وللجبل الكرمل في حيفا مكانة خاصة لوجود جثة الباب فيه .

وهدف البهائية حاليا بعد الباب توحيد الأديان ، والخطوة الأولى لذلك :

١ ـ ادعاء حاجة المسلمين إلى الإصلاح ، وهي كلمة حق أريد بها باطل .

٢ ـ والخطوة الثانية هي الحاجة إلى شريعة جديدة .

□ كاتطورت (البهائية) ، فأصبح تعدد الزوجات مقصورا على اثنتين فقط ، وأصبحت ترى صحة جميع الأديان ، والكتب الدينية ، وتدعو جميع أهل الملل إلى دينها ، ثم اعتقدت بألوهية « البهاء » ، على النحو الذي تعتقده بعض فرق الشيعة الغلاة بحلول الجزء الإلهي في الإمام .

ـ وللباب (علي محمد الشيرازي) كتاب « البيان » ، وفيه تأَوَّل قوله عز وجل « ثم إن علينا بيانه » .

ـ والبهائية أربع فرق :

١ ـ البابية الخُلَّص : أتباع الباب ، علي محمد الشيرازي ، مؤسس البهائية .

٢ ـ البابية الأزلية : أتباع « صبح أزل » الذي كان في قبرص .

٣ ـ البابية البهائية : أتباع بهاء الله ميرزا حسين علي نوري .

٤ ـ البابية العباسية : أتباع عباس أفندي أحد الدعاة لهذا الدين الجديد ، وكان يقيم في بيروت . ويضيف الملل والنحل فرقة خامسة هي « الناقضون » ، وهم أتباع محمد علي أخي العباس .

□ وكل فريق يؤيد دعواه ، ويكفر من عداه ، فاعتزلوا المعاشرة ، وحرموا معاملة بعضهم لبعض ، وكانت عداوة كل منهم للآخر أشد من عداوتهم جميعا لمن طعن في معتقداتهم ، وقال ببطلان دعواهم .

وبما أن البهائية لم تجد رواجا بين المسلمين لبعدها عن « ميزان الشريعة » ، لذلك اتجه أتباعها إلى نشرها في أوروبة وأمريكا . أما المسلمون فليسوا في حاجة إلى هذه الديانة ، ويكفي أن نعلم أن الإسلام الذي ظهر منذ أربعة عشر قرنا دعا الإسلام إلى تلقي العلوم والمعارف ، في حين أن مؤسس الديانة « البهائية » دعا أتباعه إلى الابتعاد عن العلم وتجنب التعلم ، وطرح الكتب في الماء ، ومحو مابها أو إحراقها ... فَشَتَّانَ بين دين العلم والتعلم ، ودين الجهل وإحراق الكتب .



القــاديانيــة

□ وتنتسب القاديانية إلى مدينة قاديان في الهنـد[1] ، وتسمى القـاديـانيـة أيضا « بالأحمدية » نسبة إلى غلام أحمد ، الذي ولد بقاديان عام ١٨٣٥ م .

ادعى أنه المسيح المعهود ، والمهدي الموعود في وقت واحد . وفي سنة ١٣٤٤ هـ / ١٨٩٦ م ، وجه إلى علمـاء الهنـد وغيرهـا رسـائل توضح دعوتـه ، ويصف مكانته عند الله ، ومحاكاة الله له ، ومما قاله : « وقد تفردت بفضل الله بكشوف صادقة ، ورؤيا صالحة ، ومكالمات إلهية ، وكلمات إلهـاميـة ، وعلوم نـافعـة ، وزادني ربي بسطة في العلم والدين ، وأرسلني مجدِّداً لهذه المئـة ، وسَمَّـاني عيسى نظرا للمفاسـد الموجودة ، فـإن أكثرهـا من قوم المسيح » ، « اعلموا أن روح الله ينطق في نفسي ، فـلا يعلم سري ودخيلـة أمري إلا ربي ، هـو الـذي نـزَّل عليَّ وجعلني من المنوَّرين » .

ومع ادعاء القاديانيـة ، أنهم من المسلمين ، فـهـذه نقـاط اختلاف جـذريـة تجعلهم بعيدين عن الإسلام بعد المشرق عن المغرب ...

١ ـ إله القاديانية يسهر وينام على لسان الإلهام كما قال غلام أحمد : « أنا أسهر وأنام »[2] .

أما الإله الحق : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾[3] .

٢ ـ يهب الله ـ عند القاديانيين ـ لغيره صفة الإحياء والإفناء[4] .

---

(١) راجع للتوسع الكتب التالية : (القاديانية مطية الاستعمار البغيض) للأستاذ محمد خير القادري ، وكتـاب : (كشف الستار عن القاديانية مطية الاستعمار) لمحمد عمر ملتاني . (والملل والنحل) في الملحق الأخير من ص ٥٧ ، إلى ص ٦٣ . وكتاب : (ما هي القاديانية ؟) ، للمودودي طباعة دار القلم « الكويت » ...

(٢) البشرى ، جلد ٢ ، ص : ٢٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ٢٥٦ .

(٤) خطبة الهامية ، ص : ٢٣ .

وفي الإسلام : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾[1]

٣ ـ قيوم العالمين هو وجود عظيم له أيادٍ وأرجل لا إحصاء لها ... وله عروق حاوية على جميع أطراف الكون[2] .

وفي الإسلام : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[3] .

٤ ـ إله القاديانية يصوم ويفطر ، ويخطئ ويصيب[4] .

وفي الإسلام : ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ﴾ ، وهو غني بالذات لا احتياج له ، وهو منزه عن الخطأ والنقص والعيب سبحانه وتعالى عما يصفون .

٥ ـ غلام أحمد نبيٌّ الله له رسالة والوحي يهبط عليه من الله .

وفي الإسلام ، **محمد رسول الله ﷺ لا نبي ولا رسول بعده .**

□ وللقاديانية رئيس ديني يلقبونه بلقب « أمير المؤمنين » وخليفة المسيح الموعود ، والمهدي المعضود .

□ لم تنل دعوة القاديانيين قبولا يذكر في البلاد العريقة في الإسلام ، لأن (ميزان الشريعة) يرفض دعواهم ، خصوصا في ختم الرسالة بسيدنا محمد ﷺ .

ومما يذكر ... أنهم أفتوا بعدم حرب الانكليز في الهند ، لذلك أرسل أحدهم

---

(١) سورة الروم ، الآية الكريمة : ٤٠ .

(٢) توضيح المرام / ٨٨٦ / ٦٨ .

(٣) سورة الشورى ، الآية الكريمة : ١١ .

(٤) تبليغ الرسالة ، ج ١ ، ص ١٣٢٦ .

وهو « محمد أمين خان » إلى مملكة الروس للتبشير ، فأخبر المركز في قاديان بكتاب نصه : « حضرت هنا لبث الدعوة الأحمدية وبما أن مصالح الجماعة الأحمدية والحكومة البريطانية مترابطة ومتحدة فكان من اللازم أن أؤدي خدمة الحكومة البريطانية ، ولذلك ظنوني كجاسوس انكليزي ووضعوني بضعة أيام في السجن[1] » .

□ إن الإسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية ، رغم الدعوات الضالة المضللة ، والدعم الذي لاقته من الاستعمار كالقاديانية والبهائية ، لا يزال وبالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين ، أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر .

☆ ☆ ☆

وأمثلة أخرى

□ الأمثلة الثلاثة السابقة ، أمثلة لشذوذ كامل عن : « ميزان الشريعة » . بل أمثلة اتخذت من انتسابها الاسمي للإسلام تحطيم الإسلام من الداخل .

□ ولكن الفهم السيء مع حسن الطوية ، أَضَرَّ أيضا بالإسلام . وشوَّه جمال القرآن ودعوته وتعاليمه . وكثير من الكتب التي هاجمت (الفكر الديني) ، ما هاجمت الإسلام الحق ، لأنها ما كلفت نفسها الإطلاع عليه من معينه الصافي ورجاله الصادقين على قلتهم . هذه الكتب صوَّرت واقعاً ظنته إسلاماً وهاجمته .

□ من الفهم السيئ للقرآن وميزان الشريعة ، مع حسن النية :

---

(١) مختصر من اعلان خليفة غلام أحمد المتدرج في صحيفة الفضل ، جلد : ١١ .

١ ـ صنف جعل الإسلام فقهاً كله ، أو تلاوة للآيات بلا تطبيق ، أو اهتمام بإعراب للقرآن مع القراءات ... إلى هنا ويقف . مع أن الآيات التي تبحث في الفقه ليست أكثر من / ٥٠٠ / آية فأين بقية الـ / ٦٣٤٢ / آية ؟ التي يضمها كتاب الله ! !

ـ ومثال على هذا الجمود عند هؤلاء الحَرْفيين معطلي العقول ، من قالوا « نتبع ولا نبتدع » :

ـ إذا امرأة غاب زوجها ولم يُعرف خبره ، يُقضى عليها أن تبقى بلا زواج حتى سن الستين ، وهذا عجب . وقد بحث هذا الشيخ جوهري طنطاوي ، فوجد أن القضاء في مصر لا يصح إلا إذا أقرَّه الخليفة في بلاد الترك من آل عثمان . والحكم في مصر على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان الذي هو مذهب الخليفة ، فقابل الشيخُ جوهري ، الشيخَ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر . فقال له الشيخ جوهري : إن مذهب المالكية سهل جدا في هذه المسألة . ولكن الحكومة الانكليزية التي احتلت مصر لما رأت أنه لا بد من الاستئذان من الخليفة في العمل بمذهب غير الحنفي للتسهيل ، أبت خيفة أن ترجع العلائق بين مصر والأَستانة .

فقال الشيخ جوهري كلامه المعقول الشرعي : من المؤلم أن يكون دين الإسلام الذي هو أسهل الأديان ، بسببه تكون المرأة عرضة للفاحشة ، بل الفاحشة محققة في كثير من هؤلاء المسكينات .

وبعد ذلك تغيرت الأحوال وانتهى ملك بني عثمان ، فقام القضاة بمصر ، وعلى رأسهم الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي قاضي القضاة بمصر ورئيس المحكمة الشرعية العليا . فشمر عن ساعد الجد ، وبحث في المذاهب كلها ، واستخرج منها زبدة صالحة للعمل بقدر الإمكان ، وقدم للحكومة (مذكرات

مشروع قانون الزواج) وسهل الأمر جدا في أحكام النفقة والزوج الغائب بحيث انتفى الحرج ... فهل رضي الجميع به ؟

في القرن التاسع عشر ، قال أحد المتنفذين بمصر للشيخ المهدي العباسي ، (وهو المفتي بمذهب أبي حنيفة مع القاضي التركي من قبل السلطان العثماني) : استخرجا من المذاهب الأربعة وغيرها قانوناً به نحكم البلاد ، فإن علماء الدين يناقض بعضهم بعضا ... وهذا يوجب ارتباك الأحوال . فرضي قاضي الترك ، أما المهدي العباسي فقد قال للقاضي : **أنت مُوَلَّى من قبل الخليفة على مذهب أبي حنيفة ، فمالك وللمذاهب الأُخرى ، فلما يئس حاكم مصر من علماء الدين ، استجلب القانون الفرنسي ، فحكمت به البلاد**[1] .

حوادث الدهر أحاطت بالمسلمين ، ولا ينفعهم إلا أخذ القرآن كله دون التفريط بشيء من آيه . فإن ثبت لأولي الأمر في الأمة وهم نوابها أن الأمة أصابها ضرر من أي حكم من الأحكام الشرعية ، فإن هذا ينافي الإسلام ، لأن الدين شُرِعَ لمنفعة الناس ، لا لمضرَّتهم ، فإذا تحقق الضرر ، فليزل هذا الحكم حتماً ، لأن الحكم الشرعي مظنون ، والضرر محقَّق ، والمحقق مقدم على المظنون ، وهذا القول لا يتمارى فيه اثنان في الإسلام ، إن علم الفقه هو الأحكام الشرعية الظنيَّة ، فإذا تحقق الضرر ، كيف نعمل بالمظنون ، قاعدة ستكون نبراساً ، ونورا مبينا للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهذا يقودنا إلى الاجتهاد وإلى :

مبدأ تغيُّر الأحكام بتغير الأزمان ؟

☆ ☆ ☆

(١) راجع تفسير « الجواهر » ج ٩ / ١٠ . صفحة : ١٨٩ / ١٩٠ .

الاجتهاد

مبدأ تغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان

★ « الإسلام دينُ الحياة ، والحياةُ دينٌ » .

« سماحة المفتي العام للجمهورية »

□ شريعة القرآن ، شريعة خلود ، باقية ما بقيت الدنيا ، لذلك وجب أن تكون وافية بجميع الأحكام والقوانين التي تحتاج إليها الأمم في تدبير شؤونها ، وتنظيم حياتها ، صالحة لمسايرة هذه الحياة في جميع تطوراتها ، ومراحل تقدمها ورقيها . تزودها في كل عصر ، وفي كل جيل بما يكفل السعادة ، ويسبغ عليها الأمن والسلام ، وهذا ما يشهد به قوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء[1] ﴾ .

وقوله عليه الصلاة والسلام :

« تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة رسول الله »[2] .

القرآن : تبيان لكل شيء ولكن ليس المقصود أنه أحاط بجزئيات الوقائع والحوادث ، ونص على تفاصيل أحكامها ، إلا في مواضع ثلاثة : نظام الأسرة ، والعقوبات على الجرائم الأساسية في المجتمع « وهي الحدود والقصاص » ، والميراث .

☆ ـ اعتمدت لهذا البحث الدقيق المراجع التاليه : رسالة الزميل الأستاذ ميسر سهيل التي أشرف عليها الدكتور فتحي الدريني ، وكانت بعنوان « مبدأ تغير الأحكام بتغير الأزمان » . وكتاب : المدخل إلى علم أصول الفقه للدكتور الدواليبي : ص ٢٨٩ وما بعدها . و « الحقوق المدنية » للأستاذ الزرقا ، الجزء الأول ، ص ٧٢ . وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ، الجزء الثالث : « فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد » .

(١) سورة النحل الآية الكريمة : ٨٩ .

(٢) رواه الإمام مالك عن أبي هريرة ، راجع : التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، ج ١ ، ص ٤٠ .

والسبب في عدم تتبع القرآن للجزئيات ، هو أن القوانين متناهية ، والحوادث والوقائع غير متناهية .

والواقع يشهد بأنه في أغلب الأمر ، لم يدخل في هذه التفاصيل ، ولم يعنَ بعرض تلك الجزئيات ، وإنما أتت الأحكام التي عرض لها قوانين عامة ، ومبادئ كلية ، يمكن تحكيمها في كل ما يعرض للناس في حياتهم اليومية ، مما يتصل بتلك القوانين والمبادئ .

فهي مبادئ وقوانين محكمة ثابتة ، لا تختلف ، ولا يسوغ الاخلال بها ، وعامة كلية ، يمكن أن تتمشى مع اختلاف الأحوال والظروف .

فالقرآن : الذي هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي تبيان لكل شيء من حيث أنه أحاط بجميع الأصول والقواعد التي لا بد منها في كل قانون عام ، وذلك كوجوب العدل والشورى ، ورفع الحرج ، ودفع الضرر ، ورعاية الحقوق ، وأداء الأمانات إلى أهلها .. وما إلى ذلك من المبادئ العامة التي لا يستطيع أن يشترعها قانون يراد به صلاح الأمم وإسعادها مهما تغير الزمن .

والقرآن : تبيان لكل شيء ، من حيث أنه أحاط أيضاً بأصول ما يلزم لحفظ المقاصد التي لم تأتِ الشرائع السماوية ، ولم تنشأ القوانين إلا لخدمتها والمحافظة عليها ، فعليها يقوم أمر الدين والدنيا . وبالمحافظة عليها ينتظم شأن الأفراد والجماعات .

والسُنَّة النبويَّة : جاءت توفي الأمر حقه ، من الشرح والبيان ، والتكميل والتعليل والتنظير ..

﴿ وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وما نَهَاكُم عَنْهُ فانتهُوا[1] ﴾ .

(١) سورة الحشر ، الآية الكريمة : ٧ .

فقد بيَّن النبي ﷺ بأقواله وأعماله أحكام ما كان يعرض للناس من حوادث ، يستقيها من الوحي ، أو ينشئها بالاجتهاد الحكيم المسدد . فسنَّ في ذلك أحكاماً كانت تقتضيها حاجات الناس وحالة الأمة الإسلامية الناشئة . وأحكاماً أخرى لا يختلف فيها الحال باختلاف العصور والجماعات .

فوضع لنا مبادئ حكيمة في أنواع العبادات والأخلاق ، وقواعد صالحة لنظام الأسرة ، وتربية الناشئة ، وأسساً متينة لإحكام روابط الاجتماع ، فسنَّ من القوانين في المعاملات والجنايات وعلاقات الدول بعضها مع بعض ، ما يكفل قرار السلام والأمن في الأرض . حتى الآداب الخاصة ، وما ينبغي أن يكون في السفر والإقامة والصحة والمرض والغنى والفقر ، كل ذلك عني به ، وترك لنا فيه مُثلا عالية للتربية ، ونماذج صالحة للتهذيب والتثقيف . ثم كان ﷺ يقيس ويجتهد ، فيجمع في الحكم بين المتماثلات ، ويفرق بين المختلفات ، ويربط الأشياء بنظائرها ، ويُلحق الفروع بأصولها ، منبهاً إلى علل الأحكام ، وأسرار التشريع .

والصحابة رضي الله عنهم : علموا أن أحكام الشريعة لها حكمها ومراميها ، ولها أسبابها وغاياتها ، وأن نصوصها لها لب وروح ، فلا يصح الوقوف منها عند حدود الألفاظ وصور العبادات مع إغفال اللب والثمرة المقصود تحقيقها من الحكم . لأنها شريعة عامة ، فوجب أن تكون وافية أحكامها بحاجة الأمم في كل عصر ، وفي كل أمة ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت أحكامها معللة بالمصالح ، قابلة للتبدل مع الزمن ، فهي متطورة في كثير من فروعها ، ثابتة في قواعدها وأصولها .

ورجال الصدر الأول من المسلمين : كانوا يفهمون الشريعة من مصادرها ، ويستنبطون الفروع من أصولها ، وهكذا كانوا يجدون في هذه

المصادر والأصول ما ينهض بأحكام ما يَجِدُّ من حوادث ووقائع ، وما شعروا أنهم عاجزون بهذه النصوص أن يواجهوا ما يتوارد عليهم من مختلف النوازل ، وأن يجدوا لها حكماً في الشريعة يحقق مقصد الشارع من تحقيق مصالح العباد ، لا سيما بعد الفتح الإسلامي واختلاط العرب بغيرهم من الأمم التي خضعت لسلطان الإسلام[1] .

والفقه : ليس هو العلم بأوضاع الألفاظ وعمومها اللغوي ، وخصوصها ، ولا معرفة دلالاتها الجلية الواضحة ، فإن ذلك شيء لايقصر عنه عارف بلغة العرب ، وإنما هدفه المعاني وأسرار التشريع ، وتعرف الأسباب والعلل ، ونسبة بعضها إلى بعض ليعتبر منها ما يكون أشبه بمقصد الشارع من تشريعه .

فمعرفة مقصد الشارع هي المطلوب الأول من الاستنباط والاجتهاد ، والذي يجب أن يوصل إليه الحكم في مآله .

فهذا النوع من الفقه وهذا الاستنباط الذي تُستَخرَجُ به المعاني من بواطن النصوص ، وبه يعرف مراد الشارع من مراده ويوقف على أسرار تشريعه جهد الاستطاعة هو الذي مكن الفقهاء من سلف الأمة الإسلامية ، أن يجدوا في شريعة الإسلام كل ما يحتاجون إليه في الفتيا والحكم والقضاء ، وكل ما فيه إصلاح الجماعة الإسلامية وتمكين روابطها ، والنهوض بها من كال إلى أكمل مع تطور الزمن وتبدله .

---

(١) فاجتهادات عمر رضي الله عنه في المشكلات التي عرضت له عندما تولى الخلافة مشهورة ، نعدد منها :

١ ـ من المجاهدين من كان يقتل القائد من القواد الأعداء وعليه نفائس ثمنها عشرات الآلاف ، فهل يأخذه كله على قاعدة : « إن من قتل قتيلا فله سلبه » .

٢ ـ أن بعض ذوي القربى طالبوا بمالهم الذي كان لهم ، فهل يرده عليهم ؟

٣ ـ أراضي العراق ومصر ... هل يقسمها أو يتركها أملاكا عامة ينتفع بها من يأتي من المسلمين على مدى العصور !

٤ ـ المال الفائض عن نفقات الدولة ، ماذا يفعل به ، يخزنه أم يوزعه ؟ وإذا وزعه ، هل يوزعه بالتساوي ! !

وهو الذي يجب أن يتابعهم عليه الفقهاء في كل عصر حتى يوفى للشريعة بكل مقاصدها ، ويحقق لها أغراضها من تحصيل المنافع ودرء المفاسد .

وهذا الفقه الذي يوقف به على مقاصد الشريعة وأغراضها هو الذي كان يحدو بالفقهاء أن يعدلوا عن أحكام كانت لهم في بعض المواطن ، ليفتوا على خلافها ، وأن يكون لمثل الإمام الشافعي رضي الله عنه في كثير من المسائل مذهب قديم ، ومذهب جديد .

فإن تغيير الرأي ، وعدول الفقيه عن اجتهاده الأول ، ليس سببه في جميع الأحوال راجعاً إلى تبيُّن وجه الصواب بعد الخطأ ، ولا إلى ظهور دليل قوي كان خافياً عليه من قبل ، ولكنه كثيراً ما يكون سبه تنقل المجتهد في الأقطار ووقوفه على تغاير العرف والعادة والأحوال عند الأمم المختلفة ، أو مرور الزمن وتبدل الأحوال والظروف في الأمة الواحدة ، فيراعي في أحكامه هذا الاختلاف ، وفي هذه الحالة يكون كلا اجتهاديه صحيحاً ومعتبراً برغم اختلافهما في المسألة الواحدة ، إذ هو اختلاف سببه تغاير الظروف والأزمان والبيئات . وحيث لامجال لسرد المسائل الكثيرة ، نكتفي بمثل واحد وهو أن الإمام محمد صاحب أبي حنيفة ، أفتى بنجاسة الرذاذ من بول الحيوانات ، حينما كان في بغداد ، ولما ذهب إلى قرية مرو ، وجد كثرة الحيوانات ، والشوارع غير منتظمة بخلاف الحال في بغداد ، أفتى بعكس رأيه تمشياً مع مصلحة البيئة الجديدة .

□وجملة القول :

إن الشريعة الإسلامية فيها الوفاء بمصالح الأمم في كل زمان ومكان ، ويمكن أن نرجع في إثبات هذا الحكم ، إلى أن شريعة الإسلام ، شريعة عامة

لجميع الأفراد ، لايختص بوجوب الإذعان لها والأخذ بتعاليمها فريق من الناس دون فريق .

ودائمة تسري أحكامها على جميع الأزمنة منذ نزول القرآن حتى تنتهي حياة التكليف ، وأنها تهدي إلى طريق الخير والصلاح ، وتعين على سلوكه ، وتنبه إلى مداخل الشر والفساد ، وتحذر منه . ولا تأمر إلا بما فيه مصلحة حقيقية دينية أو دنيوية ، ولا تنهى إلا عن الضرر والشر وأسباب الفساد وكل أحكامها معللة ، بالحِكَم والمصالح ، وهي كفيلة بتحقيق مصالح العباد في كل حال وزمان ، وقد اعترف بهذا مؤتمر الحقوق الدولية الذي انعقد في لاهاي عام ١٩٣٦ ، إذ صدر قرار ينص على أن الشريعة الإسلامية صالحة للتطبيق في كل مكان وزمان .

فالشريعة كالكائن الحي ، تمتاز بالحركة والنماء والتطور ، وهي مرنة تتسع هنا وهناك في كل الأزمان ، لتشمل بأحكامها ما تجيء به الحياة المتجددة المتغيرة ، من وقائع ونوازل وأحداث ، وليس معنى هذا أن أحكام الشريعة تتغيَّر بحيث تساير الزمن الذي يفرض نفسه عليها ، وإنما المقصود بأن هذه الأحكام تعطي الدواء المناسب بحسب تغير الظروف والأحوال بما يحقق مقصد الشارع .

وهذا التطور أمر طبيعي يناله كل كائن حي ، وتفرضه طبيعة الحياة ، وتقره البدهية العلمية ، وهي تناهي النصوص الشرعية ، وعدم تناهي الحوادث والوقائع .

الثابت والمتطور من الأحكام :

□ والناظر في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أن منها ما هو متطور مع

تطورات الزمن ومتطلباته ، ومنها ما هو ثـابت لا يخضع للتطور ، ولا يتعلق بتغير الأزمان .

فأما الأحكام الثابتة فهي :

١ ـ **العبادات بمختلف ضروبها** : لم تتطور البتـة منـذ عهـد رسول الله ﷺ إلى يـومنـا هـذا ، ولن تتطـور أبـداً ، لأن الله جـل وعـلا أراد أن يعبـد هكذا ، فلن يَجِـدَّ منهـا ، أو من أحكامهـا مـا لم يكن موجوداً أيـام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ذلـك أن الشريعـة قرآنـاً وسنـة معـاً ، قـد حـددت كل شعيرة منها ، بما لايحتمل شيئاً من الاجتهاد ، والـذي هو سبيل التطور ، وهـذا أمر ضروري بلا ريب إذا عرفنـا أن الأمور التعبـديـة لامجـال للعقـل الإنسـاني فيها .

٢ ـ **الحدود والقصاص** : وهي عقوبات الجرائم الهـامـة في المجتمع ، كحـد الزنا والسرقة والقتل والارتداد والقذف وشرب الخمر وقطع الطريق .

٣ ـ **نظام الأسرة** : وذلك باعتبارهـا أصل النظـام الاجتماعي ، ولو ترك الأمر فيها للاجتهاد والرأي لأدى ذلك إلى اضطراب الحياة الاجتماعية .

٤ ـ **الميراث** : بـاعتبـاره يتعلق بـانتقـال الملكيـة وتوزيعهـا ، فوجب أن يكون دقيقاً ، ولا سيا وقـد ظهر خطره في عصرنـا الحـاضر بظهور النظريـات المتعددة التي تتصارع في هذا الأمر .

وأما الأحكام المتطورة :

فهي المعاملات لأنها أمور دنيوية ، وأحكامها تتعلق بما يكون من أحداث لاتزال تتجدد وتتغير في هذه الدنيا التي قـال عنهـا الرسول ﷺ : « **أنتم اعلم**

بأمور دنياكم » . وبذلك يتغيَّر النظر فيها ، ويتبدل على أن يكون دائماً في فلك القرآن المحكم وسنة رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى .

ففي المعاملات يجب أن نعمل بجد وأناة لأجل أن نجد الحلول المناسبة لكل ما يستجد في زماننا ، كما عمل أسلافنا رضوان الله عليهم . مما سنبين أمثالاً له في هذا المبدأ .

فالأحكام التي تتعلق بالمصالح يراعى فيها مسايرة الزمن لتحقيق المطالب التي تتجدد وتتنوع حسب تطورات الأمم والأحوال والأفراد ، وهذه الأحكام هي مدار البحث الأصولي : تغير الأحكام بتغير الأزمان .

وسؤال يعرض نفسه : **من الذي سيجتهد ويغير ؟**

الجواب بسيط : **عالم ، إن لم يكن مثل سيدنا عمر الذي اجتهد وغيَّر ، فهو بقدر الإمكان على شاكلته في الورع والتقوى ، ويتشبه به من حيث طرح حظ النفس ، وجعل مصلحة المسلمين هي الهدف والمرام .**



مَبْدأ النظر في مآلاتِ الأفعال

أدلة من الميزان « الكتاب ، والسنة النبوية »

□ النظر في مآلات الأفعال معتبر من قبل الشارع ، وينبغي أن يكون معتبراً من قبل المجتهد ، أي أن مقصد الشارع أن تنظر في المآلات بشكل واجب ، ومعنى النظر في المآلات هو أن الأحكام التي تشرع لفعل من الأفعال يجب إدراك ما يفضي الفعل من نتيجة ، ويجب على المجتهد اعتبار هذا المآل ، لأن الشارع أوجب هذا الاعتبار ، فإذا كانت هذه النتائج مصلحة راجحة ، فإن الفعل يبقى على المشروعية ، لأننا لا نتصور أن يُهدر خير كثير إذا تسبب عنه ضرر قليل ، وأما إذا كانت هذه النتائج ترجح فيها المفسدة على المصلحة أو تساويها ، فقد اتفق الأصوليون على عدم الحكم ، لأن الفعل أصبح غير مناسب بالنظر لما آل إليه من مفسدة راجحة أو مساوية ، ومن هذا الأصل يمكن أن نفصل البحث كما يلي :

□ إن الأفعال الصادرة عن المكلفين لا يمكن إعطاؤها حكم المشروعية ، أو عدم المشروعية إلا بعد النظر في النتائج التي تترتب على هذا الفعل ، فإذا كان ذلك الفعل مشروعاً في الأصل لأن القيام به مصلحة ، كالبيع والشراء ، ولكن ما يلزم عن هذا الفعل المشروع في الأصل من ثمرة أو نتيجة غير مشروعة تمنع إطلاق القول بالمشروعية لسبب تغير الحال . وإذا كان الفعل غير مشروع في الأصل ، ولزم عنه مصلحة راجحة ، فإن هذا اللازم يمنع إطلاق القول بعدم المشروعية . فهذه الأفعال المشروعة أو غير المشروعة ، إذا أدت إلى ما يناقض قصد الشارع من تشريع الحكم ، فلا بد من اعتبار هذه اللوازم الخارجية في حد ذاتها ، لأننا إذا أطلقنا القول بالمشروعية في حال جلب المصلحة التي تؤدي إلى

مفسدة ، مساوية أو راجحة ، كان هذا المآل مانعاً من إطلاق القول بالمشروعية ، لأن الشارع لا يقصد من تشريع الأحكام أن تترتب عليها مفاسد راجحة أو مساوية ، وإلا كانت أحكام الشريعة قد أنزلت لجلب المفاسد ، وهو خلاف الأصل العام الذي قامت عليه الشريعة . وبهذا يكون النظر في المآلات بالنسبة للأفعال معتبراً مقصوداً شرعاً ، فتجب مراعاته من قبل المجتهد ، لأنه جار على مقاصد الشريعة .

وقد جاء في نظرية التعسف في استعمال الحق[1] :

المصالح معتبرة في الأحكام ، وإنها شرعت لتحقيق غايات أساسية قد قصد الشارع تحقيقها ، ومن هنا كان الحكم منظوراً إليه في الشرع على أنه وسيلة غايته المصلحة ، فكل فعل هو مقدمة لنتيجة أو وسيلة إلى غاية يفضي - قطعاً أو ظناً أو كثيراً أو غالباً - إلى غير غايته التي رسمها الشارع ، أو إلى مآل هو مفسدة مساوية أو راجحة على المصلحة التي شرع الحق من أجلها ، لم يبق مشروعاً ، لأن العبرة بهذه النتيجة في تكييف « اعطاء وصف » الفعل ، وهي كما رأينا مناقضة لمقصد الشارع ، وتوقياً لهذه المناقضة ، يلزم المجتهد في التشريع الاجتهادي أن ينظر في هذه المآلات جرياً على اعتبار المصالح في الأحكام دون النظر إلى الباعث ، أو القصد في آحاد الصور .

وفكرة عدم النظر إلى الباعث ، تتوضح بحديث السفينة ، حيث أن الذين أرادوا خرقها ، لم يكن الباعث قصد الضرر ، وإنما عدم إيذاء الذين فوق بالمرور من حصتهم ، وقد تبين ذلك من قولهم : لو أنا خرقنا في نصيبنا

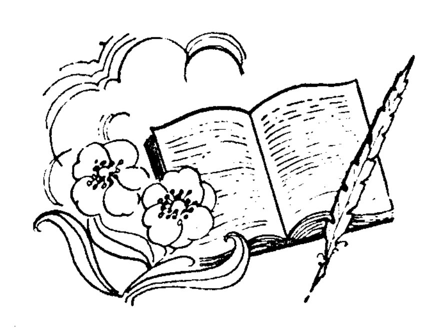
---

(١) للدكتور فتحي الدريني .

خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . ومع هذا يجب أن يؤخذ على يدهم دون النظر إلى هذا الباعث الحسن . ولا خلاف بين العلماء أنه لايجوز التذرع بأمر ظاهر الجواز لتحقيق أغراض غير مشروعة لما في ذلك من مناقضة الشرع عيناً بهدم قواعد الشريعة ، فالتصرفات المأذون فيها قولية كانت أم فعلية ، إذا أفضت بذاتها إلى مآل ممنوع ، مُنعَت ، ولم تشرع ، لأن هذه التصرفات وسائل لتحقيق مصالح لا مفاسد .

وصلة هذا المبدأ بتغير الأحكام بتغير الأزمان : أن المآل تغير بسبب ظرف طارىء ، فهذا الظرف ، أو الحالة الطارئة ، يؤثر في مآل الفعل ، فيتغير الحكم تبعاً لطروء هذه الحال التي أنتجت مآلا يختلف عن المآل الأصلي للفعل .





الأدلّة

١ـ كتابُ الله

قال تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم[1] ﴾ .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال في هذه الآية : إن المشركين قالوا يا محمد : لتنهينَّ عن سب آلهتنا أو لنهجوَّن ربك ، فنهى النبي ﷺ أصحابه عن سبّ الأوثان والأصنام دفعاً لما يؤول اليه من مفسدة ، وهي أن يسب المشركون الله بغير علم[2] .

وروى قتادة أن المسلمين كانوا يسبون أوثان الكفار ، فيردون ذلك عليهم ، فنهاهم الله أن يستسبوا لربهم ، أن يعرضوا ربهم للسب من قبل المشركين بذلك الفعل ، لأن المشركين قوم جهلة لا علم لهم بالله .

وعن قتادة أيضاً كان المسلمون يسبون أوثان الكفار ، فيسب الكفار الله عدواً بغير علم .

تبين مما مر أن الآية الكريمة أنزلت تنهى المسلمين عن سب الأصنام والأوثان على الرغم من أن هذا الفعل مشروع ، بل واجب ومقصود شرعاً ، لما فيه من توهين الشرك وأهله ، وهدم حصون الكفر والالحاد ، وهو في ذاته قربة الى الله تعالى ، ولكن ترتب على هذا الفعل أن يقوم الكفار والمشركون

---

(١) سورة الأنعام ، الآية الكريمة : ١٠٨.

(٢) جامع البيان للطبري .

بـالرد على المسلمين بـالمثل فيسبوا الله عـدواً بغير علم ، وبـذلـك كانت المصلحـة الناتجة عن سب الأصنام ، لا تتكافأ أبداً مع المفسدة التي أدى اليها ذلـك الفعل المشروع ، وأصبح اطلاق القول بالمشروعية ، منافياً ومناقضـاً لمقصـد الشـارع ، فوجب عدم اطلاق القول بمشروعيته ، وترك العمل به والأخـذ بحكم آخر يحقق مقصد الشارع ، أو يكون أقرب الى تحقيقه ما دام ذلك الفعل يؤدي الى عكس مقصوده ، فاذا لم يؤد الى عكس مقصوده ، شرع الحكم عنده . وبذلك يتبين أن الفعل في الشريعة يتكيف بحسب هذا الأصل بالمشروعيـة أو عـدمهـا ، في ضوء الثمرة التي تترتب على تطبيـق هـذا الفعـل ، لئـلا يـؤدي تطبيـق الأحكام الى عكس مقصد الشارع ، وهذا أصل النظر في مآلات الأفعال .

☆ ☆ ☆



٢ـ السُّنَّة الشَّريفة

آ ـ قول النبي ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها :

« لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لبنيتُ الكعبة على قواعد إبراهيم » .

يدل الحديث على أن اقـامـة الكعبـة على قواعـد ابراهيم أجـدر بـالعمل ، ولكن منـع من ذلـك قرب قريش من عهـد الكفر ، وعـدم تمكن الايمـان من نفوسهم ، وهذا هو الظرف المانع ، لأن مفسدة ارتدادهم الى الشرك مفسدة تربو على مصلحة بناء الكعبة على قواعد ابراهيم ، وهـذا نظر في مـآل الفعل المشروع الذي يترتب على القيام به مفسدة ترجح على المصلحة .

ب ـ قول النبي ﷺ : لولا أن أشـق على أمتي ، لأخرت العشـاء الى ثلث الليل ، ولأمرتكم بـالسواك عنـد كل صـلاة . وهـذا واضـح في عـدم أمره الأمـة

بذلك لما يترتب على هذا الأمر من الحرج والمشقة ، وهو أصل النظر في مآل الافعال ، وكلمة لولا في الحديث ، تدل على أن وجود المآل هو المانع الذي جعل النبي ﷺ لا يأمر الأمة بذلك ، والسبب هو ظرف المشقة .

ج ـ قوله ﷺ وحين أشير عليه بقتل من ظهر نفاقه : أخاف أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه . فهذه أيضاً مراعاة لمآل فعل قتل المنافق الذي أصله على المشروعية بالنظر لما يفضي ذلك من مفسدة الادعاء ، بأن النبي ﷺ يقتل أصحابه ، وما يترتب على ذلك من إحجام الناس عن الدخول في الدين الحق ، دين الله عز وجل ، في ظرف يتضمن ضعف المسلمين ، ورواج الدعاية ضد النبي ﷺ .

فهذه الأحاديث وما شابهها ، تقوم دليلا على وجوب النظر في مآلات الافعال قبل وقوع الفعل ، ويلزم من ذلك النظر في المآل بعد وقوع الفعل من باب أولى .

□ وهذه أدلة تنهض بمشروعية تغير الحكم بتغير الزمن ، وقد يقال إن الحديث الأحادي لا يصلح سنداً لأصل شرعي ، ولكننا نقول ان كثرة الاحاديث التي يعضد بعضها بعضاً ، تصلح دليلا على تأصيل هذا المبدأ ، فضلا عن أنا استقينا سند هذا المبدأ من القرآن الكريم .

☆ ☆ ☆

انخرام المناسبة :

ـ المناسبة : هي أن يكون ترتيب الحكم على العلة من شأنه أن يؤدي الى المصلحة ، وقد جاء في مسلم الثبوت : « هل تنخرم مناسبة الوصف للحكم

بمفسدة تلزم ذلك الوصف راجحة أو مساوية إياها ، قيل لا تنخرم ، واختاره الرازي صاحب المحصول من الشافعية وهو المختار ، وقيل نعم تنخرم ، واختاره ابن الحاجب[1] .

- إنخرام مناسبة الوصف للحكم يتعلق بالفعل الواحد الذي يكون له مآلان متعارضان :

الأول المصلحة التي شرع الحكم من أجل تحقيقها .

الثاني المفسدة التي تلزم عن ذلك الفعل ، وهي مساوية للمصلحة أو راجحة عليها .

- فالوصف المناسب للحكم « أي العلة » ، اذا كان شرعُ الحكم عنده يوجب مفسدة نادرة ، أو مرجوحة ، لا تبطل مناسبة الوصف بلزوم هذه المفسدة ، ويصح التعليل بها لأنه لا يهدر خير كثير من أجل شر قليل .

أما الوصف المناسب للحكم ، اذا كان شرُ الحكم عنده يوجب مفسدة راجحة ، فان الحكم لا يشرع ، لأن المقرر عقلا وشرعاً ، أنه لا عبرة بالمرجوح مع وجود الراجح ، وكذلك اذا كانت المفسدة مساوية للمصلحة ، فلا يشرع الحكم أيضاً ، لأنه ترجيح بغير مرجح ، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وأيضاً اهتم الشارع بالمنهيات أكثر من اهتمامه بالمأمورات ، لقوله ﷺ : « **اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه** » . فعلق امتثال الامر بالاستطاعة وسد باب النهي فلم يجزه الا عند الضرورة .

ومؤدى هذه المسألة ، أن تشريع الحكم بالاذن أو المنع منوط بغلبة المصلحة

---

(١) مسلم الثبوت ، جـ ٢ ، ص : ٢٦٤ .

على المفسدة أو العكس ، لأنه ثبت بالاستقراء ، أنه لا توجد مصلحة لا تشمل على مفسدة ، كما لا توجد مفسدة إلا تنطوي على مصلحة . يقول الإمام الشاطبي[1] : ليس في الدنيا محض مصلحة ، ولا محض مفسدة ، والمقصود للشارع ما غلب منهما .

□ فالضابط في المشروعات ، أو الممنوعات ، هي الموازنة والعبرة بما غلب حسب الأحوال ، وهذا ما اتفق عليه الأصوليون والفقهاء .

□ وأما مدار الخلاف :

على بطلان مناسبة الوصف للحكم ، فان رأي ابن الحاجب أن اعتبار المصلحة المرجوحة لا قيمة لها وكأنها غير موجودة يعدمها في ذاتها . وتبطل مناسبة الوصف للحكم لعدم اشتماله على مصلحة ، وكذلك اذا كانت المفسدة مساوية ، فلا يصح ترجيح أحد المتساويين على الآخر بدون مرجح ، ولا يصح أن يكون الوصف مناسباً .

والإمام الرازي يرى أن عدم اعتبار المصلحة لمرجوحيتها لا يعدم حقيقتها ، وبالتالي لا يبطل مناسبتها للحكم والوصف يسمى مناسباً سواء كانت المفسدة مساوية أو راجحة ، ولكن الحكم لا يشرع عند الوصف المذكور ، لأن النفع وان كان قليلا يسمى نفعاً لوجود الحقيقة فيه ، والمفسدة وان كانت راجحة لا تجعل النفع ضرراً ، وقلب الحقائق لا يكون بالاعتبار ، وانما يكون بذهاب الحقيقة بذهاب اجزائها كلها ، وما دام النفع باقياً ولو

---

(١) ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي : أصولي حافظ ، من أهل غرناطة . كان من أئمة المالكية ، توفي في عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م . من كتبه : الموافقات في أصول الفقه ، المجالس « شرح به كتاب البيوع من صحيح البخاري » والافادات والانشاءات ، والاتفاق في علم الاشتقاق ، وأصول النحو ، والاعتصام « في أصول الفقه » ، وشرح الالفية . (الاعلام : جـ ١ ، ص ٧١) .

مرجوحاً ، فالحقيقة لا تزال موجودة وعدم شرعية الحكم بسبب مرجوحية هذه المصلحة ، وأمامنا مناسبة الوصف للحكم ، فالارجح أنها باقية بدليل أن المفسدة اذا أصبحت مرجوحة واصبحت المصلحة راجحة بتغير الظروف والاحوال ، عادت شرعية الحكم ، وغاية ما في الامر أن المصلحة المرجوحة بسبب الظروف تصبح غير معتبرة ما دامت هذه الظروف قائمة حتى اذا ما تغيرت عاد اعتبار المصلحة ، لأن عدم الاعتبار لم يبدل الحقيقة ، والنتيجة أن المسألة تخضع لتغير الظروف حيث يتغير معها الحكم ، وهو ما يتصل بمبدأ تغير الاحكام بتغير الأزمان . وتوضحه الامثلة التالية :

١ - تلقي السلع :

تلقي السلع فعل له مآلان : الاول : مصلحة مشروعة للفرد في جلب الرزق لنفسه وعياله .

والثاني : مفسدة تلزم عن الفعل بسبب الضرر الذي يلحق بأهل البلد .

□ فهذه مفسدة بلا شك ، راجحة على مصلحة الفرد ، ولذلك يمنع المتلقي ، وتهدر الفردية لأجل المصلحة العامة ، وهذه المصلحة المهدرة تبقى في ذاتها مصلحة ، ويشرع الحكم عندها ، اذا تغير الظرف وأضحى تلقي السلع لا يضر بأهل البلد لكثرتها ، أو لعدم اشتداد حاجة الناس اليها ، حيث ينتفي الضرر عنهم ، وعندئذ لا يمنع المتلقي ، ويمارس مصلحته التي أهدرت في الظرف السابق ، ويتضح ذلك بالمثال التالي :

يخرج التجار الى القرى لجمع البيض ، والعودة به الى المدينة ، مما يبيح لهم التحكم بالسعر ، وينتج عنه ضرر بالعامة ، ولذا يمنع هذا التلقي . بيد أنه في ايامنا الحاضرة وقد وجدت المداجن الفنية في المدينة ، وهي تنتج كميات كبيرة

من البيض ، انتفى الضرر الناتج عن التلقي ، لعدم امكان التحكم بالسعر ، فيتغير الحكم ، ولا يُمنع المتلقي ، ويكون المؤثر في تغير الحكم، توفر السلعة وعدمه ، بحسب تغير الظروف ، وهو ما يطلق عليه : تغير الظرف المادي .

٢ ـ الاحتكار :

إن تصرف المالك بملكه على الوجه الذي يريد منطلقاً من مصلحته ، أمر مشروع ومأمور به . بيد أن استعماله على وجه يضر بالعامة ، كأن يحتكر السلع التي تشتد حاجة الناس اليها تربصاً بهم الغلاء ، فيُمنع . لأن هناك مآلين : الأول : مصلحة المالك في التصرف بحق الملكية ، وهو مأذون به .

الثاني : مفسدة الضرر بالعامة ، وهي راجحة على المصلحة . ولذلك تُهدر تلك المصلحة المرجوحة ، بالقدر الذي يدفع الضرر بالعامة . فيُمنع من الاحتكار ، ويجبر على البيع بثمن المثل ، تحقيقاً للعدل ، ورعاية للحقين ما أمكن ، أما اذا تغيرت الظروف وزال ما كان بالناس من حاجة الى السلع التي يحتكرها لم يُجبر على بيعها ، اذ لا ضرر يلزم على الاحتكار ، فتبقى المصلحة الفردية التي لم تنعدم بذاتها ، ويشرع عندها الحكم بعد تغير الظرف ، ومثال ذلك :

مادة الشاي ، فاذا كانت الكميات الموجودة في الاسواق قليلة ، واحتكر التجار هذه المادة ، نتج عن هذا التصرف ضرر بالعامة ، فلا يجوز للمالك احتكار السلعة ، ولو كان تصرفه في ملكه مشروعاً في الأصل ، ولا يُقال ان المالك مسلط على ماله ، لأن مصلحة تصرفه في ملكه ، مصلحة فردية نتج عنها الاضرار بالعامة ، وهي مفسدة راجحة ، فيُمنع التصرف ، وتُهدر هذه المصلحة الا أنها تبقى مصلحة ، فاذا استوردت الدولة الكميات الكافية من

الشاي وطرحتها في الاسواق ، انتهى الضرر عن العامة ، وعاد حكم تصرف التجار بأموالهم الى أصله من المشروعية ، ولا يُمنعون من الاحتكار .

ونلاحظ أن تغير الحكم يتعلق بتغير الظرف المادي ، وهو وجود السلعة ، أو عدم وجودها .

☆ ☆ ☆

التعريف الأصولي لمبدأ تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان .

□ تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان :

هو تغيُّر الظروف المادية أو المعنوية تغييراً بحيث يصبح الحكم المشروع سلباً أو ايجاباً مفضياً الى تحقيق المصلحة ، مع لزوم مفسدة راجحة أومساوية .

ويتبين من التعريف ، أن المقصود بتغير الأحكام بتغير الأزمان ، ليس مجرد تغير الزمن ، لأن الاوقات والايام متماثلة ، وانما المقصود : تغير العامل المؤثر في الحكم ، وهذا العامل قد يكون ظرفاً مادياً ، أو ظرفاً معنويا .

ومثال الظرف المعنوي : حديث رسول الله ﷺ : « لولا أن أشق على أمتي ، لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » . فالحديث يفيد أن السواك عند كل صلاة أفضل ، ولكنه عدل عن الافضل الى المفضول دفعاً للمشقة ، ومراعاة لمصلحة الناس ، فالظرف الُمغيِّر للحكم هو المشقة ، وهي ظرف معنوي ، والحكم المتغير هو وجوب السواك عند كل صلاة الى عدم وجوبه . وهذا الظرف المعنوي ، قد يكون متعلقاً بالعقيدة ، أو تغير الوازع الديني أو ضعف الايمان في النفوس كقول النبي ﷺ : « لولا أن قومك حديثو عهد بشرك ، لبنيت البيت على قواعد ابراهيم » .

فعدم إقامة البيت على قواعد ابراهيم سببه هو حداثة قريش بالايمان ، وقربهم من عهد الشرك ، وخشية الارتداد ، لضعف العقيدة ، فترك ﷺ الأفضل للمفضول لهذا الظرف المعنوي .

وأما المثال للظروف المادية :

فقد أوجب الاسلام الجهاد ، وجعل من آدابه : لا يُقتل إلا المحارب ، أو من يُعين على الحرب . وقد قتل النبي ﷺ دريد بن الصمَّة ، لأنه أعان المشركين على الحرب برأيه . فلا يجوز هدر دماء العباد والاطفال والنساء . ومن هنا كان استعمال القنبلة الذرية ، وقنابل النابالم المحرقة ، أو الجرثومية والكيماوية . . . لا يتفق مع مبادىء الاسلام ، لأنها تفني البشر ، وتدمر حياتهم ، وتحدث التشويه في الخلقة الانسانية . وتأتي بالامراض الفتاكة ، ولا يقتصر أثرها على المقاتلين ، بل يتعدى ذلك الى الآمنين من الاطفال والنساء والشيوخ ، بل النباتات والحيوانات ، فهي محرمة شرعاً .

ولكن . . . لما كان الأعداء ـ أعداء المسلمين ـ يمتلكون هذا النوع من القنابل ، ويستعملونها ضدهم ، فيجب على المسلمين امتلاكها أو استعمالها دفاعاً عن النفس ، إذ انهم لو تركوا استعمالها لأدى ذلك الى فناء المسلمين ، وهدم المقاصد الضرورية : الدين والعقل والمال والنفس والعرض والنسل .

فلولا أن القنبلة ، سيترتب عليها دمار المسلمين وبلادهم ، لما تغير حكم تحريمها ، وتغير الحكم إذن كان بسبب هذا الظرف المادي .

والتغير قد يكون خاصاً أو عاماً . أما التغير الخاص ، فهو ما كان لشخص معين أو مثله في مثل ظرفه ، كالأعرابي الذي بال في المسجد النبوي ، وهم الصحابة به ليمنعوه ، لوجوب طهارة أماكن العبادة بابعاد النجاسات عنها ،

ولأن المسجد بيت الله ، فلا يليق به مثل هذه القاذورات . ومع هذا . . . نجد النبي ﷺ يأمرهم بأن يدعوه ، ويقول لهم لا تُرزموه . لأن المنع يؤدي الى ضرر يقع على النفس ، بأن يصاب هذا الرجل بأذى في صحته والمحافظة على النفس أمر ضروري ، والأول أمر تحسيني ، فيقـــدم الضروري على التحسيني ، وهذا التغير بسبب الظرف الصحي الطارىء ، وهو ظرف خاص .

أما الظرف العام ، فقد يشمل الأمة كلها ، كعدم قطع الايدي في عام المجاعة . أو يقتصر على طائفة من الناس ، كمنع النساء من الاختلاف الى المساجد ، أو يختص بحرفة أو وظيفة ، كعدم قطع الايدي في الغزو بالنسبة للجيش .

وقد يكون الظرف اجتماعياً أو اقتصادياً أو متعلقاً بالمعيشة أو العادات ، مما يطول الحديث به اذا فصلنا ، ولكن ننهي البحث بقولنا . ان الصحابة والتابعين فهموا ، هذه الظروف ، وعملوا بمبدأ تغير الاحكام بتغير الأزمان .

فقه الصحابة ، ومن أمثلة ذلك :

١ ـ **المؤلفة قلوبهم :** أعطاهم النبي ﷺ ، لتقوية الاسلام ونصرته . ولما قوي الاسلام أيام الصِّديق وما بعدها ، تغيرت الاحوال بتغير الزمن ، فسقط الحكم[1] بتأليف القلوب .

والتعليل الأصولي لاختلاف الحكم باختلاف الزمن في هذه المسألة :

□ الآية : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ﴾ .

---

(١) راجع أحكام القرآن للبحصاص ، ص ١٥٢ / ١٥٣ .

أسند الله تعالى الصدقات الى المؤلفة قلوبهم ، وهذا الاسناد ، وان كان ظاهراً خبرياً ، إلا أن المقصود هو الانشاء ، أي الأمر بايتاء الصدقات الى من تحقق فيهم وصف التأليف ، فيكون مؤدى الآية الكريمة ، آتوا المؤلفة قلوبهم حقهم من الزكاة عملا بالقاعدة الاصولية القاضية بأن اسناد الحكم ، (الذي هو وجوب الايتاء) الى المشتق (وهو المؤلفة) يؤذن بعلية المصدر ، وهو التأليف ، فكان التأليف هو العلة .

هذا . . . ولا شك أن التأليف ، أمر موكول للامام يفعله بمقتضى المصلحة العامة ، عملا بالقاعدة الفقهية القائلة : ان تصرف الامام على الرعية منوط بالمصلحة العامة .

فمصلحة التأليف كانت زمنية ، تبدلت بتبدل الزمن . وتصرف عمر رضي الله عنه في هذه المسألة ، دليل على تغير الاحكام بتغير الأزمان .

٢ ـ **قسمة الغنائم** : بعد فتح العراق والشام ومصر ، غير عمر رضي الله عنه حكم رفع الخُمس ليصرف في مصارفه وتقسيم الباقي على الجند ، فأبقاه بيد أهلها ووضع عليهم الخراج لينفق منه على مصالح المسلمين عامة في كل جيل وزمان ، لأن في قسمة الاراضي مفسدة عامة تلحق بالمسلمين جميعا .

ورأي عمر هذا أيده كبار الصحابة ، قال علي كرم الله وجهه : ان الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه . ولا يقال ان عمر رضي الله عنه عطل حكم الآية الكريمة وخالف فهم النبي لها ، وهي :

□ ﴿ واعلموا أنَّما غَنِمْتُم من شيءٍ فأَنَّ لله خُمُسَهُ وللرسول ولذي القرْبى واليتامى والمساكين وابنِ السبيل[1] ... ﴾ .

---

(١) سورة الانفال ، الاية الكرية : ٤١ .

إنما طبق الآية الكريمة في ظرف لم تكن هناك فيه مصلحة في التقسيم ، فالظرف الطارىء الجديد هو : اتساع رقعة الدولة الاسلامية الذي ترتب عليه مصلحة عامة في رعاية مرافقهم من تجهيز الجيش وسد الثغور ، وهذه المصلحة العامة وقفت متعارضة مع المصلحة الخاصة وروح التشريع الاسلامي القاضية بأنه يجب ترجيح ما هو أكثر نفعاً ، وهو مشتق من قوله عز وجل : ﴿ واثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ففي الآية إشارة الى مبدأ ، وهو أن ما كثر شَرُّه حُرِّم ، وما كثر خيره شُرِّع . ولا شك أن اعطاء الغانمين الفاتحين نصيبهم يترتب عليه فساد كبير وهو إهدار المصلحة العامة ، وتوقف الفتوح ونشر الدين ، فيكون محرما . وهذا كل ما فعله عمر رضي الله عنه بفهمه السليم لروح الشريعة ومراميها ، حيث منع تقسيم الاراضي لمصلحة الأمة الطارئة ، فهذا تطبيق عملي لمبدأ تغير الحكم بتغير الزمن .

وهناك أمور عديدة أخرى مثل :

٣ ـ منع إقامة الحدود في الغزو[١]

٤ ـ إسقاط الحد عن السارق[٢] .

٥ ـ **التزوج بالكتابيات :** منعه سيدنا عمر خوفاً من نساء الأعاجم ، لوجود خلابة وخداع بهن « وإني لأخشى عليكم منه » ، والخداع هو الاطلاع على أسرار الدولة وإعلام العدو بها . فإباحة التزوج بالكتابية حكم شرعه الله . ولكن عمر نهى عنه في بعض الظروف دفعاً لمفسدة عظمى تترتب عليها حماية

---

(١) راجع للتوسع « الخراج » لأبي يوسف قاضي قضاة بغداد ، ص ١٧٨ .

(٢) راجع في المراجع العديدة ، ما حدث عام الرمادة أيام سيدنا عمر ، حيث منع قطع اليد ، لأن السارق ما قام بدافع الإجرام ونفسية المجرم ، وإنما بقصد درء الهلاك عن النفس ، في ظروف المجاعة الطارئة .

الصالح العام . وهذا ما تفعله جيوش العالم اليوم ، فإنها تشترط على عناصرها عدم الزواج من أجنبية .

٦ ـ **ضالة الإبل :** كانت الإبل الضالة تترك ، وفي عهد عثمان كثرت جداً ، فأمر بتعريفها ثم بيعها إذا لم يجد لها صاحباً ، وإن جاء صاحبها فيما بعد يعطى ثمنها[١] . وتعاورت على ضالة الإبل ونحوها أحكام ثلاثة :

أ ـ المنع من التقاطها في زمن رسول الله ﷺ .

ب ـ التقاطها وبيعها بعد تعريفها وحفظ ثمنها أيام عثمان رضي الله عنه .

ج ـ التقاطها وحفظها وعلفها من بيت المال حتى يعرف صاحبها في زمن علي رضي الله عنه وكل ذلك لتحقيق المصلحة بحسب الظرف الطارىء في كل عهد .

٧ ـ **خروج النساء إلى المساجد :** كان مباحاً أيام رسول الله ، ثم منع لما ظهر التبرج والتزين لدرء مفسدة قد نتجت عن تغير الحال بسبب الظرف الطارىء الجديد .

٨ ـ **تضمين الصناع :** في الأصل قول رسول الله : « لاضمان على مؤتمن » (نيل الأوطار : ٥ / ٢٩٦) . عندما كانت الضمائر حية لاتفرط بشيء . ولما رقَّت ضمائر الناس بمرور الزمن ، وتغير الحال ، وضعف الإيمان ، أصبح العمل بهذه القاعدة مؤدياً الى نقيض ما قصده الشارع وهو تيسير الاستصناع محافظة على المصلحة العامة . ثم جاء ظرف ما عمل بالقاعدة لمآل العمل بها ، وهو ـرار بالمصلحة العامة ، وهذا ما نقصده من تغير الأحكام بتغير الأزمان .

الطلاق الثلاث : روى مسلم في صحيحه ... عن ابن عباس : كان

نيل الأوطار » للشوكاني ج ٥ ، ص ٣٣٨ . والموطأ : ج٢ ص١٢٩ .

الطـلاق على عهـد رسـول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خـلافـة عمر ، طـلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قـد استعجلوا أمراً كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم .

لقد رأى عمر رضي الله عنه ، أن الناس قد استهـانوا بـأمر الطلاق ، وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة ، فرأى من المصلحة عقوبتهم بإمضائه عليهم ليعلموا أن أحدهم إذا أوقعه جملة بانت منه امرأته وحرمت عليه رغبـة منـه بـأن يعلموا أن الله شرع الطلاق مرة بعد مرة ، ولم يشرعه كلـه مرة واحـدة ، فمن جمع الثلاث في مرة واحدة ، فقد تعدى حدود الله وظلم نفسـه ، فهو حقيق بـأن يعـاقب ، وأن يُلزم بما التزمه . أراد عمر ردع النفوس عن التهاون في الطلاق .

ولو أن التهـاون والتتـابع في إيقـاع الطلاق الثلاث زال من المجتمع ،ـعـاد الحكم إلى ما كان عليه في عهد رسول الله ، من اعتبـار الطلاق الثلاث واحـداً . وهكـذا يتغيَّر الحكم بتغيُّر الـزمن ، حيث يـدور مع علتـه ، وهي المصلحـة الشرعية المعتبرة .



□ وفي فقه التابعين :

فهم مماثل لمبدأ تغيُّر الأحكام بتغيُّر الأزمان ، ويظهر ذلك في أمور منها :

١ ـ التسعير الجبري[1]

---

(١) راجع : كشـاف القنـاع في الفقـه الحنبلي ، ج ٣ / ص ١٥٠ . ونيل الأوطـار للشـوكاني ، ج ٥ ، ص ٢٢٠ ، وسنن أبي داوود ، ج ٣ ص٣٣١ ، والمنتقى : ج٥ ص ١٨ .

٢ ـ رد شهادة بعض الأقرباء[١] .

٣ ـ ضمان المودع بلا تعد[٢] .

☆ ☆ ☆

وبعد ...

□ ليت علماءنا الأكارم يغوصون في موضوعات هذه الشريعة العظيمة التي يَسْعَدُ بها كل من يريد الخير والنظام والعدل والسلام ... مهما تغيَّر الزمن إلى يوم الدين . لتتلاءم مع الظروف الطارئة التي حدثت واستجدت بتغير الزمان ، لكي يجد المسلم نفسه قريباً من أحكام القرآن ، غير لاجىءٍ إلى غيره . ليعود للمسلم اليوم ارتباطه بأحكام : (ميزان الشريعة) .

ولكن يحتاج الموضوع إلى جرأة ... ولكي لايتحمل فرد هجمات المتزمتين جامدي العقل والفكر ، فإنني أدعو علماء المسلمين إلى اجتماعات دورية أو سنوية ، تضم كبار فقهائهم ، أسوة بالمجامع العلمية ، لتحديد رأي الإسلام في الأمور التي طرأت بالظروف المغيِّرة . وبشكل ملزم للجميع ...

فهل من مجيب ، والحال كما يعرفه الجميع ... اللهم لاأملك إلا هذه الصفحات لأبلغ ... اللهم هل بلغت ؟ اللَّهم اشهد .

☆ ☆ ☆

ـم الموقعين ، ج ١ ، ص ٩٧ . وفتح القدير ، ج ٦ ، ص ٣٢ ، والروض النضير ، ج ٣ ،

ى : ج ٥ ، ص ١٥٤ . ومنتقى الأخبار للشوكاني ، ج ٧ ص١٥٢ . والسنن الكبرى : ج ٨ ،
ـسير القرآن : ج ٦ ، ص ١٤٣

القرآن المضيّع بين التصوّف والفقه !

□ « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس » .

محمد رسول الله

□ نحن الآن في صدد الحديث عن التصوف من حيث المبدأ ، لا من حيث واقعة اليوم ، فحقيقة التصوف شيء ، والواقع الآن شيء آخر ، اعتقاد الصوفية شيء ، واعتقاد مؤرخي التصوف شيء آخر ، فالتصوف والشرع كانطباق الكف على الكف ، وكل ما لا ينطبق على ميزان الشريعة فهو دخيل مدسوس مرفوض قطعاً .

التصوف المؤسس على الشريعة ، المنبثق منها ، المستند إليها في كل خطوة من خطواته .. إن كانت له أدلته من الكتاب والسنة الواضحة الجلية ، فلكل عاقل متزن موقفان :

- يقبل أهداف التصوف ، ويطالب بحذف الاسم والتسمية ، ويكتفي باسم وكلمة مسلم ، أو مؤمن فقط . فالأسماء والتسميات ما زادت الأمة الإسلامية إلا فرقة .

- والموقف الثاني ، يقول لمن يعترض على التصوف ، لاتنظر إلى واقعه اليوم ، فواقع المسلمين اليوم كله غير سليم ، معظمهم ليسوا على (ميزان الشريعة) ، فلنناقش المبدأ ، ولا نناقش في رجال تبنوه فأخطؤوا وأساؤوا إليه .

□ **التصوف معرفة وسلوك إلى المعرفة** ، وأسمى أنواع المعرفة معرفة الله تعالى ، والإقبال على الله يحتاج إلى إفراغ القلب ممن سواه ، فلا تجد في القلب مطلباً إلا الله ، **والإخلاص** أساس طلب معرفة الله المعرفة الحقة « ألا لله الدين الخالص » .

وقال ﷺ : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض[1] » .

ومع الإخلاص ، **خشية لله** ، قال ﷺ : « أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له[2] » .

وفي كتاب الله عز وجل : ﴿ الذينَ يُبلغونَ رسالاتِ الله ، ويخشونَهُ ولا يخشونَ أحداً إلا اللهَ ، وكفى باللهِ حَسِيباً[3] ﴾ .

□ ﴿ إنَّ الذينَ هُمْ من خَشْيَةِ رَبِّهم مُشْفِقُون ، والذينَ هُمْ بآياتِ رَبهم يُؤمنُون ، والذين هم بِرَبِّهم لا يُشْرِكون ، والذينِ يُؤتونَ ما آتوا وقُلُوبُهمُ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِم راجعون ، أولئكَ يُسَارِعُون في الخيرات ، وهُمْ لها سابقُون[4] ﴾ .

فخشية الله عز وجل من أول صفات السابقين إلى الخيرات والمسارعين إليها وذلك حسب ترتيب الآيات الواردة في سورة « المؤمنون » .

وخشية الله هي خوف من الله مع الرجاء فيه ، وهذا يدفع إلى العبادة البعيدة عن الرياء ، ومن لُبِّ العبادة **ذكر الله عز وجل** ، الذي حثت عليه عشرات الآيات ، وعشرات الأحاديث ، ومنها :

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم .

(٢) رواه أنس رضي الله عنه .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية الكريمة : ٣٩

(٤) سورة المؤمنون ، الآيات الكريمة : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

قوله عز وجل : ﴿ فاذكُرُوني أذْكُرْكُمْ ، واشكرُوا لي ولا تكفُرون[1] ﴾ .

□ ﴿ الذينَ يذكُرونَ اللهَ قِياماً وقُعُوداً ، وعلى جُنُوبِهِم ، ويتفكَّرون في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبْحانَكَ ، فَقِنا عَذابَ النَّارِ[2] ﴾ .

□ ﴿ لَقَدْ كان لكُمْ في رسُولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ، وذَكَرَ اللهَ كثيراً[3] ﴾ .

□ ﴿ واذكُرْ اسمَ رَبِّكَ وتَبَتَّلْ إليه تَبْتِيلا[4] ﴾ .

وطريقة ذكر الله عز وجل واضحة جلية بالآية الكريمة .

□ ﴿ واذكُرْ ربَّكَ في نفسِكَ تَضَرُّعاً وَخيفَةً ، ودونَ الجهرِ من القولِ ، بالغُدُوِّ والآصالِ ولا تَكُنْ مِنَ الغافلين[5] ﴾ .

وبعد هذا كله[6] ، وقبل أن نقرأ أحاديث رسول الله ﷺ في هذا الصدد ، وصفَ اللهُ المنافقين بقِلَّة ذكرهم له :

□ ﴿ إنَّ المنافقينَ يُخادعُونَ اللهَ وهو خادِعُهُمْ وإذا قامُوا إلى الصَّلاةِ قامُوا كُسَالى ، يُراءونَ النَّاس ولا يذكُرونَ اللهَ إلا قليلاً[7] ﴾ .

---

(١) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ١٥٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٩١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية الكريمة : ٢١

(٤) سورة المزمل ، الآية الكريمة : ٨ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية الكريمة : ٢٠٤

(٦) والحج إلى بيت الله الحرام كله ذكر لله عز وجل ، في سورة البقرة الآيات : ١٩٨ / ٢٠٠ / ٢٠٣ : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين ... فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ... واذكروا الله في أيام معدودات ... » .

(٧) سورة النساء ، الآية الكريمة : ١٤٢

بينما المسلم المؤمن الحق ، وصفه الله عز وجل في الكتاب الكريم :

□ ﴿ إنما المؤمنونَ الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم ، وإذا تُليت عليهم آياتُهُ زَادَتْهُم إيماناً وعلى رَبِّهِم يتوكلون[1] ﴾ .

أما أحاديث رسول الله ﷺ ، فمنها :

- « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ذكر الله تعالى[2] » .

- وقال ﷺ : « قال موسى : يارب ، وددت أني أعلم من تحب من عبادك فأحبه ، قال : إذا رأيت عبدي يكثر ذكري فأنا أذنت له في ذلك وأنا أحبه . وإذا رأيت عبدي لايذكرني فأنا حجبته عن ذلك وأنا أبغضه[3] » .

- وقال ﷺ : (قال الله تعالى : إن أوليائي من عبادي وأحبابي من خَلقي الذين يذكرون بذكري ، وأذكر بذكرهم[4]) .

- وقال : « اذكروا الله ذكراً خاملا ، قيل : وما الذكر الخامل ؟ قال : الذكر الخفي[5] » .

وورد : « كان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول قم بنا

---

(١) سورة الأنفال ، الآية الكريمة : ٢ .

(٢) رواه الترمذي ، والحاكم ، وابن ماجه عن أبي الدرداء .

(٣) الدارقطني في الأفراد ، وابن عساكر عن عمر .

(٤) أبو نعيم في الحلية .

(٥) ابن المبارك في الزهد عن ضمرة بن حبيب مرسلاً

نزدد إيمانا ، فيذكرون الله عز وجل[1] » . وقال عثمان رضي الله عنه : « لو أن قلوبنا طهرت ، لم تمل من ذكر الله » .

□ ولا يصل أحد إلى معرفة الله ، إلا بدوام الذكر له ، ومع الذكر : **ورع وزهد** ، ورع عن كل حرام أو شبهة ، وزهد : أي عدم تعلق القلب بالدنيا ، يملك الذاكرُ الورعُ الدنيا ، ولكنها لاتملكه ، فالزهد عمل من أعمال القلب ، وليس فقراً ، وليس مسكنة وخضوعا وخنوعا .

ومن التصوف **الصبر** على الطاعة ، **والتوكل :** أي الوثوق بالله ، لا التواكل ، فالتوكل عمل قلبي يسبقه إتيان الأسباب ، واعدادٌ بشكل عقلي سليم . ثم **المحبة :** ﴿ ياأيُّها الذينَ آمنوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُم عَنْ دينِهِ ، فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ ، أَذِلَةٍ على المؤمنين ، أَعِزَّةٍ على الكافرينَ يجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ، ولا يخافون لَوْمَةَ لائمٍ ، ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤتيهِ مَنْ يَشَاءُ ، واللهُ واسعٌ عليم[2] ﴾ .

والمحبة ، محبَّةٌ لله ، ومحبة بالله ، يحب المؤمن اللهَ ، ويحبُ ما يحبُّه الله ، ويبغضُ لله ، ومع المحبة **الرضا** ، ولا يعني ذلك عدم السعي لما هو أفضل ، بل القناعة بالحاضر الموجود ، والسعي والجد لحياة أفضل .

□ و هنا يتبادر سؤال : لماذا نجد التصوف في كل الأديان ؟ والجواب بسيط :

إن أشواق الروح الإنسانية قسط مشترك بين بني آدم ، لا تنفرد به أمة من

---

(١) اللالكائي في السنة عن أبي ذر

(٢) سورة المائدة ، الآية الكريمة :٥٤

الأمم ، ولا تخلو منه أمة من الأمم ، ولم تستوعبها عقيدة واحدة كل الاستيعاب ، دون سائر العقائد الدينية[1] .

□ أما ما نراه اليوم من حمل رايات ورقص ، باسم التصوف . هذا دخيل عليه ، والأفضل أن نرجع إلى كلمة مسلم ومؤمن مادامت مستمدة من الكتاب والسنة ونرفع التسميات جانبا ، فلا تهمنا التسمية بقدر ما يهمنا اللُّباب .

فكل عمل يرتكب باسم التصوُّف ولا ينطبق على أحكام « شريعة الميزان » فالتصوف منه براء . ومن أعلام المتصوفة ، الذين يعتز بهم المسلمون ، ويعتز بهم الإسلام :

- **الفُضيل بن عياض :** حياته تكذب الذين يريدون أن يقرنوا بين التصوف والجهل في الدين والشرع . فقد كان الفضيل قمة في العلم . وحياته تكذب الذين يزعمون أن بين التصوف والشريعة سوء تفاهم ، فقد كانت حياة الفضيل سلوكاً ملتزماً بالشريعة . وحياته تكذب الذين يحاولون في تعسُّف وزيف ، أن يجعلوا التصوف دخيلاً على الإسلام ، من اليونان :أفلاطونية أفلاطون ، أو أفلوطينية ، أفلوطين ، هذه الآراء اليونانية لم تكن ظهرت في عصر عاش فيه الفضيل ، ألا وهو القرن الثاني الهجري[2] . ولم يعرف الفضيل هذه الآراء أو تلك ، وهو العربي المسلم الصميم من قبيلة تميم . وحياته تكذب الذين يقولون :إن المسيحية مصدر التصوف ، فالفضيل كان غارقاً في التراث الإسلامي ، في ميراث محمد ﷺ ، في الحديث وفي القرآن ، ولم يكن بين جنبيه من المسيحية ، إلا ما ذكره القرآن منها ، أو ما ذكره الرسول مفسراً للقرآن ، ومبينا له .

---

(١) أثر العرب في الحضارة الأوربية ، ص ١٠٩ ، طبع دار المعارف ، ط٢

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود التيمي ، توفي عام ١٨٧ هـ .

وحياته تكذب الذين يقولون : إن نشأة التصوف إنما هي نشأة فارسية ، وإنه لايتناسب مع الفطرة العربية . لقد كان الفضيل عربياً خالصاً ، وكان من أئمة الصوفية .

وحياته تكذب الذين يقولون إن التصوف زهد وكسل وتواكل وتقوقع ، فقد كان عالما من كبار علماء المسلمين ، وكان يعيشُ من كسب يده في السقاية[1] .

□ قال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد ، فبينما أنا نائم ، إذ سمعت قرع الباب ، فقلت من هذا ؟ !

فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعاً ، فإذا أنا به أمير المؤمنين ، فقلت : ياأمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك ، فقال : ويحك ، قد حال في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالِمٌ ، انظر لي رجلا أسأله .

فقلت : ههنا سفيان بن عيينة .

فقال : امض بنا إليه . فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟

فقلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعاً فقال : ياأمير المؤمنين ، لو أرسلت إليَّ أتيتك ، فقال : جَدَّ لنا ما جئنا له ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَينْ ؟ قال : نعم ، قال : يا عباس اقضِ دَيْنَهُ ، ثم انصرفنا .

فقال الرشيد لابن الربيع : ما أغنى عني صاحبك شيئاً ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : هاهنا عبد الرزاق بن همام . فقال امض بنا إليه نَسْألُهُ ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعاً فقال : ياأمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك . فقال : جَدَّ لنا ما

(١) « الفضيل بن عياض » ط دار الشعب ، د . عبد الحليم محمود

جئنا إليه ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَينٌ ؟ فقال : نعم ، فقال الرشيد : يا عباس اقضِ دينَه ، ثم انصرفنا ، فقال : ما أغنى عني صاحبك شيئا ! فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت ها هنا الفضيل بن عياض . فقال امضِ بنا إليه ، فأتيناه ، فإذا هو قائم يصلي في غرفة يتلو آية من كتاب الله ويرددها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟

فقلت : أجب أمير المؤمنين .

فقال : ما لي ولأمير المؤمنين .

فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعته ؟ !

فقال : أوليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « **ليس للمؤمن أن يذل نفسه** » . فنزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف الرشيد كفي إليه ، فقال : أواه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى ، قال : فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام تقي من قلب تقي .

قال الرشيد : جَدَّ لنا ما جئنا له يرحمك الله .

قال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك ، وجميع من معك حملوا عليك ، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك جزءا من ذنب ما فعلوا ، ولكان أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك ، ثم قال :

- إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حَيْوَة ، فقال لهم : إني ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ ، فعدَّ الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة ، فقال سالم بن عبد الله :

إن أردت النجاة غداً من عذاب الله ، فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً ، فليكن كبير المسلمين لك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ، فبر أباك ، وارحم أخاك وتحنَّن على ولدك . وقال له رجاء بن حَيْوَة : إذا أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحب للمسلمين ماتحب لنفسك ، واكره لهم ماتكرهه لنفسك ، ثم متى شئت مت ، وإني لأقول لك هذا ، وإني لأخاف عليك أشدَّ الخوفِ يوم تَزِلُّ الأقدام . فهل معك رحمك الله من مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا ؟! .

فبكى الرشيد بكاء شديدا ، حتى غشي عليه ، فقال الفضل بن الربيع : ارفق بأمير المؤمنين . فقال : ياابن أم الربيع قتلته أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا . ثم أفاق . فقال : زدني ... فقال : ياأمير المؤمنين ، إن العباس عم النبي ﷺ جاءه فقال : يارسول الله أمرني على إمارة ، فقال له النبي ﷺ : يا عباس ، يا عم النبي ، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها . إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل . فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا . ثم قال : زدني يرحمك الله ، فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك ، فإن النبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشّاً ، لم يرح رائحة الجنة » .

فبكى الرشيد بكاء شديدا ، ثم قال : عليك دين ؟

قال : نعم ، دين لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل إن ناقشني ، والويل لي إن لم يلهمني حجتي .

الرشيد : إنما أعني دين العباد !

الفضيل بن عياض : إن ربي لم يـأمرني بهـذا ، وأمرني أن أصـدق وعـده ، وأطيع أمره ، قال تعالى :

﴿ وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلا ليعبُدُون ، ما أُريـدُ مِنْهُم مِن رِزقٍ ، ومـا أُريدُ أن يُطعِمُونِ ، إن اللهَ هُوَ الرزاقُ ذوُ القُوَّةِ المتين[1] ﴾ .

الرشيـد : هـذه ألف دينـار فـأنفقهـا على عيـالـك ، وتقوَّ بهـا على عبـادة ربك .

الفضيل بن عياض : سبحان الله ! ! أنا أدُلك على النجاة ، وتكافئني بمثل هذا ! سَلَّمَكَ الله ووفقك ، ثم صمت فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده .

فقـال الرشيـد : إذا دللتني على رجل ، فـدلني على مثل هـذا ، هـذا سيـد المسلمين اليوم .

ـ ثم إن امرأة من أهل الفضيل ، دخلت عليه ، فقالت : يا هـذا قـد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال ففرجنا به !

فقال : إنما مثلي ومثلكم ، كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلمـا كبر نحروه ، فأكلوا لحمه ، موتوا ياأهلي جوعا ، ولا تذبحوا فضيلا .

فلمـا سمـع الرشيـد ذلـك ، قـال : ادخـل فعسى أن يقبـل المـال . قـال : فدخلنا ، فلما علم بنـا الفضيل ، خرج وجلس على التراب على السطح . فجـاء هـارون الرشيـد ، فجلس إلى جـانبـه ، فجعل يكلمـه فـلا يجيبـه ، فبينمـا نحن كذلك ، إذ خرجت طفلة سوداء فقـالت : يـا هـذا ... قـد آذيت الشيخ منـذ الليلة ، فانصرف يرحمك الله ، فانصرفنا .

---

(١) سورة الذاريات ، الآيات الكريمة : ٥٦ / ٥٧ / ٥٨

فتأمل ... الرشيد ، ملك الدنيا في زمانه ، من قال لنقفور : كلب الروم ، وحقق ذلك عمليا ، يمسي كالطفل ، مع العالم الحقيقي .

ومع موقف الفضيل بن عياض هذا ، كان يقول : لو كانت لي دعوة مستجابة ، لا أجعلها إلا في إمام صالح ، لأنه إذا صلح الإمام أمِنَ العباد[1] .

☆ ☆ ☆

- **أحمد الفاروقي[2] :** يعود نسبه من جهة أبيه إلى سيدنا عمر الفاروق ، ومن جهة أمه إلى الحسين رضي الله عنه ، إلا أن شهرته لا تعود إلى هذا النسب الكريم العريق ، بقدر ما تعود إلى تقواه وتضلعه في العلوم الدينية وإلى أثره الديني والسياسي ، الذي لايقل عن أثر الشيوخ العظام : أمثال الغزالي ، وبهاء الدين النقشبندي ، خلف وراءه عددا كبيرا من الكتب التي ألفها في مختلف الموضوعات ، أهمها : « رسالة إثبات النبوة » ، كما كتب في السياسة ، وفلسفة القرآن ، وعلوم ما وراء الطبيعة .

- كان همه : إحياء الشريعة الإسلامية ، بعد أن تتلمذ على يد شيخه محمد الباقي .

- نشأ بينه وبين الملك (جلال الدين أكبر) ، وبعده مع أبنه جهانكيز ، خلاف شديد ، لأنها أرادا إجراء قانون مخالف للشريعة ، فقام في وجهيها ، وأنكر عليهما إنكاراً شديداً علنياً ، فلما طلع على العرش ابن جهانكيز ، خاف

(١) قال ﷺ : « لاتسبوا الأئمة ، وادعوا لهم بالصلاح ، فإن صلاحهم صلاح لكم » (رواه الطبراني في الأوسط عن أبي أمامة)

(٢) هو مجدد الألف الثاني ، ولد عام ٩٥١ هـ ، وتوفي عام ١٠٣٤ هـ . ولد في سر هند ، أول الهند من جهة البنجاب .

من نفوذ الشيخ وتلاميذه ، فأصدر أمره بحبسه في قلعة « كوالبار » ، وهي قلعة حصينة مبنية على قمة جبل في الهند ، فصبر الشيخ ،واستسلم إلى قضاء الله ،حتى أصدر أمره إلى خلفائه وتلاميذه بعدم إثارة أي شيء ضد الملك ، إلى أن يأتي الله بأمره ، وبعد مضي نيف وثلاثين يوماً من حبسه سلط الله تعالى داء عضالا على الملك أعيا الأطباء ، واستعصى عليهم ، فلم يجدوا علاجاً له . إلى أن تنبهت والدة الملك ، وخطر ببالها أن هذا المرض رُبَّما كان من دعاء الشيخ على الملك ، فنصحت لولدها أن يعتذر عند الشيخ ويطلق سراحه ، فاضطر إلى إرسال رسول إلى السجن ليقدم للشيخ عذر الملك ويخرجه من السجن ، فدعا الشيخ له وسأل من الله أن يشفيه ، فاستجاب الله دعاءه وشفي الملك ، وأمر بتقديم الهدايا إلى الشيخ ، وعمل التسهيلات لسفره إلى سرهند ، فرد رحمه الله الهدية ، وسافر إلى الزاوية النقشبندية في بلده سرهند .

ولما ذاع صيته في أقطار الهند والأفغان وما وراء النهر ، هرع إليه كثيرون من المشايخ وجَدَّدوا عنده العهد ، فكانت سرهند في ذلك العهد مجمعاً للعلماء العاملين ، وملجأ المسترشدين الصادقين .

لقب « بمجدّد الألف الثاني » لبشرى من رسول الله للعلامة الشيخ عبد الحكيم السيالكوتي ، أكبر علماء الهند آنذاك : أن أحمد مجدد لديني في الألف الثاني .

كان صوفياً يعطي العهد على سلوك طريق الشريعة الحقة ، ويلقي الدروس في العلوم الدينية ، ويحرض أتباعه على اتباع السنة المحمدية . فمن كلامه : اعلم أن الشريعة ثلاثة أجزاء :« العلم والعمل والإخلاص » .



ـ جاء في إجازة الطريق الغنيمّية للشيخ محمد الغنيمي التفتنازي (١٣١٠ ـ ١٣٥٤ هـ) ، ما نصه عن آداب المريد : « وبايعناه على أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وعلى العمل بما بين دفتي الكتاب القويم وسنة النبي الكريم ، وعدم اتباع المبتدعين ، وعدم اتخاذ طريق القوم وسيلة للرزق فإن الرزق من غير العمل شبهات[١] ... » .

ـ كما قاد الشيخ السادات شيخ السادة الوفائية ثورة القاهرة الأولى ضد نابليون في عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨ ، حيث كان رئيسا لمجلس الثورة ، وقاد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ثورة القاهرة الثانية في عام ١٢١٤هـ/١٨٠٠م .

ـ **عمر المختار** الصوفي المجاهد ، المرشد الأول لزوايا الطريقة السنوسية . لقد مثل الصوفية الإيجابية المستنيرة الراشدة ، الصوفية المجاهدة بالنفس والروح والمال والإيمان واللسان ، الصوفية الفدائية ، فبقي يكافح مع مريديه الاستعمار الإيطالي عشرات السنين ، وما في يد أحدهم إلا بليحات من التمر ، وجرعات من الماء ، الصوفية التي ظلت تزحف حتى احتلت قلوب المجاهدين بالجزائر أيضاً .

ـ فقد سجلت واحة الزعاطشة صفحة مجيده في تاريخ المقاومة الجزائرية خلال هذه الحقبة ، وتقع هذه الواحة على بعد عشرين كيلو متراً جنوب شرق بسكرة ، وكان يحكمها أحد رجال الطرق الصوفية ويدعى « بوزيّان »[٢]

ـ **عبد الكريم الخطابي** ، البطل الصوفي الزاهد المجاهد ، جمع :٢٠,٠٠٠ مجاهد ، ولو توفرت له الأسلحة لما بقي أجنبي في المغرب .

ـ ويحفظ الناس في أفغانستان أن الذي طرد الأنكليز من الأفغان بعد

(١) التراث الروحي ،ص ٢١٥ ، لمحمد عبد المنعم خفاجي .

(٢) المغرب العربي ، د .صلاح عقاد ، صفحة : ١٣٤ .(الناشر مكتبة الأنجلو مصرية) .

الحرب العظمى هو شيخ الطريقة النقشبندية . وحسبنا - أخيراً - وقوف الصوفية في وجه التتار ، فإسلام التتار كان على يد الدعاة الصوفية أمثال : الشيخ جمال الدين النقشبندي .

- وانتشار الإسلام في الصين وأرخبيل الملايو كان على يد الدعاة الصوفيين .

- أفريقية ، انتشر بها الإسلام على يد الطريقة القادرية والتيجانية[1] ومع كل ما سبق ...

إن كانت معاني الصوفية من القرآن والسنَّة ، كما أوضحنا ، فأهلا بها وسهلا ، لكن دون تسمية صوفي ، وصوفية ...بل مسلم مؤمن يسلك سبيل التربية الروحية . أو يسلك طريق مدرسة هدفها تقويم الأخلاق بتهذيب النفس ، وكبح جماحها . مع السعي والعمل .

أما مانراه من تشويه للتصوف ، فهذا دخيل عليه ، فليس التصوف فقط قد تشوه ، فكل شيء دخلت عليه دخائل شوهته ، فليس بطبيب كل من قال أنا طبيب ، كذلك ، ليس بصوفي كل من قال : إنه صوفي .

الصوفية أخلاق وسلوك ، فمن زاد عليك في الخُلُقُ والسلوك ، زاد عليك في التصوف .

والأخلاق المطلوبة ، التي هي غاية التصوف والتربية الروحية ، وصف بها الإمام الحافظُ أبو عبد الله محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي ، الإمامَ عبدَ القادر الجيلاني فقال : « كان مجاب الدعوة ، سريع الدمعة ، دائم الذكر ، كثير الفكر

(١) راجع كتاب « الدعوة إلى الإسلام » لتوماس . و .أرنولد ، لترى فضل الطرق هذه في نشر الإسلام في أفريقية ، والتتار ، وجنوب شرق آسية

رقيق القلب ، دائم البشر ، كريم النفس ، سخي اليد ، غزير العلم ، شريف الأخلاق ، طيب الأعراف ، مع قدم راسخ في العبادة والإجتهاد[1]

وقال مفتي العراق محي الدين أبو عبد الله محمد بن حامد البغدادي عن الشيخ عبد القادر الجيلاني :« كان أبعد الناس عن الفحش ، أقرب الناس إلى الحق ، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عز وجل ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لغير ربه[2] .

ومن الفهم السليم للصوفية الإيجابية : قول جلال الدين الرومي : « إن السنَّة الجارية ، والعادة الغالبة ، هي وجود المسبب من السبب ، حتى يعرف الطالب أهميه السعي والجهاد ، ويأتي البيوت من أبوابها ، ويطلب الأشياء من معدنها[3] » ،« إن الله وهب الإنسان الأعضاء والجوارح ، ومواهب وطاقات ، فدل ذلك على أنه يريد منه السعي والجهد[4] » .

وعرَّف جلال الدين الرومي رضي الله عنه الدنيا المذمومة بقوله : « إن السعي والكسب سنة الأنبياء والمرسلين ، وإن الدنيا لَيْست الذهب والفضة والأهل والأولاد ، كما يعتقد بعض غلاةِ الصوفية ، إن الدنيا المذمومة الغفلة عن الله ، أما قال الرسول ﷺ : « نِعْمَ المال الصالح للعبد الصالح »[5] .

وقال :« إن تعطل الصالحين مهَّد لسيادة الفساق والظالمين ، إن تعطل الصالحين وقعودهم عن الجهاد وتوكلهم العجمي[6] الذي لا يتفق وتعاليم الإسلام ، أفضى إلى سيادة الفساق والظالمين ، وحكومة السفهاء والجاهلين ،

(١) قلائد الجواهر ، ص :٠٩.

(٢) قلائد الجواهر ، ص/١٠

(٣) المثنوي ، ص/٤٢ .

(٤) المثنوي ،ص/٢٧ .

(٥) المثنوي ، ص/٣٨ .

(٦) القدرية : مذهب فكري نشأ يوما في العالم الإسلامي ، ومن مصادره ، مصدر فارسي .

الـذين سفكوا دمـاء الأبريـاء ، وقتلوا العلمـاء والصلحـاء ، وجـاروا في الحكم ، وخـانـوا في أمـوال النـاس ... وتسلـط في عهـدهم الحمقى ، وتـوارى الحكمـاء ، والعقلاء ، وَوُسِّد الأمر إلى غير أهله[1] .

فـأهـلا بصـوفيـة إيجـابيـة كلهـا : عمـل وسعي وجهـاد وأسبـاب وطـاقـات وأخلاق ، ومـال بـاليـد وزهـد بـالقلب ، وإيجـابيـات بكل متطلبات الحياة مع نور في القلب ، ومعرفة الله عز وجل .

ولا أهلاً ، ولا سهلاً ... بصوفية سلبيـة كلهـا تقوقع وانزواء ، وزهد بمعنى ترك الدنيا والإعراض عنها للسفهاء والكفرة .

أهلاً بصوفيـة إيجـابيـة تنطبق مـع الشرع الحكيم انطبـاق الكف على الكف .

ولا أهلاً ، ولا سهلاً ... بصوفية الشطحـات والبـدع والخرافـات وعدم مواكبة الحياة .

لقد ضـاع القرآن عنـد المتصوفـة السلبيين ، الـذين انحـازوا عن الشرع .

☆ ☆ ☆

وضاع القرآن عند أهل الفقه الـذين أصيبوا بترف فقهي . وَسَّعوا الجزئيات ، وتوسعوا ، وتوسعوا، مهتمين بخمسمائة آية فقـط تبحث في الأحكام ، وأقل من مـائتين وخمسين آيـة تبحث في شؤون التشريـع والفقـه « **وهي بـلا شك ضروريـة** » ، ولكنهم أغفلوا قرابـة ٤٠٠٠ آيـة تـدعوا إلى العمل والسعي والعقل والفكر ، واستنباط الحقائق العلمية .

---

(١) المثنوي ، ص/٣٣٥ .

أضاعوا القرآن لما صار الشافعي مذهباً ، لا يصلي وراء الحنفي مذهباً مع أن الفقهاء قالوا : إذا صح الحديث فهو مذهبي .

أضاعوا القرآن : لما تكلموا عن طهارة الجسد ، وأغفلوا كلياً طهارة الروح ، وما أهون طهارة الجسد ، فالماء كثير ، وما أصعب طهارة الروح ، فهي لا تطهر إلا بأنوار إلهية ، تبدد ظلمتها بسلوك طريق التزكية ، والتربية الروحية .

أضاعوا القرآن : لما تكلموا عن شرائط وجوب الصلاة وأركانها ...فتكلموا عن استقبال الجسد للقبلة ، وتغافلوا عن توجه القلب إلى الله ، فتوجه الجسدإلى الكعبة المشرفة أمر سهل ، ولكن الروح والقلب : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض .. » ولا تصح صلاة بدونها !

تكلموا عن أنواع المياه ، وما تكلموا عن الثروة القومية والحفاظ عليها . أما أمر النبي ﷺ صحابته بالإستفادة من جلد الميتة ، هذا يجب أن نفهمه للجيل إنه حفاظ على الثروة واقتصاد البلد ، فالإسلام دين حياة ، دين قوة وعقل وحكمة وزراعة وصناعة ، فالإسلام ليس دين ضمان الغائب وتضييع الحاضر ، إنه دين السماء وضياع الأرض ، لا ...إنه دين الواقعية ، دين حياة ودين آخرة معا ! وضياع الوقت ، كضياع جلد الميتة تماما ، فكله ضياع ، وآيات الحياة ، وآيات التشريع كجناحي طير ، إن لم ينموا معا فلن يستطيع الطيران .

□ مائة وخمسون آية فقه كرس الفقهاء جهودهم لها قروناً ، والآف الآيات الأخرى في الزراعة والسدود والفكر والسياسة والحياة والقلب والجهاد والمعاملات ، أين حظها من المؤلفات ؟!

أنا لا أقول لا ضرورة للفقـه ، حـاشـا لله عز وجل ، هو ضرورة ولكنـه مع عشرات الأمور الأخرى يشكلون الإسلام .

□ضاع القرآن : بيد عالم أو مسلم فهم الإسلام روحـانيـة وقلبـا فقط

□وضـاع القرآن : من يـد فقيـه أو مسلم فهم الإسـلام آيـات وتناسى آيات .

□وضاع القرآن : بيد الفئتين ، لما تركوا آيات الحياة والمعاملات والجهاد والتفكر ...

ولن يعود إلينا ، تطبيقاً سليماً ، ميزاناً دقيقـاً لحيـاتنـا ، إلا بكل مـا سبق مجتمعا .

وكل من يقلص دائرة الإسـلام في بعض الأحكام ويتغـافـل عن القسم الأعظم الباقي ، فهو لم يقرأ قولـه عز وجل : ﴿ **مـا فَرَّطنـا في الكتـاب من شيء**[1] ﴾

- وليس أهل الفقه ، هم الذين أخطؤوا فقط .
- وليس أهل التصوف هم الذين اشتطُّوا فقط .
- وأهل التفسير .. الذين فسروا بالإسرائيليات ..أخطؤوا أيضاً .

ارجع إلى : « لباب التأويل في معاني التأويل » للخـازن ، الجزء الرابع ، صفحـة ٢٩٣ ، طبعـة ١٣٢٨هـ . وإلى : « التفسير الكبير » لـلإمـام الفخر الرازي ، الجزء ٢٩ ، صفحة ٧٧ ، الطبعة الأولى . وإلى : تفسير روح البيـان ،

---

(١) سورة الأنعام ، الآية الكريمة : ٣٨ .

طبعة ١٩٢٨ ، الجزء ١٠ ، صفحة ١٠٠ ، وإلى : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، الجزء ٢٩ ، صفحة ١٤ ، الطبعة ٢(١٣٧٣ ـ ١٩٥٤) ...

ارجع إلى هذه التفاسير واقرأ ـ كمثال ـ تفسير « ن » !! وإليك التفسير برواية الخازن : (« ن » قال ابن عباس هو الحوت الذي على ظهره الأرض ، وعنه أن أول ما خلق الله القلم ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم خلق النون ، فبسط الأرض على ظهره ، فتحرك النون ، فمادت الأرض ، فأثبتت بالجبال ،فإن الجبال لتفخر على الأرض ،ثم قرأ « ن ، والقلم وما يسطرون » . قيل اسم النون « بهموت » ، وقيل « ليوثا » ، وقيل « لوثيا » ، وعن عَليٍّ « بهلوب » .

قال أصحاب السير والآخبار : لما خلق الله الأرض وخلقها سبع أرضين ، بعث من تحت العرش ملكاً ، فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع ، وضبطها ، فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله تعالى من الفردوس ثوراً له أربعون ألف قرن ، وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدم الملك على سنامه ، فلم تستقر قدمه ، فأخذ الله ياقوتة خضراء ، من أعلى درجة الفردوس ، غلظها مسيرة خمسمائة سنة فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه ، فاستقر عليها قدماالملك ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ، ومنخاره في البحر ، فهو يتنفس كل يوم نَفَساً ، فإذا تنفَّس مدَّ البحر ، وإذا ردَّ نَفَسَهُ جَزَرَ البحر ، فلم يكن لقوائم الثور قرار ، فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سماوات ، وسبع أرضين ، فاستقرت قوائم الثور عليها ، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه : فلتكن في صخرة ، فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى « نوناً » ، وهو الحوت العظيم ، فوضع الصخرة على ظهره ،

وسائر جسده خال ، والحوت على البحر ، والبحر على متن الريح ، والريح على القدرة .

قيل فكل الدنيا بما عليها حرفان ، قال لها الجبار سبحانه وتعالى وتنزه وتقدس : كوني فكانت ، قال كعب الأحبار[1] : إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض ، فوسوس إليه ، فقال له : أتدري ما على ظهرك يا« ليوثا »من الأمم والدواب والشجر والجبال ؟ لو نفضتهم لألقيتهم عن ظهرك . فَهَمَّ « ليوثا » أن يفعل ذلك ، فبعث له دابة ، فدخلت منخره ، فوصلت إلى دماغه فضجَّ الحوت إلى الله منها ، فأذن لها ، فخرجت . قال كعب الأحبار : فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه ، إن هَمَّ بشيء من ذلك عادت كما كانت . وعن ابن عباس أيضاً : أن النون هو الدواة ...) . إلى آخر التفسير .

□ هذه الروايات الإسرائيليات وأضرابها ، على عاتق مَنْ يقع تنقيحها من التفاسير ، فهذه تضر الجيل ، بل وتبعده عن الدين ، بسبب هذه الخرافات التي بثها كعب الأحبار ووهب بن منبه . خصوصاً بعد إطلاق الأقمار الصناعية ، وتصوير الأرض ، فأين الحوت ؟ وأين الياقوتة ؟ وأين الثور ؟ ...هذه الإسرائيليات جمعت في إحدى الدول ، وتدرس للنشىء على أنها إسلام ، والعلم اليقين يناقضها ، والنتيجة الطبيعية التي وصلوا إليها ترك الناشئة الإسلام لأنه ينافي العلم !!!

فإسرائيليات التفاسير ، وأخطاء الفقهاء وترفهم الفقهي ، وشطحات التصوف ... مَنْ لها ؟! مَنْ لها غيركم ياسادتي العلماء العاملين !!

---

(١) راجع كتاب : (الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير) للدكتور رمزي نعناعة ، نشر دار القلم بدمشق ، ودار الضياء ببيروت ، ١٩٧٠/١٣٩٠ . لتتعرف على دور كعب الأحبار ووهب بن منبه في دس الإسرائيليات في عقائد المسلمين !.

القرآن المضيَّع ومشكلاتنا المعاصِرَة

□«وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ، ولا تنسَ نصيبَكَ من الدنيا ، وأحسن كما أحسنَ اللهُ إليك » .

(القصص /٧٧)

□ بمناسبة قرار الأمم المتحدة ، المتَّخذ في دورتها عام ١٩٦٩ ، على أن يكون عام ١٩٧١ ، عام التضامن مع الشعوب المناضلة ضد العنصرية . صدرت الصحف والمجلات تبحث وتوضح في مقالاتٍ مطوَّلة : العنصرية ، والتمييز العنصري ، بسبب اللون أو الجنس أو الدين . وكمثال : صدر العدد الرابع والسبعون عام ١٩٧١ من مجلة الفكر المعاصر ، عدداً خاصاً عن العنصرية ، ودور الأمم عبر التاريخ في محاربتها ، والقضاء عليها . قرأت العدد المذكور من الغلاف إلى الغلاف ، وصُدمت عندما تغافل العدد عن دورِ الإسلام في تحرير العبيد ، ومحاربته للعنصرية في كل أشكالها . وهذا طبعاً من منطلق :« البحث العلمي الموضوعي ! » .

تغافل العدد ، بل تغافل كُتَّابُهُ ، عن صنيع رسالة الإسلام ، ودستورها القرآن الكريم ، وسنة رسول الله في هذا الأمر . تغافل عن صنيع الإسلام بهذا الشأن ، الذي أوجبه قبل أربعة عشر قرناً ، وهو غاية ما تستطيع دول الحضارة اليوم فعله في انصاف أسراها وأسرى أعدائها . بل تناسى العصر ، حضارة الإسلام ، وصوت القرآن ، الذي ظل يزمجر حتى استجاب العالم له بعد

عدة قرون من تشريعه الحكيم ، فزوال الرق هو أحد الهدايا التي قدمها الإسلام للإنسانية لو تعلمون !

فليتنا نرى في كل بلد إسلامي ، تَصَدِّي علمائنا الأحبة للمسائل المعاصرة ، كل مسألة في حينها ، لإظهار دور الإسلام في المجتمع ، ورأيه ، وسبقه أو صلاحيته إلى حل المسائل والمشكلات المعاصرة ، ورأيه القويم بشأن هذه المشكلات . لتبقى تعاليه في حياتنا ، ويرى شبابنا فضله . وروعته في تصديه لمثل هذه الأمور .

من هذه الأمور الواجب التصدي لها ، الأمور والمسائل والمشكلات التالية[1] :

- العنصرية ، والتمييز العنصري .
- يوم الصحة العالمي .
- الدعوة إلى الإنسانية أو الأمميَّة ، أو العالمية [2]
- عيد الأم في ٢١ آذار ، والإسلام جعل في المجتمع : « عيد الإسرة الدائم » .
- الطفرة الإباحية الجنسية ، وحلول الإسلام السليمة لها .
- يوم الطفل العالمي في :٦/١ من كل عام .
- يوم الشجرة ، وعناية الإسلام بها ولو قامت القيامة .
- الرفق بالحيوان : « الثروة الحيوانية » .

---

(١) وضعت مخططألكتاب يحمل اسم « الإسلام والمشكلات المعاصرة » منذ الشهر الخامس عام ١٩٧١ ، حال دون صدوره الخدمة الإلزامية ، وضياع ما كتبت عنه في حينها ، أتذكر منها المشكلات والمسائل المذكورة أعلاه .

(٢) ورأي الإسلام : عالمية مع دين وإيمان ، خير من أممية وعالمية بضمير ، لأن الإيمان واحد ومحدد لا شطط فيه ، بينما الضمير : لا مقياس له ، وليس محدداً أو متعارفاً على معناه بشكل دقيق .

ـ الشباب ، عماد الأمة ، ويوم الشباب العربي في الخامس من الشهر السابع كل عام .

ـ السلم العالمي ، ونقض المعاهدات .

ـ الفراغ الروحي وكثرة حوادث الانتحار[1] .

ـ محو الامية ... وأن ألف باء الاسلام العلم والقراءة والكتابة والتحرر من الجهل ...

□ هذه أمور استطعت أن أضعها بعد حصرها كمثال لأمورٍ تمر علينا في كل عام . ويجب إظهار رأي الاسلام فيها فهل نفعل ؟ ! والثمرة بذلك واضحة : عدم ضياع القرآن والاسلام والسنة الشريفة ، عن المشكلات التي تواجه الشباب المسلم في هذا العصر ، فيستطيع أن يقول في هذا العالم المزدحم في الافكار والحلول ، هذا هو رأي ديني وشريعتي ، فيناقش به ، ويثبت وجوده .

□ سألني طالب مهذب بتردد ولطف : في هذا العصر ، ومنذ الثورة الصناعية وقيامها في أوروبة ، أخذ العالَمُ يُعطي العاملَ أهميةً خاصة ، وكذلك العَمَل . فبرزَ العامل في المجتمع ، وصار له عيدٌ ، في أول أيار من كل عام ، يحتفلُ العالم به ، دليلا على تكريمه والعناية به ، وشكرا لجهوده وانتاجه ...

فهل للإسلام رأي بهذا الصدد ؟ هل كَرَّمَ العمل والعمال ؟ اين موقفه في القرن العشرين من العمل والعمال ؟

ـ هذا الشاب وأمثاله كثير ، وكثير جدا ، يحبون الاسلام ، ولكنهم

---

(١) « في انتظار غودوت » مسرحية لصموئيل بيكيت ، نال مؤلفها جائزة نوبل ، لانها مثلت الضياع والفراغ الروحي في أوروبة بعد الحرب العالمية الثانية .

يريدون حلوله بوضوح ليروه متمثلا في معترك حياتهم ، يريدونه حيّاً بحلوله في كل مشكلة تُعرض .

فقلت لهذا الشاب : أنطلق معك من كتاب الله ، ومن الآية الكريمة ﴿ وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملكُمْ ورسولُهُ والمؤمنون ﴾ (التوبة/١٠٥) . فالاسلام أمر بالعمل وما أمر بالكسل والبطالة . وفيه تكريم للعمل ، وسُمِّيَ الولاةُ الذين في أمصارِ العالم الاسلامي بلفظة « **عامل** » ، ورأى بعضُ المفسرين بأن يمتدَ لفظُ « عامل » ، حتى يشملَ الخليفة ذاتَه ، وهو رأسُ الدولةِ الاسلامية .

دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بنِ أبي سفيان ، وكان خليفةَ المسلمين ، فحيَّاه بقوله : السلام عليكَ أيها الاجير ... فقال بعضُ الجالسين لابي مسلم الخولاني : قل : السلام عليكَ أيها الامير . فقال : السلامُ عليكَ أيها الاجير ، فقالوا : قل : أيها الامير ... وهنا تدخل معاويةُ قائلا : دعوا أبا مسلم ، فإنه أعلمُ بما يقول . فقال أبو مسلم : إنما أنتَ أجيرٌ ، استأجركَ ربُّكَ لرعاية الأُمة .

لقد شملت دعوة القرآن جميعَ مرافق الحياة ، فأولت العمل والعمال حقهما . وكانت هذه الدعوة القائمة على أُسُسِ الايمان ، تقيمُ قواعدَ التوازن بين الحق والواجب ، وقَدَّمَ الاسلامُ أروع الامثال ، عندما شرف العملَ والعمال ، حين وضح أن عددا من الانبياء والمرسلين ، كانوا من العاملين . فنبيُّ الله داود كان حدادا يصنع الدروع ويأكل من عمل يده . وكان ادريس خياطا ، وزكريا نجارا ، وموسى أجيرا يرعى الغنم ، ونبينا ﷺ ، كان يرعى الغنمَ على قراريط لأهل مكة . ثم كان تاجرا يعملُ بأموالِ السيدة خديجة .

ولقد فهم الصحابةُ مراد الله ، من ذكر هؤلاء الانبياء ومهنِهم ، وفهموا

مراد رسوله الكريم حينما قال : **مَنْ . أمسى كالاً من عملِ يده ، أمسى مغفوراً له ... فَعَمِلُوا جميعاً :**

□ الزبير بن العوام ـ فارس رسول الله ـ كان خياطا .

□ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، كان يسقي بالّدِلاء على تمرات .

□ سعد بن أبي وقاص ـ قائد القادسية ـ كان يبري النَّبل .

□ عمرو بن العاص ـ فاتح مصر ـ كان جزارا .

□ قتيبة بن مسلم الباهلي ـ فاتح ماوراء النهر ـ كان جَمَّالا .

□ المهلب بن أبي صفرة ، كان فلاحا .

□ الصدِّيق رضي الله عنه ، كان تاجر قماش ...

كيف لا يعمل الصحابة ، وقد سمعوا قول حبيبهم الاعظم ﷺ : « ماأكلَ أَحَدٌ طعاما قط ، خيرا مِنْ أَنْ يأكلَ من عمل يده ، وانَّ نبيَ اللهِ داود ، كان يأكلُ من عملِ يده ؟ »

ورُوي عن النبي الكريم : أنه لما رجع من غزوة تبوك ، استقبله أحد الصحابة ، فقال النبيُّ له : « ماهذا الذي أرى بيدك ؟ » . فقال الصحابي : من أثر المِرّ والمساحاه ، أضربُ وأَعملُ وأنفقُ على عيالي ... فما أروع تقدير النبي لهذه اليد العاملة عندما قَبَّلها كما في إحدى الروايات وقال : « **هذه يدٌ لاتمسُّها النار »**[1].

ولقد ركز الاسلام في دستوره العظيم ، مفهوم الاجر ، بأسلوبٍ يسمو عن مجرد النظر المادي ، الى ربطه بالعقيدة والايمان ، فجعل الاجر أجرين : أجرا

(١) رواه أنس ، راجع أسد الغابة في معرفة الصحابة ، جـ :٢ ، ص :٢٦٩ .

في الآخرة ، عن العملِ الصالح ، الذي قام به الانسـان بشكل متقن حيث قـال ﷺ : « **ان الله يحبُ اذا عملَ أحدُكُم عملا أن يتقنه** » . هذا بـالاضـافـة الى الاجر المـادي ، الـذي يُحـدَّدُ بمقتضى العقـود والاتفـاقـات التي تجري بين الناس . حيث ينتفع المستأجِرُ بالعمل ، ويتقاضى العامل أجره دون مماطلةٍ أو غش أو خداع ، وهذا الاجْر المادي ، يخضعُ في الاسلام ، لقواعد عـامـة ، تضمن حقَّ العامل حيث يقول عز وجل : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾[1] .

ويقـول جـلَّ شـأنـه : ﴿ يـاأيهـا الـذين آمنـوا لا تـأكلـوا أمـوالكم بينكم بالباطل[2] ﴾ .

ويقـول سبحـانــه أيضـاً : ﴿ إن الله يـأمركم أن تـؤدوا الأمـانـات إلى أهلهـا[3] ﴾ . ويـوصي النبي الكريم ، بـالمبـادرة الى صرف الاجـور فـور انتهـاء العـامل من عملـه ، فيقـول : « أعطـوا الاجير أجره قبـل أن يجف عرقـه[4] » . ونهى عن خصم الاجـور ، تطبيقـا لـلآيـة الكريـمـة : ﴿ ولا تَبْخَسُوا النـاسَ أشْيَاءهُم[5] ﴾ .

فقال ﷺ : « **ثلاثةٌ أنا خصمهم يوم القيامـة ، ومن كنت خصمـه خصمتـه ، رجـل أعطى بي ثم غـدر ، ورجـل بـاع حرا فـأكل ثمنـه ، ورجلٌ استـأجر أجيرا ، فاستوفى منه ولم يعطه أجره[6]** » .

وكما حض الاسـلام على العمـل وقـدَّسـهُ ، وطلب من كل مسلم أن يكـون عضـواً عـامـلا ومنتجـاً في المجمـوعـة الاسلاميـة : ﴿ وأن ليس لـلانسـان إلا

---

(١) سورة المائدة ، الآية الكريمة : ١ .

(٢) سورة النساء ، الآية الكريمة : ٢٩ .

(٣) سورة النساء ، الآية الكريمة : ٥٨ .

(٤) رواه ابن ماجه باسناد جيد عن ابن عمر .

(٥) سورة الأعراف ، الآية الكريمة : ٨٤ .

(٦) رواه البخاري وابن ماجه ، باب النهي عن أكل مال الاجير .

ماسعى ﴾ ، وطلب منه طلب الرزق الحلال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون[1] ﴾ . وامر المسلم ألا يقضي ساعات من حياته دون مردود وانتاج : ﴿ فاذا فرغت فانصب[2] ﴾ . فالعمل والعبادة مفهومان متلازمان في شريعة القرآن والاسلام .

حض الاسلام على ماسبق ، وحارب البطالة بقوله ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتي بحزمة من حطب ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . ولقد دخل النبي ﷺ المسجد ، فوجد أبا أمامة جالساً في غير وقت الصلاة ، فسأله فوراً ، عن سبب جلوسه ، فقال أبو أمامة : ديون لزمتني ، وهموم لحقتني ، فأفهمه النبي الكريم أن الجلوس في المسجد ، والركون الى الكسل ، ليسا وسيلة لقضاء الدين ، وتفريج الهم ، وأمره بالعمل والسعي .

وكان عمر رضي الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقني ، فان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

قلت للشاب الأديب : مما سبق - وقد كتبه كله - يتضح لنا مدى اهتمام الاسلام بالعمل والعامل ، وتقديره للعامل ، فيد العامل يد يحبها الله ورسوله ، كما تتضح محاربته للبطالة والتبطل ، حتى قال نبي الاسلام ﷺ : « من بات كالاً من عمل يده ، بات مغفوراً له » .

وقلت له : واذا كان العالم اليوم قد وعى وتنبه ، فأظهر اهتمامه بالعامل ، وقام يحتفل به ، فقد سبق الاسلام العالم بذلك : قدّره ، أظهر شأنه ، ودفعه الى التقدم باجلال العقيدة لانتاجه ، حيث جعل الدين له أجراً وثواباً فيما

---

(١) سورة الجمعة ، الآية الكريمة : ١٠ .

(٢) سورة الشرح ، الآية الكريمة : ٧ .

ينتج ، وما يقدم ، فقال ﷺ : « ما من مسلم يزرع زرعاً ، أو يغرس غرساً ، فيأكل منه انسان ، أو بهيمة أو طير إلا كان له به صدقة[1] » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من بنى بنياناً من غير ظلم ولا اعتداء ، أو غرس غرساً في غير ظلم ولا اعتداء ، كان له أجر جار ، ما انتفع به خلق الله[2] » .

وبهذا كان الاسلام دين الحياة ، ولم يزل ، وأوجد الانسان المتوازي الابعاد بين المادة والروح :

﴿ وابتغ فيما آتاك اللهُ الدار الآخرة ، ولا تنْسَ نصيبكَ من الدنيا ، وأحسن كما أحسنَ اللهُ إليك[3] ﴾ .

☆ ☆ ☆

سُرَّ الطالب النجيب بما أوضحت ، ثم شكرني وتساءل :

ـ لماذا لا تطبع كراسات توضح رأي الاسلام بما يجول في المجتمع والفكر البشري المعاصر ؟ تبيِّنُ حلوله وخطته في كل أمر يُطرح ، لنجد الاسلام والقرآن في حياتنا ملجأ ، يلازم أفكارنا ، ان سئلنا أجبنا عن علم ؟!! بل نحن الذين نعرض رأيه بمشكلات العالم المعاصرة ، لنثبت جدارته بطريقة حلِّها !!

ـ قلت : هذا أمر مفروض علينا . وإنه لجهاد ...

فما أوجبه من عمل جهادي ، يحمل به كل عالم جانباً ، فيُحفظ بذلك دينُنا من الضياع من النفوس !!

---

(١) رواه الشيخان والترمذي .

(٢) رواه الإمام أحمد ، جـ :٣ ، ص :٤٣٨ .

(٣) سورة القصص ، الآية الكريمة : ٧٧ .

وبالتجديد

نصون القرآن من الضياع

قال ﷺ :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، من يُجَدِّدُ لها دينها »[1] .

□ اجتاح التتار ديار الاسلام كلها ، في القرن السابع الهجري ، واثخنوه جراحاً وقتلا ، ولم يتركوا فيه إلا روحاً ضعيفة ، ونفساً خافتاً ، وفلَّ سيف الجهاد والمقاومة ، فأصبح لا يؤثر ولا يعمل ، وأغمده المسلمون يأساً وقنوطاً ، وآمن الناس بأن التتار لا يمكن اخضاعهم ، وأن العالم الاسلامي قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج ، وان الاسلام لا مستقبل له ، حينذاك قام الدعاة المخلصون ، يجددون للدين هيبته في النفوس ، وللاسلام عزته على الارض ، هؤلاء الذين لا يزال تاريخ الدعوة والتجديد والاصلاح - على احصائه واستقصائه - يجهل أسماء كثيرين منهم ، يتسربون في هؤلاء الغلاظ الجفاة الشداد ، يفتحون قلوبهم للاسلام ، حتى افتتحت له وأحبته ، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً ، ولم يمض على زحفهم على العالم الاسلامي واذلالهم

---

(١) اتفق البخاري ومسلم على الاحتجاج به . قال السيوطي في - مرقاة الصعود - اتفق الحفاظ على تصحيحه ، منهم الحاكم في « المستدرك » ، والبيهقي في - المدخل - . وممن نص على صحته من المتأخرين الحافظ ابن حجر ، وقال العلقمي في شرح الجامع : قال شيخنا : اتفق الحفاظ على انه حديث صحيح ، وقال المناوي في فتح القدير : أخرجه أبو داود في الملاحم ، والحاكم في الفتن ، والبيهقي في كتاب المعرفة عن أبي هريرة ، قال الزين العراقي وغيره : سنده صحيح ...

له كثير زمـان ، حتى اسلم جُلُّهم أو كُلُهم ، وصـاروا من حمـاة الاسلام ، وحملة رايته ، وكان منهم فقهاء ، وزهاد ، ومجاهدون .

وهكـذا ، أخضـع هـؤلاء العلمـاء العـاملـون لـلإسـلام ، مَنْ أخضـع العـالم الاسلامي بـالامس ، من شرقـه الى غربـه ، وأدخلـوا أمـة قهرت الأمم كلهـا في عصرهـا ، في دين لا يحميـه سيف ، ولا يـدافـع عنـه جيش . فـأثبت الاسـلام بذلك وفي وقت داست فيه سنابك خيل التتار أطراف العالم ، انه دين لا يزال يملـك أكبر نفـوذ ، ويتمتـع بـأغرب مـوهبـة في جـذب النفـوس اليـه ، وكسب الانصار والاصـدقـاء . لقـد أوجـد من أعـدائـه من يحميـه في ظروف دقيقـة ، ولحظات عصيبة في تاريخه[1] .

ويرجع الفضل الى العلماء الدعاة ، الذين مـا فتئوا يحملون رايـة القرآن ، حتى في أحلك الايـام . ونرى المثـال البـارز لهـذه الحقيقـة الشيخ نصير الـدين الطوسي رحمه الله ، فانه لما علم أن المغول يريـدون القضـاء على الاسلام[2]، رأى من الـواجب الاسـلامي عليـه ، أن ينخرط في سلـك الحكـومـة ، ويمـاشي في الظاهر السلطة المغولية ، **بغيـة الاحتفـاظ بمـا يقـدر منـه على الاسلام** ، وقد وضع خطـة من أدهش الخطـط لهـذه الغـايـة النبيلـة ، فقـد قـال للملـك الغـازي ، ان معرفـة مستقبل الامور منوطـة بـالنجوم ، وعرفـانهـا ، فـاذا كان الملك يرغب في معرفة المستقبل ، ليضمن لنفسه النصر ولأعـدائـه الهزيمـة ، فمن اللازم عليه أن يسمح لنـا في اعـداد العـدة لـذلـك ، وقَبِل الملـك الاقتراح بكل لهفة ، واستفسر الشيخ عن العدة التي يحتاج اليها علم النجوم ؟ .

---

(١) بتصرف عن رجال الفكر والدعوة في الاسلام ، ص٢٨٣ .

(٢) فهنالك تحالف صليبي مغولي ، للاطباق على ديار الاسلام من الغرب ومن الشرق ، مفاوضات وارسـاليـات وبعثات بين البابا وهولاكو وخلفاؤه ، يمكن الرجوع اليها في كتاب « المدخل الى تـاريخ الحضـارة » للـدكتور جورج حداد ص٢١٣ وما بعدها ، الكتاب طباعة الجامعة السورية عام ١٩٥٨م .

فقال الشيخ نصير الدين الطوسي : ان العدة هي « المال » و « العلماء » و « الكتب » . فمن اللازم أن تجعلوا اختيار الاوقاف في يدي ، لكي أوفر المال اللازم ، وكذلك تهبوني « العلماء » ، حتى أستعين بهم في هذه المهمة ، أما « الكتب » فهي متوفرة في البلاد ، وجنود جيشكم يحرقونها ويفنونها ، فمن اللازم الايعاز اليهم بجعل الاختيار في أيدينا ، لانتقاء ما نريد منها لهذه المهمة .

ونفَّذ الملك أمر الشيخ ، وبذلك تمكن من الحفاظ على « علماء المسلمين » ، الذين كادوا أن يكونوا لولا تدبير الشيخ ، طعمة لسيوف المغول . وعلى « الكتب » التي كانت لولا تدبيره طعمة للحرائق والفناء ، وعلى « الأوقاف » التي لولا تدبيره ، لكانت لقمة سائغة في أفواه الملك وحاشيته .

ولكن مع كل أسف ، شق على المتعصبين ، غير الحكماء ، ذلك ، فشنوا عليه هجوماً لاهوادة فيه ، لماذا ؟ .. إنه تعاون مع المغول ، وأنه طائفي ، فهو لم يفرق بين السنة والشيعة[1] ، وهؤلاء ممن عجز عن البناء ، فانشغل بالهدم ...

□ وما أشبه اليوم بالبارحة !

اليوم انبرت سنابك الخيل ، انبرت ، وهوت السيوف الرعف ، وما عادت المواجهة علنية في معظم الظروف ، فالاستعمار الحديث يضغط على الثقافة الاسلامية ، وعلى المظاهر الاسلامية بين الشعوب الاسلامية ، بدعوى أن التشدد فيها نكسة ورجعية ، وأن التزام مجاراتها يبعد الانسان الحديث عن أن يعيش في الحياة الحديثة ، وقد ربط الاستعمار في التدليل على ذلك : بين حال

---

(١) كيف انتشر الاسلام ؟ لمحمد المهدي الحسيني الشيرازي ، طبع هيئة شباب التبليغ ، كربلاء ـ العراق .

المسلمين اذ ذاك ، وهي حال متأخرة هزيلة ، وبين ما سماه التمسك بـالاسلام . أي أن الحال المتأخرة التي يحياها المسلمون ، هي نتيجة التمسك بالاسلام[1].

ترى أيُّ إسلام يتمسك به المسلمون أصحاب هذه الحال ؟!

ـ أهو إسلام القرآن ... أم اسلام البدع ، أم إسلام التعصب والتمذهب ؟!

□ فهـا هو العـالم الحـاضر ، مملوء بـالآراء الجـديـدة المتصـادمـة والتيـارات الثقافية المتعارضة ، ولن يستطيع الاسلام أن يظل شكلا أجوف ، وآن لـه أن ينقضي نومه السحري الذي دام أجيالا ، فيجب أن ينهض أو ... ؟! ولا سبيل للاسلام اليوم الى التجديـد مع مراعـاة جـانب الشريعـة . لا سبيل للاسلام إلا حقيقته ، كما هي في الكتـاب والسنـة . ان العمل بسنـة رسول الله يعني العمل على حفظ كيان الاسلام وتقدمه ، لقد كانت السنة الهيكل الحديدي الذي عليه صرح الاسلام ، أفيدهشنا اليوم تقوض البناء بعد ازالة هيكله ؟!

ليس الاسلام سبيلا بين السبل ، ولكنه السبيل .

وليس محمد هاديـاً من الهـداة ، ولكنـه الهـادي[2]. ولكن أين المجـدِّد ؟ فما زالت في الاسلام قوته ، وفي السنة ما يناسب زماننا .

إننا بحاجة الى رجال حكماء بمستوى أرقى بكثير ممـا يُتَخيَّل لنـا ، ينفخون في الأمـة روحـاً جـديـدة ، ويخلقـون في أتبـاع دينهم ايمـانـاً جـديـداً ، وثقـة جديدة ، ويلهبون نفوسهم بحماسة دينية جديدة . ويحفظون على الاسلام جدته وشبابه ، ويقضون على الفتن والبدع والتحريفات وغلو الغالين ...

إننا بحاجة الى مجددين تمكنت تعـاليم الاسلام في نفوسهم ، فعرفوا الله حق

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث ، د . محمد البهي ، الناشر : مكتبة وهبة ، ط٤ . صفحة٩٧ ، بتصرف .

(٢) الاسلام على مفترق الطرق ، صفحة١٠٨

معرفتـه ، وقرؤوا الكتـاب فهماً وتطبيقـاً ودعـوة ، والسنـة فهماً وتطبيقـاً « واجتهاداً » . درسوا مسـائل القيـاس ومـا ينـاسب العصر ، مع نور مشرق في القلب النقي ، يهدي الى الحق مهما تكاثفت الظلمات .

والمجدد لا يبتدع جديدا ، ولا يبتكر تكملة ، أو يأتي بوحي من عنده ، انما تجديد الدين يراد به تجديد النفوس الاسلامية ، وتبديـد الترهات والجهـالات التي تكون قـد تراكمت في القلوب والعقول ، فهو يجدد الايمان في القلوب ، ذلك الايـمان الصـافي المتجـه الى الله ، الـذي يعرفه المخلصون .

إنه يعيد الى الاسلام شبـابـه في القلوب ، ومحبتـه في العقول ، ومكانتـه في الأرواح ، عندما يعرضه بأسلوب جديد ، وطريقة جديـدة ، يراهـا انهـا تلائم عصره ، وتناسب عقول الجيل .

فالتجديد ، تجديد في مجال الاسلام ونطاقه ، فهو محاولـة لرد اعتبـار للقيم الدينية ، ورفع ما أثير حولها من شبـه وشكوك ، قُصـد منهـا استخفـاف هـذه القيم في نفوس المسلمين . إنه عودة الى السير على مبادئ الشريعة ، فيعيد القرآن الى واقع عملي بعد ضياع عن ساحـة الواقع والمعـاملات ، فيقف المسلم دون تردد عند تعاليمه مطبقاً متبعاً .

التجـديـد : تفكير ومنهـج ، يقـوم على النقـد والبنـاء ، ولكن بلبنـات إسلامية الحقيقة والصيغة .

□ وكمثال نكتفي باثنين : الشيخ محمـد عبـده ، والـدكتور الفيلسوف محمـد اقبال[1].

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث . صفحة ٣٩٥ وما بعدها بتصرف .

لقد اضطر كلاهما الى أن يكشف عن قيمة الاسلام ليدفع المؤمنين بـه ، الى الحياة والعمل فيها وقيمتـه في نظرتـه وتصوره للحيـاة الانسـانيـة ، في مواجهـة الصليبية الغربية وأهدافها تارة ، أو في مواجهة الفكرة الماديـة الالحـاديـة تـارة أخرى .

محمد عبده ، ومحمد اقبال : كلاهما قام بمحاولـة تجـديـد واصلاح في المفـاهيم الاسلامية الموجودة في أذهان المسلمين ، وقصد كل منهما ، بيان القيمـة الايجـابيـة البناءة في الاسلام .

وان كنت قـد تحـدثت عن الشيـخ محمـد عبـده عنـد الحـديث عن استـاذه الافغاني ، فسأفرد الحديث الآن عن محمد اقبال[1] وصور تجديده ، قال عن واقع المسلمين :

« إن المسلم القوي الـذي نشَّأتـه الصحراء ، وأحكمتـه ريـاحهـا الهـوجـاء ، أضعفته ريـاح « العجم » ، فصـار فيهـا كالنـاي نحولا ونواحـاً ! ! والـذي كان تكبيره يذيب الأحجـار ، انقلب وجِلا من صفير الأطيـار ، والـذي هزأ عزمـه بشم الجبال ، غل يديه ورجليه بأوهام الاتكال ، والـذي كان ضربـه في رقـاب الأعداء ، صـار يضرب صـدره في الأواه ! ! والـذي نقشت قـدمـه على الأرض

---

(١) ولد محمد اقبال في سيالكوت بالبنجاب عام ١٨٧٣ ، ونزحت أسرته بعدها الى كشمير ، فـدخل مكتبـا ليتعلم القرآن ، حصل على شهادة الكلية الاسكتلندية بدرجة ممتازة ، فالتحق بكلية الحكومـة بلاهور حيث أتم دراستـه ، ومن هذه الكلية حصل على درجتين علميتين كبيرتين ، درس التاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية بلاهور ، ثم درس الفلسفـة واللغة الانجليزية بكليـة الحكومـة التي تخرج منهـا . وفي عـام ١٩٠٥ التحق بجـامعـة كمبردج في انكلترا ، ثم بهيـدلبرج في ألمانيا ، ثم بميونيخ حيث حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٠٨ ، وعاد الى وطنه بعـد أن حصل على درجـة في القانون أيضا .

كان رئيسا لحزب مسلمي الهند ، ورئيسـا لجمعيـة حمـايـة السلام ، توفي في ٢١ نيسـان ١٩٣٨ ، ودفن في لاهور . هو أول من نـادى بضرورة انفصـال المسلمين عن الهنـدوس ، وبوجوب تكـوين دولـة خـاصـة بهم يستطيعـون فيهـا أن يظهروا روعة الاسلام ، وتم ذلك لمسلمي الهند في آب عام ١٩٤٧ .

ثورة ، كُسِرت رجلاه عكوفاً في الخلوة ! ! والذي كان يمضي على الدهر حكمه ، ويقف الملوك على بابه ، رضي من السعي والقنوع ، ولذلة الاستجداء والخشوع[1] » .

فهو يريد ... أن يحرص الإنسان المسلم على القوة والعمل ، يريد أن يدفعه دفعاً ، ولكن من ذاته لا من خارج ذاته ، إنه يعشق القوة ، ويعشق العمل ، إنه يتوق إلى أن يرى المسلم قوياً عاملا غير مستذل وغير متواكل ، مع أنه صوفي ، لكنه ما فهم من الصوفية إلا تنوير القلب بالله ، والسعي في الدنيا لنيل العزة والكرامة ، نيل الدنيا بقوة وعزيمة ، والسعي بالحياة بكل مجالاتها ، يريد المؤمن قوياً عزيزاً ، تنبع عزيمته من ذاته ، فالقطرة حين تقوي ذاتها تصير دُرة ، والجبل إذا غفل عن ذاته ، انقلب سهلا ، وطغى عليه البحر .

محمد إقبال صوفي يقول : « لا تبغ رزقك من نعمة غيرك ، ولا تستجد ماء ولو من عين الشمس ، واستعن بالله ، وجاهد الأيام ، ولا ترق ماء وجه الملة البيضاء . طوبى لمن يحتمل الضر من الحرور والظمأ ، ولا يسأل الخضر كأساً من ماء الحياة[2] » .

☆ ☆ ☆

□ المجدد والمجتهد : يعرف المجتمع الذي يعيش فيه ، كما يعرف المجتمع المعاصر ، وما يسيطر عليه من اتجاهات مذهبية انسانية عديدة ، كما يشعر في نفسه بحرارة الإيمان برسالة الإسلام ، بعد أن وضحت له جوانبها وقيمتها ، إثر

---

(١) محمد اقبال لعبد الوهاب عزام ، ص ١٠٠ من منظومة أسرار خوداي ، مطبوعات الباكستان سنة ١٩٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

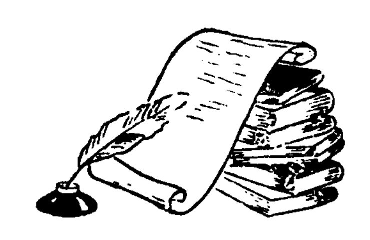
الموازنـة التي تتكـون حتماً في النفس بعـد وقـوفـه على مـا لـلإنسـان من معرفـة متغيرة ، وما لله من رسالة خالدة .

إيمانه بالله وبكتـاب الله ، هـدفـه الأعلى في الحيـاة ، يسعى إليـه دون أن تشوبه شائبة أخرى ، تضعف من شأنه .

فيا سيـدي العـالم ، إن لم تكن مجدداً ، فكن داعيـة تجـديـد ، منقبـاً عن مجـدد ، فلعـل المجـدد بين ظهرانينـا في أفكاره وهمتـه وإيمـانـه وفهمـه لعصره ، ولكنه بحاجة إلى ركائز يعتمد عليها .

سيدي العالم ... هـاهو القرن الهجري الرابع عشر قـد انتهى ، ودخلنـا في قرن هجري جـديـد ، وحـديث رسول الله ﷺ في التجـديـد والمجـدد ، لا بـد محقق ، ففتش عن المجدد ، واتبعـه ، أو لا تكن جـامـداً متزمتـاً ، كما كان بعض العلماء مع الشيخ نصير الـدين الطوسي ، ولا تشن حملـة لا هوادة فيهـا عليـه ، من على منبر المسجد ، فليس المنبر لهذا وجد ! !

فما أحوج الدعوة اليوم إلى الحكمة ، فهي لا تحتمل خطأ .



خاتمة

□ روى الإمام مالك ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسول الله »[1] .

□ أخي المسلم :

أرجو الله أن أكون قد وفقت ، في عرض هذا الكتاب بين يديك ، فلست من الذي ضيَّع القرآن ! ؟

فالعالم العامل ، سلطان على القلوب ، وبخاصة إذا جمع الفكر النير ، والقلب النيّر . فمن وجد عالماً عاملا ، وارثاً محمدياً ، داعياً إلى الله بحكمة وموعظة حسنة ، فقد نال سعادة الدنيا ، قبل سعادة الآخرة ، فمثل هذا العالم سيبعث في نفس المسلم : أخلاق القرآن وتعاليمه ، نقية من كل شائبة ، ويبث فيه الشعور بالله ، ويجعله يسعى في الحياة ليقطف ثمار السعادة والتوفيق ، والقوة والمعارفِ ، والمجد والغنى .

مثل هذا العالم الجليل : لن يزهد في الدنيا بل سيحض الناس على امتلاكها لتكون قوة للمسلمين ، يشجع العلوم كلها ، الصناعة كلها ... مع معاملات صادقة سليمة مع الناس . يُجَمِّع الناس ، ويؤلف بين قلوبهم ، لا ينفرهم من الله ، بل يحببهم به ، ففهم كتاب الله ، الفهم الصحيح ، يؤدي

---

(١) رواه مالك في موطئه ، والحاكم .

إلى نهضة الأمة ، باتباعها لتعاليمه ، ومايدعو إليه من الحياة الدنيوية السعيدة المؤهلة لرضاء الله ، ولحياة أبدية أخروية سعيدة .

أما العالم الخاطئ ، الداعي إلى الزهد والتواكل ، أو الداعي لعدم التزكية للنفس والروح ، أو عدم الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، مما يؤدي إلى النفور بين الدين والحاكم ، والجفوة وبعد الشقة ، كل ذلك يؤدي إلى ضياع الفكر القرآني الإسلامي ، وضياع الأمة ، والجرأة على دينها ، وهذا الصنف يظن نفسه أنه يحسن صنعا .

فشعار رسول الله ﷺ ، مقدس ، له حرمته وشرفه ، فما أجدر الخلق ، ألا يضعه أحد منهم إلا بعد اجتياز امتحان في علوم الشريعة ، وفهم القرآن فهماً جيداً عميقاً ، نصاً وروحاً ، مع امتحان تزكية وحكمة ...

والدعوة اليوم بحاجة إلى عقل فيلسوف ، وقلب ناسك ، يسيران بحكمة وحنكة . وكل من فقد العقل المليء بالمعارف الدنيوية والأخروية ، أو القلب المنور بالله فَقَدْ فَقَدَ أحد جناحي الخير .

□ دخلت مرة لصلاة العصر بمسجد من مساجد دمشق ، كانت الصلاة في الركعة الثالثة ، بدأت الصلاة وأتممتها بعد تسليم الإمام ، فقال لي أحدهم أمام جميع المصلين ، وبصوت عال : « ما بيجوز ، ركبتك عند القعود متقدمة أكثر من عرض كف عن جارك » ، قالها بغضب وعنف ، مما حز في نفسي ، فقلت له وبهدوء : أولا : جئت متأخراً ، ونويت بسرعة لألحق الركعة الثالثة ، وأنا أطول ممن بجانبي فكان هذا الفرق ، وليست تسوية الصفوف بالركب ، بل تسويتها بالأكتاف . ثم قلت : لو دخل شاب قد بدأ الصلاة حديثاً ، وسمع منك هذا النصح الذي خالفت به الحكمة ، لما عاد إلى صلاته ثانية . ثم قلت

لـه : أمـا تعرف حـديث رسـول الله ﷺ : « من أمر بمعروف ، فليكن أمره بمعروف[1] » ؟ . وقلت إن قناعتي بـالإسلام ومعرفتي لأحكامـه ، تجعلني أحسب عليك هـذا التصرف الخـاص ، ولو دخل شـاب جـديـد عهـد بـالإسلام ، لوصم الإسلام بعدم الحكمة والفظاظة ، وما وصمك . فلامه الجميع على طريقة نصحه ، فما يمكن أن نحصل عليه بـاللين والمحبـة ، نخطئ إن نلنـاه بـالعنف والبغض ، والأرجح لا ينال بالعنف والبغض ! .

ودخلنـا مرة لصلاة المغرب ، فـأقمنـا الصـلاة ، وأم بنـا صـديـق مجـاز بالشريعة ، ووقفنا ومعنا شباب يافع مؤمن ، ترك حياة اللامبـالاة والميوعـة ، إلى حيـاة المواطن الصـالح ، المؤمن الطـاهر المقبل على الله بصـدق وإخلاص . ولما انتهت الصلاة ، وقبـل السُّنـة ، جـاءنـا شخص في هيئـة عـالم ، مـا عرف الحكمة ، ومسك أحد هؤلاء الشباب المؤمن يعنفه ، ويخبره بعدم صحة صلاتـه . وكرر : « مـا بيجـوز » ، عشرات المرات ، فقلت بنفسي : مـاذا عمـل هـذا الشاب ، وقد كان يصلي إلى جانبي ، تلفَّت ؟ تكلم ؟ ضحـك في صلاتـه ... ؟ أريد أن أنهي هذا التعنيف البعيـد عن الحكمـة ، فقلت لـه مـاذا عمل ؟ قـال : أصابع الأرجل كانت عند السجود غير قـائمـة . فصرفت الشـاب ليصلي السُّنـة ، وقلت لهذا الآمر بالمعروف : كانت وظيفتنا ايصال هـذا الشـاب بعـد أشهر من النقاش والمحاولة إلى الإسلام وإلى المسجد للصلاة . ووظيفتك الآن اخراجـه من المسجد غضبـاً قـد وضع سـداً بين قلبـه وبين كل نصح عـالم لـه . لو لفت نظر الإمام الذي صلى بنا ، وقد رأيتنا دخلنـا معـاً ، فهو ينبهـه بلطف وبطريقـة غير مبـاشرة ، كان النبي ﷺ ، ينصح ويعلم بطريقـة « مـا بـال أقوام يفعلون كذا وكذا » ثم قلت مستذكراً : « من أوتي الحكمة ، فقد أوتي خيرا كثيرا » .

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

□ وهذه المجتمعات الإسلامية ، كي تتم نهضتها ، وكي يتم إيقاظها ، بحاجة إلى مجدد فيه كل الحكمة ، يستمد قوته من الله ، ومن فهمه الصحيح للشريعة ، وميزانها الدقيق ، فإن رأى الأمة بحاجة إلى علم وصناعة ، وطب وتسليح ، لتأخذ مكانتها سليمة ، منطلقة من مبدأ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، جعل العلوم كلها ، والصناعة ، والطب ، والتسليح ، فرضا كفرض الصلاة والصيام والحج ، مع رفعه لمستوى الأخلاق والإيمان في نفوس الناس ، ليحملوا معاني القرآن ، فلا تضيع معانيه وأهدافه .

□ مجدد ... لا يكتفي بالدعاء ، فالدعاء لا يكفي ، والدعاء وحده تألٍّ على الله فالآية واضحة : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم** ﴾ فأدِّ جانب الله بحق ، يأتِ نصر الله وتوفيقه ، **فألوف المنابر يدعى عليها منذ مئات السنين ، بعد كل خطبة جمعة ، والملايين تقول آمين ، فأين استجابة الله ؟ للاستجابة شروط : «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » ، التقوى أولا ، ثم فرج الله .**

في رمضان الماضي وبمناسبة غزوة بدر الكبرى ، قال خطيب الجمعة في دعائه : اللهم اجعل لنا ثواب أهل بدر واحشرنا معهم . فاستحييت من الله أن أقول : آمين ، كيف نستوي معهم بالثواب والمنزلة ؟ ماذا عملوا ، وماذا عملنا ؟ صنعوا وأوجدوا إسلاماً ، ونحن أضعناه وحصرناه بعبادات ودعوات ، ثم نحصل على ثواب كثوابهم ومنزلة كمنزلتهم ؟ هذا أمر بعيد ! !

□ مجدد ... يرجع إلى كتاب الله فهماً وتطبيقاً . رجعة إلى فقه القرآن والسنة الشريفة . ولا يجعل همه جوانب فقهية معينة ، ويطيل الحديث عن الوضوء والتيمم ، وأركان الصلاة ، وشروطها ، والاغتسال ، وأنواع المياه ... فأحكام هذه الأمور ثابتة ، لا تتغير بتغير الأزمان ، وهي من البساطة بشكل يفهمها الإنسان من كتيب مبسط ، أو بمراقبة عالم يطبقها ، أما قال رسول الله

« خذوا عني مناسككم » ، « صلوا كما رأيتموني أصلي » ... مجدد يخوض غمار مؤلفات جديدة ، ومجلدات حديثة عن :

- ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

- ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ .

- ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ .

- ﴿ الذي خلق فسوى ، والذي قدَّر فهدى ﴾ .

- العالم يتاجر بمكانةالمرأة اليوم وحقوقها ، وفي القرآن « سورة النساء » ، سورة للنساء تكريماً ، وصيانة لحقوقها . فأين المجلدات : عن سبق الإسلام لإعطاء المرأة حقهاكاملا ، مع بيان الفهم الخاطئ للمسلمين لأحوال وحقوق وواجبات المرأة المسلمة .

حُذِّر الناس من النجاسة ، وما حذروا من الفقر . حُذِّروا من المياه المُشَمَّسَة ، وما حذروا من ترك العلوم وسطوة أعداء الإسلام لقبضهم على زمام العلوم كلها .

□ مجدد ... يرى المسائل والمشكلات المعاصرة ، فكلما طُرقت مسألة ، وعرضت الحلول من أصحاب المذاهب ، نرى الإسلام حاضراً يعرض حلوله ، نراه بيننا موجوداً ، لا ضائعاً ساكتاً لا صوت له .

وبمثل هذه الأمور تحيا الأمة الإسلامية ، ومن أول خطوات حياتها أُلفة علمائها ، ورابطتهم القوية فيما بينهم ، محبتهم لبعضهم . القرآن يخاطب الكفرة المشركين بقوله : « **يا أهل الكتاب** » ، هذا خطاب القرآن لغير المسلم ، تكريماً له وتألُّفاً . فكيف يجب أن يكون خطاب المسلم للمسلم ، العالم للعالم . أما سمعنا تكفير بعضهم بعضاً ! !

ما قال الله لموسى وهارون قولا لفرعون قولا مكفراً . قال عز وجل ﴿ قولاً ليناً ﴾ مع من ؟ مع فرعون ، وما أظن أنه قد وصل إنسان إلى درجة فرعون . اللين ، اللين يا سادة ، البِشرُ ، المحبة .. رجوعاً إلى ميزان الشريعة : ﴿ ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ، تبتغونَ عرضَ الحياة الدنيا[1] ﴾ . فكيف بمن يكفر ويفسق ويخاصم ، ولا يرد السلام ، ولا يقبل بصلح أفاضل القوم ؟ هل قرأ القرآن ؟ الجواب نعم طبعاً ، أين العمل بما قرأ ؟ : ﴿ الذين آتيناهُمُ الكتابَ يتلونَهُ حَقَّ تلاوتِهِ ، أولئكَ يؤمنونَ به[2] ﴾ . فأين حق التلاوة ؟ وأين العمل بعد حق التلاوة ؟

الآية الكريمة في سورة التوبة : ﴿ والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهُمْ أولياءُ بعض ، يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكَرِ ، ويقيمونَ الصلاة ويؤتونَ الزكاةَ ، ويطيعونَ الله ورسولَهُ ، أولئك سيرحمُهُمُ اللهُ ، إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾ . لقد قدم الله التضامن والمناصحة عن العبادات ... ذكر الله عز وجل « **بعضهم أولياءُ بعض** » ثم ذكر : « يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة » .

☆ ☆ ☆

□ والمسلم ... يظن نفسه مسلما إذا كان أبوه مسلما ، فهو مسلم بالوراثة دون تعلم . الإنسان قبل أن تصل إليه يد العالم المزكي المهذِّب . هو كالفلز غير المصنع . فجبل من الحديد الفلز ، لا يفيد كطن من الحديد المصنع على شكل طائرة أو سيارة . وكذلك الإنسان الخام ، لا فائدة محققة منه ، إنما الإنسان

---

(١) سورة النساء ، الآية الكريمة : ٩٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ١٢١ .

المهذب المربى ، عنصر فعال في الأمة ، ونقل الإنسان الخام إلى الإنسان المزكى المربى ، وظيفة العالم الوارث المحمدي .

فالعملية دين وقرآن وإسلام ، والمشرف عليها الأنبياء سابقاً ، وورثتهم الأوفياء حالياً ، ومن لا ينتج ، ولا يُحسن أداة الدعوة ، ماذا نقول عنه ؟ ! ولن ينجح داع ، إلا بالإحسان وبالإيثار ، وبالمحبة والرحمة والرأفة والتعاون ... وهذه الصفات لا يقوم بها قلب رجل ، إلا إذا خاض معركة مع نفسه فقهرها بعد صبر ، فيملك نفسه ، بعد أن كانت تملكه نفسه ولكن : ﴿ وما يُلقاها إلا الذين صبروا ، وما يُلَقَّاها إلا ذُو حَظٍ عظيم[1] ﴾ .

الأرض كالنفس البشرية ، فالأرض إن لم تنتج إلا الشوك والأعشاب الضارة ، وتجمَّعت فيها الحشرات ، ولم تنتج الزهور والورود والأطايب ، فمعنى ذلك فقدان المزارع الماهر العامل النشيط !

عدم وصول ركاب الطائرة النفاثة السليمة ، سببه فقدان الطيار . فترك الركاب الطائرة لأنها لم تتحرك من مدرجها ، وقد سمعوا أنها تطير بسرعة ألف كيلو متر في الساعة وجلسوا بها ساعات ، وما برحت مكانها . فكذبوا خبرها ، وركبوا وسيلة أخرى أبطأ منها ، أو ساروا على أقدامهم رغم بعد الطريق ومشقته ، فالحركة خير من السكون في مثل هذه الحالة ، ويا ليتهم جربوها وربانها قائم عليها .

الطائرة هي الإسلام ، والطيار هو المجدد ، العالم الوارث ، فأين هو ؟ قد يكون بين ظهرانينا ، فيا سعادة من يضع يده بيده ، ويا تعاسة من يقف حجر عثرة في طريقه ، أو يروج الإشاعات حوله ! !

---

(١) سورة فصلت ، الآية الكريمة : ٣٥ .

□ يحكي جلال الدين الرومي حكاية لطيفة في موضوع الدعاة المخلصين ، والرجال الحقيقيين العاملين ، أعرضها بمعناها :

رأى رجلا يدور حول المدينة ليلا ، وقد حمل مشعلا كأنه يبحث عن شيء ، فسأله : يا سيدي ! تبحث عن شيء ، قال : نعم ... ضقت ذرعاً بمعاشرة الناس العاديين على اختلاف مظاهرهم ، وخرجت أبحث عن إنسان عملاق مغوار . لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي . فقلت له : إن الذي تبحث عنه ، ليس يسير المنال ، وقد بحثت عنه طويلا فلم أجده ، فقال : إنني مغرم بالبحث عمن لا يوجد بسهولة ، ولا يعثر عليه في الطرقات ! !

□ المسلمون اليوم - بل من بقي منهم على الإسلام - يغالي في العبادات ، والعالم في المسجد - إن عَلَّم - لا يعلم إلا العبادات ، وكأن الإسلام دين رهبانية : قيام وصيام وذكر لله كثير ، وإذا حان موسم الحج هرعوا إليه كل سنة ، وهذا هو كل الدين عندهم ، أين الدنيا ، ولمن تركوها ؟

العبادات فريضة لا شك فيها ، ولكنها جزء من الإسلام ، فأين ما ينهض بالمسلمين من علم أو صناعة أو زراعة أو تجارة ؟ وما إلى هذا مما يحفظ عليهم ، دنياهم كريمة ، ولا يجعلهم فيها أقل نجاحاً من غيرهم ، كيلا يطمع فيهم طامع ، ولا يستبيح حماهم عدو ، فيملك عليهم أمرهم ، ويضيع عليهم دينهم ودنياهم !

ولضياع هذه المعاني ، وللفهم الخاطئ المبتور ، نحن بحاجة إلى التجديد ، لأن أمور العبادة في الإسلام لا تقبل التغيير ، فالصلاة هي الصلاة ، والصوم هو الصوم ، والزكاة هي الزكاة ...

الإسلام دين جامع لصلاح الدنيا والآخرة : ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ﴾ . الاسلام نهضة دينية وحضارية معاً ، اتسع للدين والدنيا ، وما رجح واحدة عن أخرى ، غايته نهوض عام بالبشرية جمعاء ، ووسائل النهوض تسير في طريق الارتقاء ، ولا تقف عند حد محدود ولا تتعداه ، فأمرها يختلف عن العبادات ، ومن هنا فإن الإسلام يتسع للتجديد في كل زمان ، والتجديد نهوض بالمسلمين في أمور دنياهم ، قبل أن يكون نهوضا في أمور أخراهم .

□ في مؤتمر باندونغ الإسلامي ، الذي عقد في آذار ١٩٦٥ ، مثل سورية سماحة المفتي العام للجمهورية العربية السورية . فاستثار الاعجاب ، عند إلقائه كلمة سورية ، إذ كانت كلمته رائدة في مجال تفهم الإسلام الحق المصفى ، التفهم الواقعي العملي ، ذلك الدين الذي ضمن للبشرية كافة ، السعادة في الدنيا والآخرة . فقرأ سماحته الآية الشريفة : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ﴾ وتعمد أن يقرأها خطأ بوضع كلمة « الآخرة » قبل كلمة « الدنيا » . فصرخ الحاضرون من كل مكان يقولون : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ... » فأعاد تلاوتها ، وتعمد ثالثة أن يخطئ في تلاوتها ، فثارت ثائرة الوفود يقولون : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ... » فالتفت إليهم ، وعلى شفتيه ابتسامة ذات مدلول كبير وقال :

ـ أيها الإخوة رؤساء وأعضاء وفود المؤتمر ، أظن أنكم تعتقدون أنه لا يوجد مسلم يخطئ في تلاوة هذه الآية ... ولكنني قرأتها على هذا الشكل بلسان المسلمين الذين حذفوا الدنيا من حسابهم ، إنكم لا ترضون أبداً أن نبدل لفظ كلمة بكلمة أخرى في القرآن الكريم . فكيف نرضى أن يتم هذا التحريف للقرآن في حيز الأعمال ، وفي نطاق الأفعال ، في مختلف ميادين الحياة ؟ ! !

هل المسلمون اليوم ، على حالة حسنة ترضي الله رب العالمين ؟ أين التقدم العلمي والتكنولوجي لدى المسلمين ؟ أين الرقي والتطور الحضاري في بلاد المسلمين ؟ أين العزة والرفعة التي اختص الله بها نفسه والمسلمين ؟ إن واقع المسلمين إن دل على شيء ، فإنما يدل على أنهم اتجهوا في الأعصر الأخيرة ، إلى طلب الحالة الحسنة في الآخرة ، وترك الحسنة في الدنيا ، وهذا تحوير لمعاني القرآن الكريم ، أخطر من تحوير الألفاظ والكلمات .

وانفجر الحاضرون بتصفيق حاد طويل ، يعبر عن مدى ما حملت هذه النفوس ، من إعجاب كبير حيث وضع المؤتمر أمام مسؤولياته ، وفي وجوب العمل على السير بالمسلمين إلى سبيل تحقيق الإسلام بمعناه الكامل ، الذي لا يضيع الدنيا ، ويقتصر على الجانب الأخروي من هذا الدين الحنيف . وانصرف المؤتمرون عن طرح ومناقشة القضايا ذات النتائج العقيمة ، ليلتفتوا إلى النظر فيما يمكن أن يعود على المسلمين بالخير ، وتم اتخاذ عدد من المقررات ، كان من أهم المنجزات التي تمت خلال المؤتمر : إنشاء جامعة للدعوة الإسلامية .

☆ ☆ ☆

وقف غلادستون ، رئيس وزراء بريطانيا (١٨٦٨ ـ ١٨٧٤) ، الذي نشأ قسيسا ، وكان معروفاً بعدائه للعالم الإسلامي ، في مجلس العموم البريطاني وقد حمل قرآنا بيده وقال : لن تسيطروا على بلاد المسلمين ، إلا عندما تنتزعوا هذا الكتاب من بين أيديهم ، وتشككوهم به .

لقد نجحت خطة التبشير ، وضاع القرآن من بين أيدي المسلمين ، ضاع فهمه وضاعت أحكامه في معاملاتهم ...

والعالم الإسلامي ينتظر المجدد وقد أصبحنا في القرن الخامس عشر

للهجرة ... ليعيد إلى القرآن نضارته في النفوس ، وتطبيقه في الأعمال ، ويكون طريق رفعتنا وعزتنا كما كان أيام الراشدين : فالمسلمون يعانون اليوم من التخلف العلمي .. وقد رأينا القرآن يدعو إلى العلم بصريح آياته بمختلف صوره ، بما ينهض بالأمة في كل المجالات .

والمسلمون اليوم يعانون من التخلف الخلقي ، والقرآن قد دعا إلى تربية خلقية مثالية ، ضمنت سابقاً ، وتضمن اليوم الأمن والطمأنينة للفرد والمجتمع .

والمسلمون يعانون انقسامات وفرقة ، والقرآن دعا إلى الوحدة ، فأيام النبي الكريم حين كان القرآن ينزل ، لم يكن هناك اسم للمؤمنين سوى كلمة « مؤمن » أو لم يكن هناك اسم للمسلمين سوى كلمة « مسلم » .. ولم يكن هناك كلمة : سني أو شيعي أو سلفي أو صوفي ...

فمتى نعود إلى هذا اللفظ : « **مؤمن مسلم** » ؟ الذي يجمع الأمة على قلب رجل واحد ، يتغذى بمائدة القرآن ، ودعوته الصريحة إلى الوحدة ، ونبذ الفرقة والتنافر والتطاحن ...

خصوصا ... وأن أعداء الإسلام ، حين عجزوا عن تحوير وتحريف نصوص القرآن ، دخلوا من باب تحوير وتحريف المعاني والتفسير والفهم ، فجعلونا مذاهب وشيعاً . ولن ينقذنا .. إلا الرجوع إلى فهم القرآن الكريم ، كما فُهم أيام النبي ﷺ ، وإلى عصر النبوة فهماً سليماً ..

هذا ما ندعو إليه ... فمتى تستجاب الدعوة ... والواقع يدعونا جميعاً للاستجابة ، فالعدو الصهيوني ـ ومن ورائه الاستعمار الحديث ـ يهدد مقدساتنا ، ويطعننا في قلب الأمة العربية .. بل إنه يهدد وجودنا الحضاري كله ! ! .

﴿ .. ويومئذٍ يَفْرَحُ المؤمنون بنصرِ الله يَنْصُرُ مَن يَشاءُ ، وهو العزيزُ الرحيم ﴾ (الروم / ٤) .

مصادر البحث

١ ـ الإسلام في القرن العشرين	**عباس محمود العقاد**	داز الكتب الحديثة
٢ ـ الاسلام على مفترق الطرق	**محمد أسد**	دار العلم للملايين ط ٤
٣ ـ الاسلام روح المدنية	**الشيخ مصطفى الغلاييني**	المكتبة العصرية
٤ـ الأعلام	**خير الدين الزركلي**	الطبعة الثالثة
٥ـ الاتجاهات الحديثة في الاسلام	**د . جيب**	دار مكتبة الحياة
٦ ـ أخلاق القرآن	**د . أحمد الشرباصي**	دار الرائد العربي
٧ ـ إحياء علوم الدين	**أبو حامد الغزالي**	دار المعرفة « بيروت »
٨ ـ ابن قيم الجوزية	**د . عبد العظيم شرف الدين**	مكتبة الكليات الأزهرية ط ٢
٩ ـ أثر العرب في الحضارة الأوربية	**العقاد**	دار المعارف ط ٢
١٠ ـ المسلم	**مجلة العشيرة المحمدية**	« القاهرة » .
١١ ـ القرآن محاولة لفهم عصري	**د . مصطفى محمود**	دار الشرق
١٢ ـ الكامل في التاريخ	**ابن الأثير الجزري**	إدارة الطباعة المنيرية
١٣ ـ الفضيل بن عياض	**د . عبد الحليم محمود**	دار الشعب
١٤ ـ المستقبل لهذا الدين	**سيد قطب**	مكتبة وهبة ط ٢
١٥ ـ الوحدة الاسلامية	**محمد أبو زهرة**	سلسلة الثقافة الاسلامية
١٦ ـ الدين والعقل	**د . سليمان دنيا**	سلسلة الثقافة الاسلامية
١٧ ـ أسد الغابة	**ابن الأثير الجزري**	دار الشعب
١٨ ـ الدعوة إلى الاسلام	**توماس و . أرنولد**	دار النهضة العربية ط ٢
١٩ ـ التراث الروحي	**محمد عبد المنعم خفاجي**	دار العهد الجديد
٢٠ ـ القرامطة	**عارف تامر**	دار الكاتب العربي
٢١ ـ المجددون في الاسلام	**عبد المتعال الصعيدي**	مكتبة الآداب ومطبعتها
٢٢ ـ الفكر الاسلامي الحديث	**د . محمد البهي**	مكتبة وهبة
٢٣ ـ الجواهر	**طنطاوي جوهري**	طبعة البابي الحلبي
٢٤ ـ الغزالي	**طه عبد الباقي سرور**	سلسلة اقرأ

٢٥ ـ المغرب العربي — **د . صلاح عقاد** — مكتبة الأنجلو مصرية : ١٩٦٢

٢٦ ـ الدستور القرآني والسنة النبوية — **محمد عزة دروزة** — البابي الحلبي : ١٩٦٦

٢٧ ـ أنس بن مالك — **عبد الحميد طهماز** — دار القلم دمشق ـ بيروت

٢٨ ـ الإمام الشافعي — **عبد الغني الدقر** — دار القلم

٢٩ ـ القرآن والتفسير العصري — **د . بنت الشاطئ** — سلسلة اقرأ : ٣٣٥.

٣٠ ـ الفلسفة القرآنية — **العقاد** — كتاب الهلال

٣١ ـ المدخل إلى علم أصول الفقه — **محمد معروف الدواليبي** — جامعة دمشق ط ٢

٣٢ ـ الملل والنحل — **الشهرستاني** — البابي الحلبي : ١٩٦١.

٣٣ ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان — **ابن قيِّم الجوزية**

٣٤ ـ أعلام الموقعين — **ابن قيِّم الجوزية** — مطبعة الكردي

٣٥ ـ أصول التشريع الاسلامي — **علي حسب الله** — مطبعة العلوم : ١٩٥٢

٣٦ ـ الدعوة الإسلامية دعوة عالمية — **محمد الراوي** — ط دار العربية

٣٧ ـ تلبيس ابليس — **عبد الرحمن بن الجوزي** — دار الوعي العربي (بيروت)

٣٨ ـ تجديد التفكير الديني في الإسلام — **د . محمد اقبال** — ط : ١٩٥٥

٣٩ ـ تذكرة دعاة الاسلام — **أبو الأعلى المودودي** — دار العربية

٤٠ ـ تاريخ الطبري — **ابن جرير الطبري** — دار المعارف بمصر

٤١ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية — **كارل بروكلمان** — دار العلم للملايين

٤٢ ـ تاريخ الدولة العربية — **يوليوس فلهاوزن** — القاهرة : ١٩٥٨

٤٣ ـ تحت راية القرآن — **مصطفى صادق الرافعي**

٤٤ ـ تهذيب سيرة ابن هشام — **عبد السلام هارون** — دار سعد بمصر

٤٥ ـ جامع بيان العلم وفضله — **ابن عبد البر النمري القرطبي** — المكتبة السلفية ط ٢

٤٦ ـ جمال الدين الأفغاني — **عبد القادر المغربي** — سلسلة اقرأ : ٦٨

٤٧ ـ جمال الدين الأفغاني الحسيني — **محمد المخزومي** — دار الفكر الحديث ـ لبنان

٤٨ ـ حضارة العرب — **غوستاف لوبون** — ترجمة زعيتر

٤٩ ـ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية — **عبد الله التل** — دار القلم

٥٠ ـ دراسات في حضارة الاسلام — **هاملتون جيب** — دار العلم للملايين

٥١ ـ دراسات في الفلسفة القرآنية — **د . محمود قاسم**

٥٢ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام — **أبو الحسن الندوي** — دار القلم ـ الكويت

الكتاب	المؤلف	الناشر
٥٣ ـ شخصيات قلقة في الاسلام	عبد الرحمن بدوي	دار النهضة العربية ط ٢
٥٤ ـ شروط النهضة	مالك بن نبي	دار الفكر
٥٥ ـ صحيح البخاري	الإمام البخاري	
٥٦ ـ علماء في وجه الطغيان	محمد رجب بيومي	الدار القومية للطباعة والنشر
٥٧ ـ عبد الله بن المبارك	محمد عثمان جمال	دار القلم دمشق ـ بيروت
٥٨ ـ فلسفتنا	محمد باقر الصدر	منشورات عويدات ـ بيروت
٥٩ ـ قوت القلوب	محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي	البابي الحلبي : ١٩٦١
٦٠ ـ كيف انتشر الاسلام	محمد المهدي الحسيني الشيرازي	شباب التبليغ ـ كربلاء
٦١ ـ مع الأبطال	محمد رجب بيومي	الدار القومية للطباعة والنشر
٦٢ ـ من أخلاق العلماء	الشيخ محمد سليمان	
٦٣ ـ مدخل إلى التصوف الإسلامي	أبو الوفا الغنيمي التفتنازي	دار الثقافة : ١٩٧٤
٦٤ ـ مشكلات الدعوة والداعية	فتحي يكن	ط : ٣
٦٥ ـ معاً على الطريق : محمد والمسيح	خالد محمد خالد	دار الكتب الحديثة : ط ٢
٦٦ ـ مدارج السالكين	ابن قيم الجوزية	مطبعة المنار ، ط : ١
٦٧ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	الندوي	دار الكتاب العربي
٦٨ ـ مباحث في علوم القرآن	د . صبحي الصالح	دار العلم للملايين
٦٩ ـ ما هي القاديانية	أبو الأعلى المودودي	دار القلم ـ الكويت
٧٠ ـ نظرات في القرآن	محمد الغزالي	دار العلم للملايين



المحتوى

WHO HAS INACTIVATED THE QUR'AN ?

Man Ḍayya' al-Qur'ān?

Dr. Shawqī Abū Khalīl

من ضيّع القرآن؟

هل تغيّر القرآن الكريم وما احتوى من مبادئ وأهداف؟

اللّهم لا، وألف لا.

هل ساء الفهم، وتغيّر المفسّرون والفاهمون لهذا القرآن ومعانيه؟

اللهم نعم، وألف نعم.

لم يتغيّر القرآن الكريم في ألفاظه، ولا ضاعت آياته المسطورة، وهو في بيت كلّ مسلم، ونسمعه من إذاعات العالم مجوّداً بأعذب الأصوات، ولكن الّذي حدث أن هذا القرآن الكريم قد ضاع على الرغم من وجوده!!

في هذا الكتاب (من ضيّع القرآن؟) سنرى مَنْ أضاعه عن هدفه ومراميه، وهجره تطبيقاً وفهماً صحيحاً وديناً حياتياً ومعاملات وركيزة حياة.

قال تعالى: ﴿وقالَ الرَّسُولُ يا ربِّ إنَّ قَوْمي، اتّخذوا هذا القرآن مهجُوراً﴾ [الفرقان: ٢٥/٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «يأتي على النّاس زمان، القرآن في وادٍ، وهم في وادٍ غيره» [رواه الحكيم عن حيّان بن حجر].

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (775) 417-0836
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-240-6



SROUR ALWANI 2000